



ISSN:1858-9952

القلزم للدراسات التاريخية والعصرية

مجلة محكمة

تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر
بالتعاون مع الاتحاد الدولي للمؤرخين

في هذا العدد :

- بعض أسماء قرى الهوَّاد أصلها ودلالاتها
د. الشيخ سالم الشيخ القروي
- أهم المدن الإسلامية في القرن الأول الهجري مدينة البصرة أمودجاً.
أ. سميرة بنت صقر بن غميض اليزيدي
- تجارة العبور (الترانزيت) في البحر الأحمر خلال القرن الثالث عشر الهجري/
التاسع عشر الميلادي
أ. سهى سعود شعبان
- الاستشراق، (مراحل، وسائل، وأهدافه)
د. شوقي عبد المجيد عبيدي
- المجتمع والاقتصاد في الحجاز في العهد العثماني الثاني 1256 - 1334هـ/
1840 - 1916م
أ. سماح علي عبد الله العماري



العدد السادس - ذو القعدة 1442هـ - يونيو 2021م

فهرسة المكتبة الوطنية السودانية-السودان

مجلة القلزم: Alqulzum Journal for:

Historical and cultural Studies

الخرطوم : مركز دول حوض البحر الأحمر 2021

تصدر عن دار آريثيريا للنشر والتوزيع -السوق العربي-

السودان - الخرطوم

ردمك: 1858-9952

مجلة القلزم للدراسات التاريخية و الحضارية

الهيئة العلمية و الإستشارية

- أ.د. حسن أحمد إبراهيم-السودان
أ.د. سارة بنت عبد الله العتيبي- المملكة العربية السعودية
أ.د. أسامة عبد الرحمن الأمين- السودان
أ.د. أبو هريرة عبد الله محمود يعقوب- السودان
أ.د. أشرف محمد عبد الرحمن مؤنس - جمهورية مصر العربية
أ.د. السمانى النصري محمد أحمد - السودان
د. أحمد الياس الحسين - السودان
د. داود ساغه محمد عبد الله- السودان
د. سلطان أحمد الغامدي- المملكة العربية السعودية
د. سامي صالح عبد المالك البياضي- مصر
د. محمد أحمد زروق- المغرب
د. سعاد عبد العزيز أحمد السودان
د. أحمد محمد مركز- السودان
د. باب ولد أحمد ولد الشيخ سيديا- موريتانيا
د. عزة محمد موسى - السودان
د. حنان عبد الرحمن عبد الله التجاني- السودان
د. ربيعة أحمد عمران المداح- ليبيا

هيئة التحرير

المشرف العام

الأستاذ د.إبراهيم البيضاني

رئيس هيئة التحرير

د.حاتم الصديق محمد احمد

رئيس التحرير

د. عوض أحمد حسني شبا

سكرتير التحرير

د.سلوى التجاني فضل جبر الله

التدقيق اللغوي

أ.الفتاح يحيى محمد عبد القادر

الإشراف الإلكتروني

د. محمد المأمون

التصميم الداخلي

أ. عادل محمد عبد القادر

تصميم الغلاف

ايلين عبد الرحيم ابنعوف

الآراء والأفكار التي تنشر في المجلة

تحمل وجهة نظر كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن آراء المركز

موجهات النشر

تعريف المجلة:

مجلة (القلزم) مجلة علمية مُحكمة تصدر عن مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر. تهتم المجلة بالبحوث والدراسات التي تخص حوض البحر الأحمر والدول المطلة عليه والمواضيع ذات الصلة.

موجهات المجلة:

1. يجب أن يتسم البحث بالجودة والأصالة وألا يكون قد سبق نشره قبل ذلك.
 2. على الباحث أن يقدم بحثه من نسختين. وأن يكون بخط (Traditional Arabic) بحجم 14 على أن تكون الجداول مرقمة وفي نهاية البحث وقبل المراجع على أن يشار إلى رقم الجدول بين قوسين دائريين ().
 3. يجب ترقيم جميع الصفحات تسلسلياً وبالأرقام العربية بما في ذلك الجداول والأشكال التي تلحق بالبحث.
 4. المصادر والمراجع الحديثة يستخدم أسم المؤلف، اسم الكتاب، رقم الطبعة، مكان الطبع، تاريخ الطبع، رقم الصفحة.
 5. المصادر الاجنبية يستخدم اسم العائلة (Hill, R.).
 5. يجب ألا يزيد البحث عن 30 صفحة وبالإمكان كتابته باللغة العربية أو الإنجليزية
 6. يجب أن يكون هناك مستخلص لكل بحث باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد على 200 كلمة بالنسبة للغة الإنجليزية. أما بالنسبة للغة العربية فيجب أن يكون المستخلص وافياً للبحث بما في ذلك طريقة البحث والنتائج والاستنتاجات مما يساعد القارئ العربي على استيعاب موضوع البحث وبما لا يزيد عن 300 كلمة.
 5. لا تلتزم هيئة تحرير المجلة بإعادة الأوراق التي لم يتم قبولها للنشر.
 - * على الباحث إرفاق عنوانه كاملاً مع الورقة المقدمة (الاسم رباعي، مكان العمل، الهاتف، البريد الإلكتروني).
- نأمل قراءة شروط النشر قبل الشروع في إعداد الورقة العلمية

المَحَوَّلَات

بعض أسماء قرى الهَوَّاد أصلها ودلالاتها.....(20-7)

د.الشيخ سالم الشيخ القراي

الدولة المهدية في السودان (26 يناير - 22 يونيو 1885م).....(34-21)

د.عادل علي وداعة عثمان

أهم المدن الإسلامية في القرن الأول الهجري مدينة البصرة أمودجاً.....(48-35)

أ. سميرة بنت صقر بن غميض اليزيدي

تجارة العبور (الترانزيت) في البحر الأحمر خلال القرن الثالث عشر الهجري / التاسع

عشر الميلادي.....(68-49)

أ. سهى سعود شعبان

الاستشراق، (مراحل، وسائله، وأهدافه).....(80-69)

د. شوقي عبد المجيد عبيدي

قراءة موجزة في الحالة السياسية للمخلاف السليمانى (1185-1215هـ/1771-1801م).....(94-81)

أ. هدى بنت علي يحيى أبو عقار

قلعة صلاح الدين الأيوبي في القاهرة (دراسة تاريخية) 572هـ - 1186م / 1355هـ - 1936م.....(118-95)

د.منيرة محمد عبد الله

المواصفة السودانية للمكتبات الجامعية دراسة تحليلية.....(140-119)

د.عبد الباقي يونس إسماعيل

المجتمع والاقتصاد في الحجاز في العهد العثماني الثاني 1256 - 1334هـ / 1840 - 1916م.....(178-141)

أ.سماح علي عبد الله العماري



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الخلق أجمعين.

القارئ الكريم:

بعد السلام وكامل التقدير والاحترام يسعدنا أن نضع بين يديك هذا العدد من مجلة القلزم للدراسات التاريخية والحضارية الذي يأتي في إطار الشراكة العلمية المثمرة والجادة مع الاتحاد الدولي للمؤرخين (الدنمارك).

القارئ الكريم:

هذا هو العدد السادس من المجلة بفضل الله وتوفيقه بعد أن نجحت المجلة بواسطة هيئتها العلمية والاستشارية وهيئة تحريرها في إصدار خمس أعداد، الأمر الذي يضع الجميع أمام تحدي كبير يتمثل في بذل المزيد من الجهد بغرض التطوير والتحديث والمواكبة لتصبح هذه المجلة في مصاف المجلات العالمية الرائدة بإذن الله تعالى.

القارئ الكريم:

نأمل أن يكون هذا العدد أكثر شمولاً وتنوعاً من حيث المواضيع وطريقة طرحها وتحليلها ومعالجتها. ونسأل الله تعالى أن يجد المهتمين والمختصين والباحثين في هذا العدد ما يفيدهم ويضيف للبحث العلمي. وأخيراً نجدد شكرنا وامتناننا لكل الذين أسهموا في إنجاح هذا العدد من باحثين، ومحكمين ونجدد دعوتنا للجميع بأن أبواب النشر مشرعة في جميع مجالات القلزم العلمية المتخصصة.

أسرة التحرير

بعض أسماء قرى الهَوَاد أصلها ودلالاتها

أ. مشارك قسم اللغة العربية - كلية
الآداب - جامعة شندي

د. الشيخ سالم الشيخ القري

المستخلص:

لقد تناولت في هذه الدراسة أسماء عددٍ من قرى وادي الهَوَاد، لمعرفة دلالة الاسم وأصله وآراء السكان المحليين في سبب التسمية، متبعاً المنهج الوصفي التحليلي، واستقراء معاجم اللغة، الأهداف: أسعى للكشف عن أصل هذه الأسماء، ومعرفة دلالة هذه الأسماء، ومدى صدق الروايات التي يتناقلها أهل هذه المناطق عنها. وتكمن أهمية الدراسة في توضيح بعض الجوانب اللغوية لأسماء هذه الأماكن وصلتها باللغة العربية، وهو أمر يجعله كثير من الناس، الاعتماد على الروايات الشعبية في تفسيرها يذهب بها بعيداً عن أصلها وتاريخها. ومن النتائج المهمة التي توصلت إليها الدراسة: جهل معظم السكان المحليين بدلالة هذه الأسماء وأصلها، اختلاق قصص أقرب إلى الخيال لتعليل هذه التسميات، ومعظم هذه التفسيرات يعتمد على الروايات الشعبية التي لا تستند إلى دليل.

Abstract

In this study, I dealt with the names of a number of villages in Wadi al-Hawad, to find out the significance of the name, its origin, and the views of the local population regarding the reason for naming. Following the analytical descriptive approach, extrapolating the language dictionaries, the objectives: I seek to uncover the origin of these names, know the significance of these names, and the extent of the authenticity of the narrations transmitted by the people of these regions about them. The importance of the study lies in clarifying some of the linguistic aspects of the names of these places and their relevance to the Arabic language, which is something that many people unaware of. Relying on popular narratives in their interpretation takes them away from their origin and history. The important finding of this study is that most of the

local residents are unaware of the origin and meaning of these names. They invent stories closer to fiction to explain the villages names, and most of these stories are based on popular narratives that are not based on evidence.

مقدمة:

من قرى الهَوَاد: أبورُتَيْلَة، الفَهَيْد، والنُّمَيْد، و ود الحَمَاض، وغيرها كثير من القرى المنتشرة على جانبي الوادي. عند زيارتنا لوادي الهَوَاد في مشروع بحثي؛ فكان من الأمور التي سمعناها وتثير الفضول الإجابات التي يدلي بها السكان لتوضيح سبب التسمية، ففيها تخرُّص وروايات لا تفي بالغرض، وفي أحيان كثيرة نشتمُّ منها رائحة التكلف واختلاق بعض القصص التي تدل على تعالُّم بعضهم أو ادِّعاء فخر بالأصل الشريف أو الموغل في القدم. وهذه القرى تقع على وادٍ كبير اسمه وادي الهَوَاد.

وادي الهَوَاد:

هو من أكبر الوديان التي تشق سهل البطانة. فهو يأتي منحدرًا من أقاصي جنوب شرق السهل. ويصب في النيل تحديداً جنوب كبوشية. وشمال قرية الكبوشاب. ويعرف قبل أن يصب في نهر النيل باسم وادي العَوْلِب وَيُرْوَى أهل هذه المنطقة أن تسميته ترجع لاسم حفير يقع في وادي الهَوَاد، ويقال أن عَوْلِب اسم ملك من ملوك مملكة مروحي (البحراوية) ولهذا السبب يُسمَّى هذا الوادي بوادي العوليب نسبة لهذا الملك⁽¹⁾، يقول بعضهم أن كلمة عَوْلِب كلمة من مفردات لغة البجة تعني الخلاء، وهي مسألة تحتاج إلى بحث في تاريخ هذه المنطقة ولغاتها القديمة. واسم الهَوَاد نفسه اختلف في دلالاته.

دلالة لفظ هَوَاد:

سأحاول من خلال استنطاق اللغة أن اقترُب من فهم كلمة هَوَاد. ومن معاني مادة (هود) في معاجم اللغة: « وَقَالَ أَبُو عبيد: فِي حَدِيثِ عُمَرَانَ بْنِ الْحَصِينِ أَنَّهُ أَوْصَى عِنْدَ مَوْتِهِ: إِذَا مِتَ فَخَرَجْتُمْ بِي فَأَسْرِعُوا الْمَشْيَ وَلَا تُهَوِّدُوا كَمَا تُهَوِّدُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو بَرَةَ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُلْقَمَةَ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: لَا تُهَوِّدُوا النَّهْدِيَّةَ: الْمَشْيَ الرَّوَيْدُ مِثْلَ الدَّبِيبِ وَنَحْوِهِ وَكَذَلِكَ التَّهْوِيدُ فِي الْمَنْطِقِ هُوَ السَّكْنُ⁽²⁾ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ وَمَعْرِفَتُنَا لَطَبِيعَةَ الْأَرْضِ الَّتِي يَغْطِيهَا وَادِي الْهَوَادِ وَيَنْبَسِطُ فِيهَا، أَنَّهُ لَا يَسْتَشِدُّ الانْحِدَارَ، فَأَعْلَى الْوَادِي سَهْلٌ مَبْسُوطٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ سَيْلَانَ الْمَاءِ فِيهِ بَطِيءٌ، وَلَعَلَّ هَذَا مِنْ أَسْبَابِ تَسْمِيَةِ بَوَادِي الْهَوَادِ لَبَطْئِهِ، وَلَئِنْ مَيَّاهُ تَأْتِي مِنْ سَهْلِ الْبَطَانَةِ وَمَا يَنْتَشِرُ فِيهِ مِنْ وَدْيَانٍ تَصَبُّ فِي وَادِي الْهَوَادِ. وَهَنَكَ

العديد من الوديان الصغيرة التي تنحدر من السهول المنتشرة بجانبه. و مفردها باللهجة المحلية (إيد) أي (يد) تشبيهاً لها بيد الإنسان. واستنباط وتحليل آخر أسوقه قد يكون منطلقاً للتسمية، فكلمة (وادي) كلمة عربية دخلتها الإشارة المكتسبة من العامية السودانية إذ يقال بالعامية أحياناً (هَشَّافع) أي (هذا) الشافع أي الطفل الصغير، وهذا أصلها العربي، فسقط منها لفظ (ذا) وأدغمت اللّام في الشين، ولعلهم في بداية الأمر كانوا يقولون (هَوَاد) - وهذا عندي قريب جداً- أي هذا الوادي، وفي تطور صوتي لاحق أدخلوا عليه أداة التعريف (أل) فصاروا يقولون (الهُوَاد). ولا ننسى أن بعض اللغات السامية أداة التعريف فيها الهاء. ولعل هذا ممّا احتفظت به العامية السودانية. وأيضاً لو تناولنا التسمية وحللناها من جانب آخر ألا وهو مسألة التبديل المكاني في بعض المفردات، الذي يحدث بين الأصوات في نحو كلمة جذب وجذب، التي يرى بعض الناس أنّها من المترادف، وندخل من هذا المنطلق للقول؛ فنقول لعل تبديلاً مكانياً حدث في كلمة (هواد)، وأنها كانت (وهاد) فما دلالة وهاد في اللغة؟ وما العلاقة المحتملة بين اللفظين؟ يقول صاحب العين: «الوهد والوهدة - المطمئن من الأرض والجمع وهاد والوهدة أيضاً»⁽³⁾ قال الزبيدي: «الْوَهْدَةُ: الْأَرْضُ الْمُنْخَفِضَةُ، كَالْوَهْدِ، وَأَحْسَنُ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ غَيْرِهِ: الْوَهْدُ وَالْوَهْدَةُ: الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ كَأَنَّهُ حُفْرَةٌ، وَالْوَهْدُ يَكُونُ اسْمًا لِلْحُفْرَةِ (جَوْهْدٌ)، كَقُلُسٍ وَأَقْلُسٍ، (وَوَهَادٌ)، بِالْكَسْرِ، (وَوَهْدَانٌ)، بِالضَّمِّ، وَوَقَعَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ بَدَلُ وَهَادٍ وَوَهْدٍ بِضَمٍّ فَسَكُونٌ فَلْيَنْظُرْ. وَالْوَهْدَةُ: الْهُوَّةُ تَكُونُ (فِي الْأَرْضِ)، وَمَكَانٌ وَهْدٌ، وَأَرْضٌ وَهْدَةٌ كَذَلِكَ، وَالْوَهْدَةُ: النُّقْرَةُ الْمُنْتَقِرَةُ فِي الْأَرْضِ، أَشَدُّ دُخُولًا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْغَائِطِ، وَلَيْسَ لَهَا حَرْفٌ، وَعَرَضُهَا رُمَحَانٌ وَثَلَاثَةٌ، لَا تُنْبِتُ شَيْئًا»⁽⁴⁾ وقوله ليس له حرف ينطبق على وادي الهوَاد، فالناظر فيه لا يَتَبَيَّنُ له حرف، كما نرى في كثير من الوديان شديدة الانحدار، ونلاحظ أنّ الوديان سريعة الاندفاع تُسَمَّى بأسماء تدل على ذلك منها وادي الشين، ومن الأسماء التي تطلق على الهوَاد عند المصب حَوْرًا، يقول صاحب العين «خور: الْخَوْرُ: مَصَبُ الْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ فِي الْبَحْرِ إِذَا اتَّسَعَ وَعَرِضَ»⁽⁵⁾ وهم يسمون الهوَاد عند المصب خور العوليب، ولا تخفى العلاقة بين هواد ووهاد، إلا أنّ علاقتها بما ذكرته أولاً أقوى؛ ولكنه وجه أحببت أن أظهره لعله ينال قبولاً عند من يريد البحث في هذا الموضوع لاحقاً. ومن يرى أنها كلمة من لغة البجة له عذره، فلغة البجة احتكت باللغة العربية منذ أمد بعيد وربما تكون استعارت كلمة واد من العربية، راجع تاريخ البلويين في شرق السودان.

فوادي الهوَاد يَلْتَقِي عنده أهل البحر(الذين يسكنون بجانب نهر

النيل)، و معظم القاطنين سهل البطانة وأطرافها. وهو وادٍ عرف بخصوبة تربته. ويتجلى ذلك في إنتاجه المطري من الذرة. وكان أهل المنطقة يعتمدون على طرق الزراعة التقليدية قديماً. ومع ذلك كان إنتاجه غزيراً مما يضطر أهل الزراعة فيه إلى تخزين إنتاجهم في المطامير، والمطمورة هي عبارة حفرة في الأرض لتخزين الذرة. وفي السنوات الأخيرة بدأت تدخله الحراثة (التراكتر). كما يستفاد من القصب ومخلفات الحصاد في تغذية الحيوان في الوادي أو بنقله إلى مناطق بعيدة. وتنتشر على جانبيه قرى كثيرة أختار منها قرية أبو رتييلة والقهيْد و وِدَّ الحَمَاض وقرية التُمَيْد.

العنج في الأساطير السودانية:

وتناولت في هذا المحور كلمة العنج لدورانها في أحاديث الناس لتفسير بعض المفردات والظواهر الأثرية في هذه المنطقة، ولن أتوسع في الحديث عنها فقد تناولها أهل التاريخ والآثار في السودان بدراسات مستفيضة .

لفظ العنج من الألفاظ التي يتداولها الناس في قرى الهواد وخاصة في حديثهم عن الآبار العميقة المنتشرة حولهم، فينسبونها للعنج، لقد سمعت هذا اللفظ منذ الصغر في ديم القراري المنطقة التي أعيش فيها، وهي من قرى شمال شرق شندي، وهي منطقة متاخمة لأرض الهَوَاد. وأهلها يزرعون في وادي الهَوَاد وماجاوره من سهول وواديان في موسم الخريف، ويعبرون بمواشيهم وادي الهَوَاد ويسرحون في سهول البطانة بأغنامهم طلباً للمرعى. ولقد سمعت في روايتهم الشعبية الكثير عن قوم اسمهم العنج، والصور التي علق بذهني منذ الطفولة أنهم قوم عمالقة ضخام الأجساد، لا يستطيع أحدهم أن يحلب الشاة، ويحكون عنهم أنهم أصابهم قحط وجذب شديد، وكان من أمثالهم التي يروونها عنهم قولهم « لو وجدنا الكيل بالكيل مارحنا بالميل » أي كيل الذرة بالذهب وفي هذه المقولة ما يدل على امتلاكهم كميات كبيرة من الذهب. ويطلق أجدادنا على هذه المجاعة سنة (السَّحابة) وكنتُ في صغري أعتقد أنهم يريدون سنة كانت فيها سحابة، وبعد معرفتي لإبدال السودانيين الصاد سينا تأكدتُ لي أنهم يريدون بها الصحابة، ولعل هذا من تداخل المعلومات التاريخية في ذاكرتهم والربط بين أسطورة العنج وما حدث للصحابة في عام الرَّمادة والله أعلم. وينسب أهل هذه البلاد الحفائر الضخمة و الآبار العميقة الموجودة في نواحي الهَوَاد إلى العنج. ومن المقولات التي سمعتها أنه وجد نصٌ على قبر كتب فيه: «أنا محمود أبٌ صدرأً سبعة أشبار، خزنتي بين بيّري وحفيري» هذا النصٌ لعله من حكايات القصّاصين وأساطيرهم التي كانوا يسمرون بها في مجالسهم، يعبر عن عظم أحجام هؤلاء العنج.

وينقل الجوهري عن أبي عبيد ما يؤكد دلالة مادة عنج على العظم والضخامة: «العناجيج: جياذ الخيل، واحدها عنجوج. والعنجنج: العظيم. وأنشد أبو عمرو لهمايان السعدي: عنجنج شَفَّلَحْ بلندح»⁽⁶⁾ «ويتضح ذلك من معنى الشَفَّلَحْ، «عن أبي زيد الشَّفَّلَحْ من الرِّجَال الوَّاسِع المنخرين العَظِيم الشفتين»⁽⁷⁾ وقريب منها في الدلالة «البَلَنَدَحُ: بالحاء: السَّمينُ، ويقال: ناقةٌ بَلَنَدَحُ، والنونُ زائدة»⁽⁸⁾.

وبالتصفح في معاجم اللغة نجد صلة قوية بين مادة عَنج واللغة العربية ومما يوثق هذه الصلة تسمية الآبار القديمة بآبار العنج ويشق من مادة عنج (كلمة) مفردة عربية شديدة الارتباط بآلات السُّقيا من الآبار ومما جاء في لغتهم بهذا الشأن «العناج: جبلٌ يشد في أسفل الدلو ثم يشد في عرقوتها ليمسك الدلو كي لا تقع في البئر، والجميع: العُنَج، والأعنجة: قال الحطيئة:

قومٌ إذا عقدوا عقداً لجارهم شدوا العِناجَ وشدوا تحته الكُربا

وقال بعضهم: لا يكون العناج في أسفل الدلو، وإنما يكون في عُراها، يُعقد فوق الكُرب، فإذا انفسخ وَذِم الدلو أمسكها العناج.»⁽⁹⁾، «الوذم والوذمة الواحدة: من السُّيُور التي تُشَدُّ بها عُروة الدُّلو»⁽¹⁰⁾ وأيضاً في عاميتنا نسمي السوط المستعمل في الجلد في الحفلات بسوط العنج، إمّا نسبة للعنج الجنس الذي وقع الخلاف في أصله وإمّا نسبة لدلالة لغوية، فإن كان منسوباً للعنج فالأمر لا يحتاج إلى جدال، ولعل تسميته ترجع لأصل لغوي، ومما يرجح هذا الاحتمال اشتها رعاة الماشية من القبائل ذات الأصول العربية بحمله. فما الدلالة اللغوية في لفظ عنج التي تحملنا على نسبته للغة العربية؟ يقول ابن منظور: «عنج: عَنَجَ الشَّيْءُ يَعْنِجُهُ: جَذَبَهُ. وكلُّ شَيْءٍ تَجَذِبُهُ إِلَيْكَ، فَقَدْ عَنَجْتَهُ. وَعَنَجَ رَأْسَ الْبَعِيرِ يَعْنِجُهُ وَيَعْنِجُهُ عَنَجاً: جَذَبَهُ بِخَطَامِهِ حَتَّى رَفَعَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهِ. وَالْعَنَجُ: أَنْ يَجْذِبَ رَاكِبُ الْبَعِيرِ خَطَامَهُ قَبْلَ رَأْسِهِ حَتَّى رُبَّمَا لَزِمَ ذِفْرَاهُ بِقَادِمَةِ الرَّحْلِ. وَفِي الْحَدِيثِ: أَنْ رَجُلًا سَارَ مَعَهُ عَلَى جَمَلٍ فَجَعَلَ يَتَقَدَّمُ الْقَوْمَ، ثُمَّ يَعْنِجُهُ حَتَّى يَصِيرَ فِي أُخْرِيَاتِ الْقَوْمِ أَيْ يَجْذِبُ زِمَامَهُ لِيَقْفَ، مِنْ عَنَجِهِ يَعْنِجُهُ إِذَا عَطَفَهُ»⁽¹¹⁾ وهذا المعنى الذي يدل على العطف والجذب والثني، لاتخفى علاقته بما اشتهر به سوط العنج من المرونة والانعطاف والتثني، وللأسم نصيب من الصفة وخاصة في اللغة العربية. يقول ابن فارس: «عَنَجَ : الْعَيْنُ وَالنُّونُ وَالْجِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَذَبِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ يَمْتَدُّ، كَحَبْلِ وَمَا أَشْبَهَهُ»⁽¹²⁾.

قرية أبو رُتَيْلَة (أبو رُتَيْلَاء):

أما رُتَيْلَة فنطقها عند السكان المحليين بكسر الراء وإمالة الفتحة على التاء إلى الكسر فتتحول الياء التي بعدها إلى الألف الممال نحو الياء وهذه ظاهرة صوتية لا تخطئها الأذن في العامية السودانية في الياء الساكنة بعد الفتح، مثال ذلك الياء في بَيْت وصَيْد. ونلاحظ هذه الظاهرة في نطقهم لكلمة القهيد والتميد.

وهي قسمان أبو رُتَيْلَة شرق وهي جنوب وادي الهوَّاد، وهي القرية القديمة وهي شرق طريق (التحدي الشرقي)، وأبو رُتَيْلَة غرب وهي شمال طريق التحدي وهي الأحدث ويقول عوض الله: يوجد بقرية أبو رُتَيْلَة شرق موقع أثري يقال أنه (معبد الشمس) و ترجع تسميتها للملك قديم اسمه (رُتَيْل)، وكُنَّا قديماً نسمع الناس يسمونها (أبو رُتَيْلَاء) بالألف الممدودة، وكنت أعتقد أنها نسبة لوجود الرُتَيْلَاء فيها بكثرة. والرُتَيْلَاء نوع من النمل عضته مؤلة جداً، وهو ينتشر بالقرب من أماكن الماء ويسميه بعض أهل السودان (الشَّحْمُوطَة). وكلمة رُتَيْلَاء لفظ عربي «رُتَيْلَة: عنكبوت (فوك، ألكالا، محيط المحيط) تسمى اليوم في إفريقية رُتَيْلَة (دومب ص 67، هلو) وعند جاكسون (ص 85): عنكبوت سام. رُتَيْلَاء: نوع من العناكب (بوشر). رُتَيْلَاء: عنكبوت كبير، تارنتية وهي نوع عناكب سامة معروفة في مدينة تارانتا الإيطالية (بوشر)، «⁽¹³⁾ يقول الزبيدي: «والرُتَيْلَاء، بالضَّم، والمَدَّ، ويُقَصَّر: جنسٌ مِنَ الهَوَامِّ، وَهُوَ أَنْواعٌ كثيرةٌ، أشهرُها شِبْهُ الذُّبَابِ الَّذِي يَطِيرُ حَوْلَ السَّرَاجِ، وَمِنْهَا مَا هِيَ سَوْدَاءُ رَقْطَاءُ، وَمِنْهَا صَفْرَاءُ رَغْبَاءُ، وَلَسُعٌ جَمِيعُهَا مُورَّمٌ مُؤَلِّمٌ، وَرُبَّمَا قَتَلَ. والرُتَيْلَاءُ أَيْضاً، أَي بِالْمَدِّ: نَبَاتٌ زَهْرُهُ كَزَهْرِ السَّوْسَنِ»⁽¹⁴⁾

ومن خلال هذا الاستعراض لدلالة لفظ رُتَيْلَاء (رُتَيْلَة) في معاجم اللغة العربية والعامية المحلية، أَرَجَّحُ أَنَّ اللفظ ذو أصل عربي، واستبعد زعمهم أَنَّهُ اسم ملك من ملوك العنج أو غيرهم، إِلَّا إذا كانوا يريدون بكلمة العنج أَنهم قوم من العرب ومما جاء في اللغة العربية «والعَنْج، بِلُغَةٍ هَذِيل: الرجل. وَقِيلَ: هُوَ بِالْغَيْنِ مُعْجَمَةٌ. وَالْعَنْج: جَمَاعَةُ النَّاسِ»⁽¹⁵⁾ لَأَنَّ القبائل والسكان معظمهم من أصول تتكلم العربية ولا علم لها باللغات القديمة. وكل مايقوله الناس في هذه المعاني فيه مجارة لما تناقلوه من أخبار عن الحضارة المروية من غير تثبت.

القهيد:

هي بلدة في بادية شندي قمنا بزيارتها في في جولتنا لإعداد معجم المدن والقرى والفرقان بمحليتي شندي والمتمة. وهي من قرى وادي الهوَّاد، موقعها

شمال شرق شندي علي بعد (89 كلم). وتنقسم المنطقة إلى قريتين: القهيد الفقراء والقهيد شمال، و اشتهر أهلها بتعليم القرآن، ويُنسبوا إلى الصلاح، فكلمة الفقراء إشارة إلى ارتباطهم بالقرآن، والفقير تعني رجل الدين أي الفقير إلى الله، وأكثرهم ينتسب إلى الفادنية، وبها أيضاً فريق من الجوتاب وهم جموعية ومرغوماب وكمالاب وجعليين، منها مشاهير كثر، مشايخ أهل قرآن وعلاج بالقرآن والأعشاب، ومنهم شعراء أصحاب أدب رفيع لاتخطئهم العين لكثرتهم، منهم (ود سميري) من حملة القرآن الشعراء، والشيخ أحمد أب تلة. وأهلها يقولون في روايتهم عن أصل التسمية أنها ترجع لملكة نوبية اسمها (القهيد)⁽¹⁶⁾ وهذا القول لعله مجازة لما انتشر في الأيام الأخيرة من إرجاع بعض أسماء المناطق إلى مفردات نوبية أو أسماء بعض الملوك الذين عاشوا قديماً في هذه المناطق أو من عرفوا بالعنج . القهيد لغة:

القَهْدُ النَّقِيُّ اللُّونُ، والقَهْدُ الأَبْيَضُ، وخص بعضهم به البِيضُ من أولاد الظُّبَاءِ والبَقَرِ. والقَهْدُ من أولاد الضَّانِ يَضْرِبُ إلى البياض، ويقال لولد البقرة قَهْد أيضاً. والسَّاجِسِيَّةُ غنم تكون بالجزيرة. وأنشد:

نَقُودٌ حَيَاذُهُنَّ وَنَفْتَلِيهَا وَلَا نَعْدُو التِّيُوسَ وَلَا الْقَهَادَا
وقيل القهَادُ شَاءٌ حِجَازِيَّةٌ سَكُّ الأَذْنَابِ. وأنشد الأصمعي للحطيئة:

أَتَبْكِي أَنْ يُسَاقَ الْقَهْدُ فَيَكُمُّ ؟ فَمَنْ يَبْكِي لِأَهْلِ السَّاجِسِيِّ ؟
وقيل القَهْدُ الصغير من البقر اللطيف الجسم، ويقال القهد القصير الذنب، وقيل القَهْدُ غنم سُود باليمن وهي الخرف.

قوله « وهي الخرف » كذا في الأصل بالخاء المعجمة والراء، وفي القاموس الحذف، قال شارحه: بفتح الخاء وسكون الذال المعجمتين وآخره فاء هكذا في النسخ، وفي بعضها خرف بالراء بدل الذال، ومثله في اللسان وكل ذلك ليس بوجه والصواب الحذف بالمهملة ثم المعجمة محرّكة كما هو نص الصاغانبي. والقَهْدُ ضرب من الضَّانِ يعلوهم حمرة وتَصْغُرُ آذانهن، وقيل القهد من الضَّانِ الصغير الأُخْيِمِرُ الأَكْثِلُفُ الوجه من شَاءِ الحجاز. وقال ابن جبلة: القَهْدُ الذي لا قَرْنَ له، والقهد الجُودَرُ، عن أبي عبيدة قال الراعي:

وساق النُّعَاجِ الْخُنْسُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا بِرَعْنِ أَشَاءِ كُلِّ نِي جَدِدٍ قَهْدٍ

وقيل القَهْدُ ولد الضَّانِ إذا كان كذلك، وجمع كل ذلك قَهَاد الجوهري القَهْدُ مثل القَهَبِ، وهو الأَبْيَضُ الْكَدِرُ، وقال أبو عبيد أبيض، وقَهَبَ وقَهْدَ بمعنى واحد، وقال لبيد: مُعَقَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوُهُ غُبْسٌ كَوَاسِبٌ لَا يَمَنُّ طَعَامُهَا

وصَفَ بَقْرَةً وَحْشِيَّةً أَكَلَتْ السَّبَاعَ وَلَدَهَا فَجَعَلَهُ قَهْدًا لِبَيَاضِهِ، التَّهْذِيبَ قَهْدٌ فِي مَشْيِهِ إِذَا قَارَبَ خَطُّوهُ وَلَمْ يَنْبَسِطْ فِي مَشْيِهِ، وَهُوَ مِنْ مَشْيِ الْقِصَارِ، وَالْقَهْدُ النَّزْجُسُ إِذَا كَانَ جُنْبُذًا لَمْ يَنْفَتِّحْ، فَإِذَا تَفَتَّحَ فَهِيَ التَّفَاتِيحُ وَالتَّفَاتِيحُ وَالْعُيُونُ وَالْقَهَادُ اسْمُ مَوْضِعٍ (1)

قهيد اسم صحابي: قَهِيدٌ، ابْنُ مُطَرِّفِ الْغِفَارِيِّ. اختلف في صحبته وهو راوي الحديث: وَعَنْ قَهِيدِ بْنِ مُطَرِّفِ الْغِفَارِيِّ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَأَلَهُ سَائِلٌ: إِنْ عَدَا عَلَيَّ عَادٌ؟ فَأَمَرَهُ أَنْ يَنْهَاهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَإِنْ أَبَى؟ فَأَمَرَهُ بِقِتَالِهِ، قَالَ: فَكَيْفَ بِنَا؟ قَالَ: «إِنْ قَتَلْتَ فَأَنْتَ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنْ قَتَلْتَهُ فَهُوَ فِي النَّارِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ وَالْبَزَّازُ، وَرَجَالُهُمْ ثِقَاتٌ. (71) وذكره صاحب كتاب الدراية في قوله: «حَدِيثُ قَاتِلِ دُونَ مَالِكٍ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي تَارِيخِهِ مِنْ طَرِيقِ قَهِيدِ بْنِ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْخُذَ مَالِي قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَشُدْهُ اللَّهَ تَعَالَى وَالْإِسْلَامَ ثَلَاثًا قَالَ قَدْ فَعَلْتُ قَالَ قَاتِلْ دُونَ مَالِكِ الْحَدِيثَ وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهِ آخِرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بَلَفَظَ قَاتِلَهُ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ قَتَلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» (18) وهذا يذكرني بقول الجوهرى.

القهيْد:

اسم طائر في الحجاز ويتغنى الشعراء به في السعودية إلى اليوم. ويصاد في وادي مهور وهو وادي من أشهر وأخصب أودية بني مالك في السراة ويسمى وادي حرب، أيضاً يصاد طير القهيْد بحضرموت. ومن أسمائه الحجل و القهبي. قال الجوهرى: القَهْدُ مثل القَهْب، وهو الأبيض الكدير. القهيْدان اسم أسرة من الأسر النجدية. من خلال هذه المناقشة نخلص إلى أَنَّ لفظ القهيْد لفظ عربي وادعاء أهل القهيْد بالهواد أنه اسم ملكة نوبية ليس صحيحاً فالاسم عربي وأصوله عربية وإن غابت عن ذاكرتهم أسباب التسمية .

التميد:

التميد اسم لقريتين: هما تميد حاج الطاهر وهي من القرى التي تجاور وادي الهواد، وأهلها أيضاً فادنية. ومنهم مشاهير مثل علي أحمد حاج الطاهر المشهور ب(علي دينار). والقرية الثانية هي تميد ود نمر وهو (الحسن ود نمر) جده الملك نمر، (تميد النافعاب) اسمه قديماً (رَقَبَةُ ود نمر) كلمة رَقَبَة معناها جِر (رَقَبَة: جِر) (91) يقول صاحب معجم لغة الفقهاء: أرض الحوز: الأرض التي مات عنها أصحابها ولا وارث لهم فألت لبیت المال، والأرض التي فتحت عنوة ولم تقسم بين المحاربين بل ضمت لبیت المال *

أرض التيمار: الأرض التي يقطعها الإمام من أراضي الحوز لبعض الأشخاص ليأخذ هذا الشخص حق الأرض من الغلة وتبقى بقيتها للعاملين فيها، وتبقى رقبة الأرض ملكاً لبيت المال»⁽⁰²⁾ ولقد كان هؤلاء القوم ملوكاً، لا تُملك الأرض إلا بإذنهم، والدليل على ذلك السماح للكميلاب بامتلاك منطقة (ود الحماض).

يقع تميد ود نمر على جانبي وادي الجققي وهو من روافد وادي الهواد وأغلب سكانها جعليون (سعداب ونافاع) ومنها مشاهير نذكر منهم (ود سوميت)، (ود.نافع علي نافع) وغيرهم كثير. أما أهل التميد فقد أرجعوا سبب التسمية بالتميد إلى اللغة التي تعبر عن طبيعة الأرض وما بها من مياه جوفية، لأن المنطقة بها مياه قريبة من سطح الأرض يسمونها التمد وتصغيرها تُميد. وتنطق في العامية بكسر التاء وإمالة الياء بعد الفتح نحو الألف. وكلمة تَمَد هي كلمة عربية أصلها تَمَد أُبدلت ثاؤها تاءً وفق التغير الصوتي بين الفصحى والعامية السودانية التي تُبدل الثاء إبدالاً يكاد يكون مطرداً في نحو ثوب: توب، كثير: كتير، ما عدا الحالات التي تقع ممن يريد أن يتفاح، فينطقها سينا في مثل (السقافة) بدلاً عن (الثقافة). «تمد: التمد: الماء القليل يبقى في الأرض الجلد. ويقال: التمد الماء القليل يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف»⁽¹²⁾ وفي لسان العرب: «تمد: التمد والتمد: الماء القليل الذي لا ماد له، وقيل: هو القليل يبقى في الجلد، وقيل: هو الذي يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف. وفي بعض كلام الخطباء: ومادة من صحة التصور تمدة بكثرة، والجمع أتماد. والتماد: كالتمد؛ وفي حديث طهفة: وأفجر لهم التمد، وهو بالتحريك، الماء القليل أي أفجره لهم حتى يصير كثيراً؛ ومنه الحديث: حتى نزل بأقصى الحديبية على تمد؛ وقيل: التمد الحفر يكون فيها الماء القليل؛ ولذلك قال أبو عبيد: سَجَرَتِ التَّمَادُ إِذَا مُلِئَتْ مِنَ الْمَطَرِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُفَسِّرْهَا. قَالَ أَبُو مَالِكٍ: التَّمَدُ أَنْ يَعْمَدَ إِلَى مَوْضِعٍ يَلْزِمُ مَاءَ السَّمَاءِ يَجْعَلُهُ صَنْعاً، وَهُوَ الْمَكَانُ يَجْتَمِعُ فِيهِ الْمَاءُ، وَلَهُ مَسَائِلُ مِنَ الْمَاءِ، وَيَحْفَرُ فِي نَوَاحِيهِ رَكَايَا فَيَمْلُؤُهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، فَيَشْرَبُ النَّاسُ الْمَاءَ الظَّاهِرَ حَتَّى يَجِفَ إِذَا أَصَابَهُ بَوَارِخُ الْقَيْظِ وَتَبْقَى تِلْكَ الرِّكَايَا فَهِيَ التَّمَادُ؛ وأنشد:

لَعَمْرُكَ، إِنِّي وَطْلَابَ سَلَمَى ... لَكَامُتَبَرِّضِ التَّمَدِ الظَّنُونَا

والظنون: الذي لا يوثق بمائه. ابن السكيت: انتمدت تمداً أي اتخذت تمداً، وانتمد بالإدغام أي ورد التمد؛ ابن الأعرابي: التمد قلت يجتمع فيه ماء السماء فيشرب به الناس شهرين من الصيف»⁽²²⁾

ود الحمّاض:

هي قرية من قرى الهواد تسكنها قبيلة الكميلاب، تقع شمال شرق مدينة شندي على بعد (88 كلم) ويحدها من الشمال قرية القهيد الناجماب (الفقراء) ومن الشرق القهيد القرية، ومن الغرب وادي الهواد، ومن الجنوب (إيد كبشوا) وهي عبارة رافد من روافد وادي الهواد. سكانها ينسبون إلى جدّهم محمد علي كميل، ويقولون أنّ كميل هو جدّهم الحادي عشر، وهو أخو كمال جد الكمالاب، ويقولون أنهم من الأشراف، ويرجعون سبب استيطانهم في هذه المنطقة لاتفاق بينهم وبين الملك نمر⁽²³⁾، وهي تُعدّ مركزاً رعي ممتاز على تخوم البطانة تؤمّه في فصل الخريف كثير من القبائل الرعوية (جعليين، بطاحين، شكرية، زبيدية). وبتحليل الاسم وتفكيكه يرجع إلى لفظين، هما لفظ (ود) ولفظ (الحمّاض)، فكلمة (ود) لفظ من ألفاظ العامية السودانية بمعنى (ولد)، وإذا قارنّا هذه الكلمة بكلمة (ولد) نجد العامية السودانية حذف منها اللّام، وهي شبيهة بكلمة (مك) إذ أصلها ملك، التي حذف لامها، ومما يشبه هذا السلوك في العامية السودانية كلمة (بت)، التي أصلها (بنت) ولعل هذا الاختلاف بسبب التطور الصوتي وفقاً لقانون السهولة واليسر، إذا اعتبرنا العامية السودانية لهجة من لهجات اللغة العربية، أو وافقنا من يقول أنّ العاميات العربية هي لغات سامية عاشت جنباً إلى جنب مع العربية الفصحى، ولها أصولها ومسلكها الخاص في التطور، وقد نجد تشابهاً بين العبرية والعامية السودانية في كلمة (بت) فهي تقابل كلمة (بنت) في العربية الفصحى. إذ تنطق العبرية لفظ بنت كالعامية السودانية (بت). أمّا لفظ (الحمّاض) فهو لفظ عربي مشتق من مادة (حمض).

قال ابن منظور: «حمض: الحمض من النبات: كل نبت مالح أو حامض يقوم على سوق ولا أصل له، وقال اللّحياني: كل ملح أو حامض من الشجر كانت ورقته حيّة إذا عمزتها انفطأت بماء وكان دفر المسّم ينقي الثوب إذا غسل به أو اليد فهو حمض، نحو النجيل والخدراف والإخريط والرّمث والقضة والقلام والهزم والحرض والدغل والطرفاء وما أشبهها. وفي حديث جرير: من سلم وأراك وحموض؛ هي جمع الحمض وهو كل نبت في طعمه حموضة. قال الأزهري: والمْلُوحَة تسمى الحموضة. الأزهري عن اللّيث: الحمض كل نبات لا يهيج في الربيع ويبقى على القيظ وفيه ملوحة، إذا أكلته الإبل شربت عليه، وإذا لم تجده رقت وضعت. وفي الحديث في صفة مَكَّة، شرفها الله تعالى، وأبقل حمضها أي نبت وظهر من الأرض. ومن الأعراب من يسمي كل نبت فيه ملوحة حمضاً. واللحم حمض الرجال. والخلة من النبات:

مَا كَانَ حُلُوءًا، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: الْخُلَّةُ خُبْزُ الْإِبِلِ وَالْحَمْضُ»⁽²⁴⁾ أما سبب التسمية ب(ود الحمّاض) فهو أمر مختلف فيه. فبعضهم يرجعه إلى نبات (الْحُمَيْض) وهو نبات تُسْتَخْدَم ثمرته قديماً في دباغة الجلود. ويرى آخرون أنّها سميت باسم (حفير ود الحمّاض)، ويدّعي بعضهم أنّ هذا الحفير من الحفائر التي حفرها العنجد قديماً، وأخبرني رجل من الكنوز: أنّ الحمّاض هو رجل من قبيلة المسياب عرفت المنطقة باسمه. واسمه الحماد ولكن الاسم حُرّف فصار الحمّاض ولكنني استبعد هذه الرواية لأنه قال أنّ هذا الرجل جده لأُمّه والتسمية أقدم من ذلك.

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات والصلاة والسلام على النبي الأمي وآله وصحبه، لقد استعرضت في هذه الدراسة عدداً من قرى وادي الهوَاد الموقع ودلالة الاسم وأصله وآراء السكان المحليين في سبب التسمية. والقرى هي أبو رتيلة (أبو رتيلاء) والقهيّد والتميد وقرية ود الحمّاض، كما عرّجت على روايات عن العنجد وصلتهم ببعض الآبار الموجودة بها و نسبتها إليهم. ومن النتائج المهمة التي توصلت لها الدراسة جهل معظم السكان المحليين بدلالة هذه الأسماء وأصلها، واختلقوا قصصاً أقرب إلى الخيال لتعليل هذه التسميات ومعظمها يعتمد على الروايات الشعبية التي لا تستند على دليل.

المصادر والمراجع:

- (1) مقابلة مع عوض الله إبراهيم عوض الله (موظف) من أبناء قرية (أبورتيلاء) العمر 83 سنة، الساعة الثانية عشر صباحاً يوم 71-3-8102م.
- (2) أبو عُبَيْد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: 422هـ)، غريب الحديث، المحقق: د. محمد عبد المعيد خان، الناشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن الطبعة: الأولى، 4831 هـ - 4691 م، م.ج. 4، ص 682
- (3) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: 854هـ)، المخصص، المحقق: خليل إبراهيم جفال الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى، 7141 هـ - 6991 م، م.ج. 2، ص 87.
- (4) الزبيدي: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: 5021هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية. م.ج. 9، ص 133.
- (5) الخليل: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 071هـ) كتاب العين المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال م.ج. 4/ 403
- (6) الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة 7041 هـ 7891 م، م.ج. 1، ص 133
- (7) ابن منظور، لسان العرب، م.ج. 2، ص 984
- (8) نشوان بن سعيد الحميري اليمني (المتوفى: 375هـ) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم المحقق: د حسين بن عبد الله العمري - مطهر علي الإيراني - د يوسف محمد عبد الله، الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية) الطبعة: الأولى، 0241 هـ - 9991 م عدد الأجزاء: 11 مجلد (في ترقيم مسلسل واحد، م.ج. 1، ص 326
- (9) نشوان بن سعيد الحميري اليمني (المتوفى: 375هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإيراني - د يوسف محمد عبد الله، الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية) الطبعة: الأولى، 0241 هـ - 9991 م، عدد الأجزاء: 11 مجلد (في ترقيم مسلسل واحد)، ومجلد للفهارس م.ج. 7، ص 4874.

- (01) الخليل، العين، مم.ج.8، ص 302
- (11) ابن منظور، لسان العرب، م.ج 2، ص.923
- (21) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 593هـ)، معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر، عام النشر: 9931هـ - 9791م.عدد الأجزاء:6، م.ج.4، ص151
- (31) رينهارت بيتر آن دُوزي (المتوفى: 0031هـ)، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: ج 1 - 8: محمد سليم النعيمي ج 9، 01: جمال الخياط الناشر: وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة: الأولى، من 9791 - 0002 م.ج.5، ص88
- (41) محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: 5021هـ) تاج العروس من جواهر القاموس، المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية م.ج.92، ص 23
- (51) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسى [ت: 854هـ]، مالحكم والمحيط الأعظم المحقق: عبد الحميد هندراوي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، 1241 هـ - 0002 م، م.ج.1، ص233.
- (61) مقابلة مع الأستاذ: إبراهيم محمد الخير محمد أحمد(فادني) المهنة معلم العمر 65سنة من منطقة القهيد في يوم 3/3/8102، الساعة الخامسة مساء.
- (71) الهيثمي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: 708هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المحقق: حسام الدين القدسي الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة عام النشر: 4141 هـ، 4991 م، م.ج.6، ص542
- (81) العسقلاني: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 258هـ) الدراية في تخريج أحاديث الهداية المحقق : السيد عبد الله هاشم اليماني المدني الناشر: دار المعرفة - بيروت، م.ج.2، ص862
- (91) رينهارت بيتر آن دُوزي (المتوفى: 0031هـ)، تكملة المعجم العربية، م.ج.5، ص481.
- (02) محمد رواس قلعجي - حامد صادق قنبي، معجم لغة الفقهاء، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة: الثانية، 8041 هـ - 8891م، ص 55
- (12) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: 071هـ) كتاب العين المحقق: د مهدي الخزومي، د إبراهيم السامرائي الناشر: دار ومكتبة الهلال، م.ج.8، ص02 .

- (22) ابن منظور، لسان العرب، الناشر: دار صادر - بيروت الطبعة: الثالثة - 4141هـ م.ج.3، ص501 -
- (32) مقابلة مع الأستاذ / محمد طه محمد بلة (كميلابي) المهنة: مدرس، العمر 93 سنة، التاريخ 3/2/8102 م بقرية ود الحمّاض. الساعة الحادية عشر صباحاً.
- (42) ابن منظور لسان العرب دار صادر - بيروت الطبعة: الثالثة - 4141هـ م.ج.7، ص831.

الدولة المهدية في السودان (26 يناير - 22 يونيو 1885م)

أ. مشارك - جامعة سنار

د. عادل علي وداعة عثمان

المستخلص:

هدفت هذه الدراسة إلى إبراز التاريخ السياسي للدولة المهدية في الفترة من 26 يناير 1885 إلى 22 يونيو 1885 وهي الفترة التي تولى فيها محمد أحمد المهدي قيادة الدولة بعد تحرير الخرطوم، والفترة رغم قصرها إلا أنها تعطي مؤشرات للطريقة والأسلوب اللذين أدار بهما المهدي الدولة في تلك المرحلة التاريخية المهمة، ففي مجال السياسة الداخلية بذل المهدي مجهوداً كبيراً في تأسيس مؤسسات لحكم البلاد، مثل القيادة العليا للدولة، ومجلس الأمناء، والتخطيط الاقتصادي، وتنظيم حركة المجتمع والشارع السوداني وصولاً إلى الدولة الرسالية المتكاملة، فضلاً عن محاولة ربط البلاد بالمجتمع الإقليمي والدولي وفق فلسفة وأيديولوجيا الثورة المهدية، واتبعت الدراسة منهج البحث التاريخي والوصفي لإجلاء الحقائق وتحليلها، ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن المهدي استطاع أن يؤسس نظاماً ومؤسسات مركزية لإدارة الدولة، وتوصي الدراسة بأهمية البحث والتنقيب في تاريخ الدولة المهدية، واتبعت الدراسة منهج البحث التاريخي والوصفي لإجلاء الحقائق وتحليلها ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن المهدي استطاع أن يؤسس نظاماً ومؤسسات مركزية لإدارة الدولة وتوصي الدراسة بأهمية البحث والتنقيب في تاريخ الدولة المهدية.

Abstract

This study aimed at emerging the political history of the Mahadia country From the 26 of January 1885 to 22 June 1885 when Mohammed Ahmed Al Mahdi took the leadership of The country of the deliberation of Khartoum. Though it was short this period gives indications of the way and method Al Mahdi used to rule the country in that important political period .in the internal politic Al Mahdi exerted a great effort in founding institution for ruling the country such as : the country higher administration

and the municipal council and economic planning and regulating the movement of the Sudanese Society to arrive at model perfect country .in addition to that efforts were also made to link the country with the international Community according to the Mahdi revolution philosophy and ideology .The study followed descriptive and historical methodology to view and analyze the facts .The prominent result of this study is that Al –Mahdi establs lished system of centralized Institution for the management the stats . the study recommends the importance of the research and to carry out more studies on the history of Mahdist state .

مقدمة :

ولد محمد أحمد بن عبدالله (المهدي) في عام 1843م في جزيرة لبب في منطقة دنقلا بشمال السودان، في أسرة تعمل في صناعة المراكب وفي عام 1850م هجرت الاسرة موطنها واتجهت جنوباً واستقرت في كرري شمال ام درمان وواصلت الاسرة عملها في صناعة المراكب . تلقى محمد أحمد حظاً من التعليم في خلاوي الخرطوم ثم التحق بمعهد كترانج وتتلّمذ على يد الشيخ الأمين الصويلح وارتحل منه الى خلاوي الغبش في بربر حيث انضم الى تلاميذ الشيخ محمد الخير عبدالله خوجلي . لقد تميزت هذه الفترة من حياة محمد أحمد والتي امتدت حتى عام 1865م ، بنشاط علمي دافق ،ومن ثم انضم محمد أحمد الى الطريقة السمانية على يد قطبها الاستاذ محمد شريف نور الدائم حتى نال الاجازة فيها واتخذ له مكاناً قصياً على النيل الأبيض واكتسب شهرة عظيمة بسبب زهده وتقشفه كرجل صالح وفي يونيو 1881م اعلن مهديته .

بعد هجرة واستقرار المهدي* واتباعه في جبل قدير في أكتوبر 1881م، بدأ في وضع التدابير الأولية لشكل الدولة والنظام المراد تطبيقه، وقد وفرت تلك الهجرة استراتيجية تنظيمية للثورة وهى في طور مراحلها الأولى، كما أنّ الانتصار الذي تحقّق على حملة راشد بك أيمن ويوسف باشا الشلاي، شكّلا بداية لتطبيق أسس الدولة الجديدة، وجاء تحرير الأبيض في يناير 1883م والذي ترتب عليه أن دان كل أقليم كردفان للمهدي، وأضحت الأبيض عاصمة للدولة، فشرع المهدي في ترتيب وتنظيم دواوين الحكومة الجديدة⁽¹⁾ .

إنّ فكرة المهديّة وفلسفتها قائمة على ثلاثة أصول، فكرة المهدي المنتظر وهو الشخص الذي يظهر في آخر الزمان ليملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً،

ويقيم دولة العدل والمساواة وسيادة القانون، والأمام هو الشخص المناط به قيادة الأنصار المؤمنين به بحكم الواقع قيادة كاملة وشاملة دينية ودينية، ثم هناك الخلافة وهي أمر مرتب وموضوع على نمط مراتب الصوفية، فالمهدي وضع أتباعه في مراتب متفاوتة ⁽²⁾، فمنذ الوهلة الأولى تشبه المهدي بالرسول ﷺ في جميع أعماله وأفعاله وجعل غايته إعادة الإسلام ودولته إلى ما كانت عليه في صدر الإسلام فنظم حكومته على ماتقتضيه هذه الغاية في كل النظم السياسية والإقتصادية والعسكرية والتشريعية ⁽³⁾.

وقد لخص المؤرخ نعوم شقير الأسباب التي أدت إلى قيام الثورة المهدية في العنف الذي لازم العهد التركي المصري منذ بدايته وخاصة حملات الدفتر دار الانتقامية لمقتل اسماعيل بن محمد علي باشا في أكتوبر 1822م والتي زرعت الاحقاد في نفوس السودانيين تجاه الاتراك، والضرائب الباهظة التي فرضت على الاهالي والطريقة الوحشية في جمعها، وسياسة التمييز والمحاباة التي اتبعها الاتراك والمعروفة بسياسة فرق تسد، ومنع تجارة الرقيق وبمنعها انضم تجارها إلى المعارضة فشكّلوا رصيذاً نوعياً جديداً.

ويضاف إلى تلك الأسباب العامل الديني الذي كان محركاً أساسياً للثورة. وساعدت عوامل مهمة على نجاح الثورة منها استخفاف الحكومة في الخرطوم بشأن محمد أحمد وضعف الحاميات العسكرية وبعدها عن بعضها البعض، وقيام الثورة العربية في مصر في عام 1881م متزامنة مع انطلاق الثورة المهدية في السودان.

القيادة المركزية والمحلية للدولة المهدية وسياستها الداخلية : جهاز الدولة المركزي :-

كانت سياسة المهدي وفلسفته ترمي إلى إقامة دولة إسلامية وفق منظور ديني يستوعب متطلبات العصر، فأصبح الجهاز المركزي للدولة المهدية، يتكون من المهدي نفسه خليفة رسول الله ﷺ وله أربعة خلفاء في مقام الخلفاء الراشدين، عبد الله بن السيد محمد في مقام سيدنا أبو بكر الصديق، وعلي ود حلو في مقام سيدنا عمر بن الخطاب ومحمد المهدي السنوسي في مقام سيدنا عثمان بن عفان ولكنه لم يتجاوب مع الدعوة المهدية، ومحمد شريف حامد في مقام سيدنا علي بن أبي طالب ⁽⁴⁾. ومن ثم تأتي المناصب المركزية الأخرى وعلى رأسها الجهاز القضائي والقانوني فهو من أهم المؤسسات المركزية في الدولة المهدية ويقف على رأسه قاضي الإسلام، ويحتل أمين بيت المال منصباً ووضعاً مهماً في إدارة الدولة المهدية فهو الذي يسيطر على مجمل النشاط الاقتصادي والمالي والإشراف على الحركة التجارية، كما كان للقيادة العسكرية

أمثال عبد الرحمن النجومي، وحمدان أبو عنجة، وعثمان دقنة، والزاكي طمل وضعهم السياسي المتميز في الجهاز المركزي للدولة المهدية، فمزال الزخم الثوري يملأ الأفاق والدولة في مرحلة تثبيت دعائمها وأركانها⁽⁵⁾.

وهناك مجلس الأمناء والذي جاء تكوينه بعد استكمال عملية التحرير وتصفية الحكم التركي المصري والقضاء عليه نهائياً، فقد تشعبت الأعباء الإدارية عما كانت عليه أيام الثورة ممّا دفع المهدي لاختيار سبعة أمناء عهد إليهم النظر في جميع المسائل الإدارية والتنفيذية، وأمرهم ألا يقطعوا أمر إلا بعد عرضه على الخليفة عبد الله التعايشي وأخذ رأيه فيه، والأمناء السبعة هم: فوزي محمود كاتبه وأمين ختمه وهو المسؤول عن جميع المراسلات والمكاتبات الصادرة من مجلس الأمناء، ومحمد سليمان شقيق أحمد سليمان أمين بيت المال والشفيع رحمة الشايقي وعلي ود الفقيه خوجلي وهو من العلماء، وإسماعيل شجر الخيري الدنقلوي، وأحمد ودالنور، بالإضافة إلى الخليفة عبد الله التعايشي، فقد كان هذا الجهاز بمثابة الوزارة التنفيذية للدولة المهدية⁽⁶⁾.

لقد وضع المهدي وهو في طور إعداد اللبنة الأولى لمشروع دولته الرسالية أتباعه وانصاره في مراتب متفاوتة، جعل خلفاءه الكبار في مراتب الخلفاء الراشدين، وزوجاته في مراتب زوجات الرسول ﷺ، وشاعره ود التويم في مرتبة حسان بن ثابت شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه عموماً في مرتبة الصحابة، والعامي منهم في مرتبة الصوفي عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية، أما هو نفسه ففي مرتبة خليفة الرسول ﷺ⁽⁷⁾. وعلى هذا الأساس تعد الدولة المهدية دولة دينية منهجاً وفكراً وسلوكاً تترسم خطى السلف الصالح وتعمل جاهدة لإعادة مجد الدولة الإسلامية.

وبعد إحكام الحصار على الخرطوم وتحريرها في 26 يناير 1885م، تحرك المهدي من ديم أبي سعد متجهاً إلى الخرطوم والتي صلى فيها الجمعة 30 يناير 1885م، وظل يدير دولته فيها حتى انتقل إلى أم درمان في أواخر شهر فبراير 1885م، وبنى فيها مسجداً صغيراً بالزنك فور وصوله لها، ومن ثمّ شرع في تأسيس المنازل من الطين والحجر والقش، فتوافد إليها الأنصار والأتباع من كل فج عميق لمبايعته ومناصرته حتى بلغ عدد سكان أم درمان مليون نسمة⁽⁸⁾. تلك كانت بداية تأسيس مدينة أم درمان عاصمة الدولة المهدية والتي أطلق عليها المهدي اسم البقعة، فارتحلت مؤسسات الدولة المركزية من الخرطوم إلى أم درمان، ومن القرارات السياسية التي اتخذها المهدي عشية قدومه إلى أم درمان تصفية بقايا الحكم التركي المصري أفراداً

ومؤسسات، وتثبيت دعائم الدولة الجديدة، وتأمين جهازها السياسي والإداري، فأرسل قائده المتميز محمد عبد الكريم لاحتلال سنار، وحمدان أبوعنجة إلى جبال النوبة، وأرسل مجموعة من الأمناء والثقات إلى كسلا⁽⁹⁾. إنَّ الغرض من إرسال هذه البعثات العسكرية تأمين أطراف الدولة، واستكمال السيادة الوطنية لكافة المناطق السودانية ومن القرارات السياسية الكبرى التي اتخذها المهدي إصدار عملة قومية فكان هو أول حاكم سوداني يصدر عملة وطنية موحدة على نطاق الدولة، كان ذلك في فبراير 1885م⁽¹⁰⁾. ويعد تأسيس مدينة أمدرمان واتخاذها عاصمة للدولة الوليدة، وإصدار عملة وطنية للبلاد، رمزين مهمَّين لانتصار الثورة المهدية، وإعلاناً لمولد الدولة المهدية المستقلة، فقد تحولت أمدرمان من قرية صغيرة قائمة على سهل رملي فسيح إلى مدينة امتدت إلى ستة أميال، وتعيش في وسطها قبائل متعددة، والقوافل التجارية لا تنفك تصل إليها من الطريقين التجاريين كردفان في الغرب، وبربر في الشمال، وبهذه التركيبة المختلطة كانت أم درمان مؤهلة وبيئة مثالية لمولد الحركة الوطنية السودانية بشكلها الحديث. وقضية الانصهار الوطني والقومي كانت من الأمور المهمة التي أولاهها المهدي اهتمامه في بداية تأسيس دولته، فجاء تكوين القيادة العليا للدولة المهدية مشتملاً على ذلك، فاختر المهدي لخلفائه اعتمد على معيار الكفاءة المختبرة فعلياً ضمن معايير أخرى، بحيث جاء اختيار خليفته الأول من منطق بعيدة جغرافياً وعائلياً وقبلياً عن الوسط النيلي الشمالي الذي ينتمي إليه المهدي، وكذا الحال في اختيار القادة والخلفاء الآخرين، فالملحوظ أن اختيار الخلفاء الثلاثة شمل جهات السودان الغربية والوسطى والشمالية، مع إعطاء وضع متميز لأمر الشرق عثمان دقنه سياسياً وعسكرياً ممَّا يعكس قدرة المهدي وتوجهه الوطني والقومي في إرساء قواعد الدولة السودانية المتناسكة⁽¹¹⁾. ولا يغيب عن بالنا اهتمام المهدي ببناء قاعدة سياسية تنظيمية يستند إليها متمثلة في كيان الأنصار السند الشعبي للدولة المهدية، نتيجة للحراك الاجتماعي في وسطهم أصبحت لهم تصنيفات وأقسام فهناك أبكار المهدية، وأنصار أبا، وأنصار قدير وهكذا فأدى كل هذا إلى زوبان التركيبة القبلية والجهوية وساهم في بلورة القومية السودانية.

جهاز الدولة الإقليمي والمحلي :-

وفيما يلي النظام الإداري والمحلي والإقليمي، فقد قسم المهدي البلاد منذ بداية دعوته إلى أقسام متعددة جعل على كل منها أميراً يحمل لواء الثورة فيها وعرفت هذه الأقسام بالإمارات، وفي سنة 1884م أمر المهدي بتغيير أسم الأمير واستبدله باسم العامل وبذلك عرفت كل الوحدات الإدارية

باسم العمال، وتطابقت تقسيمات تلك العمال لحد كبير مع تقسيمات النظام التركي المصري الإدارية مع إدخال بعض التغييرات التي اقتضتها ظروف الدولة المهدي لتتلاءم مع الأوضاع السياسية والعسكرية الجديدة⁽¹²⁾. فالعامل في عمالته ينوب عن المهدي ويتمتع بكل سلطاته ولا يرجع إلى السلطة المركزية طالما أنه يقضي بالأحوال الشرعية وينفذ ما يصدر إليه من السلطة المركزية. وأولى المهدي اهتمامه بالقضايا الاجتماعية والتربوية بغية خلق مجتمع مثالي، فعمل جاهدا لتسيير الزواج وذلك بتخفيض المهور وبساطة ولائم الأعراس، وأبطل بدعة النواح والبكاء على الميت والمبالغة في الحزن، كما اهتم بقانون النظام العام، وذلك بمنع النساء عن لبس الحلي الذهبية والفضية والتبرج، وسمح لهن بالزينة داخل بيوتهن، وحرم الرقص والغناء وضرب الدفوف، وتعاطي سائر المكيفات مثل التبأك والسجائر وغيرها وإجمالا فقد طبق المهدي حدود الشريعة الإسلامية في كافة المحرمات مثل الخمر والزنا والسرقة⁽¹³⁾. ويمكننا القول أن المهدي قد وضع اللبنة الأولى لقانون النظام العام في السودان.

الصراع الفكري والسياسي في الدولة المهدي :-

ومن المسائل الفكرية التي جابهت الدولة المهدي صراعها مع العلماء، ذلك الصراع الفكري الذي أخذ حيزاً كبيراً من تاريخ الثورة والدولة المهدي، فحاول المهدي إيجاد توليفة بين الفكر السلفي والصوفي قوامها العودة بالإسلام إلى مصادره الأولية القرآن الكريم والسنة النبوية، وتصفيته من مظاهر البدع والإضافات، فقرر إلغاء الانقسامات الصوفية وإبطال العمل بالمذاهب الدينية، ليربط التشريع الإسلامي بالظروف الزمانية والمكانية المتغيرة، فالمهدي يعتقد بأن التجديد حركة تخضع لمصلحة الناس واصفاً الأئمة المجتهدين السابقين بأنهم رجال ونحن رجال ولو أدركونا لأتبعونا لكل وقت ومقام حال ولكل زمان وأوان رجال⁽¹⁴⁾.

وتأتي معارضة العلماء لدعوة المهدي لسبب ديني قائلين إنه لم تتوفر فيه الشروط المعروفة عن المهدي كما وردت في الكتب الدينية، فهو مثلاً لم يولد بالمدينة، ولم يظهر بجبل ماسا، لذلك عدوه كذاباً، وخارج عن النظام الشرعي المتفق عليه وعلى سلطة خليفة المسلمين، فاصدر العلماء رسائل كذبت اقوال المهدي، ودعت الناس إلى الانفضاض من حوله، وإلا أصبحوا كفر منافقين، ومن أبرز العلماء الذين عارضوا المهدي أحمد الأزهري شيخ عموم غرب السودان، والمفتي شاكراً الغزي والأمين الضريير وغيرهم⁽¹⁵⁾، ورداً على هؤلاء العلماء أصدر المهدي عدداً من المنشورات التي تتحدث عن أحقيته

بالمهدية، قال فيها إنها رسالة كلفه الله والرسول بها لبعث الدين من جديد وإحياء سنة المصطفى ﷺ وإزالة النظام التركي ودولته التي حادت عن الطريق القويم واستبدلت القوانين الشرعية بقوانين وضعية، وعليه فإن من أنكر مهاديته يعتبر كافراً خارجاً عن الملة الإسلامية .

وتعد قضية الأشراف من أخطر القضايا والأزمات في تاريخ الدولة المهدية كونها قضية إجتماعية وسياسية معقدة، والأشراف هم أقرباء المهدي وعشيرته، فبعد استقرار المهدي في الجزيرة أبا لحقت به أسرته وأهله الذين كانوا يتنقلون من مكان لآخر بحثاً عن الأخشاب الجيدة لاستخدامها في صناعة المراكب مهنة الأسرة التقليدية، ويمكننا أن نؤرخ أن استقرار هذه الجماعة بشكل رسمي في الجزيرة أبا كان في عام 1867م، ومهما يكن من أمر فإن الأشراف شكلوا قوة اجتماعية متميزة في حركة المهدية، ونظرا لعلاقتهم مع المهدي ووضعهم الاجتماعي والطبقي، فإنهم كانوا يتطلعون إلى الامتيازات والهيمنة على المراكز السياسية والقيادية في جهاز الدولة الإداري، مستندين على صلة قرابة الرحم التي تربطهم بالمهدي، فأدى هذا إلى طغيانهم وفسادهم واستحقارهم للمكونات الاجتماعية الأخرى داخل الدولة المهدية⁽¹⁶⁾، وقد حاول المهدي ردهم وتقويم سلوكهم هذا، ولما يئس من ذلك استاء منهم، وفي آخر جمعة من شهر شعبان 1302هـ الموافق 12 يونيو 1885م وبعد أن فرغ من الخطبة أشار إلى جموع المصلين في المسجد بالجلوس وقال لهم : أيها الناس إنني مللت من النصح والذاكرة لأقاربي الأشراف الذين تمادوا في الطيش والغباء وظنوا أن المهدي لهم وحدهم ثم مسك توبه ونفضه ثلاث مرات وقال أنا بريء منهم وكونوا أنتم شهوداً على بين يدي الله تعالى⁽¹⁷⁾ . وكان هذا الموقف وماترتب عليه من إجراء وقرار تجاوز فيه المهدي روابط الدم والقرابة بالأشراف لبناء دولة ميزانها العدل والتساوي بين جميع عناصرها ومكوناتها .

النظم المالية والعسكرية والقضائية للدولة في عهد المهدي:- النظام المالي :-

اهتم المهدي منذ البداية بتنظيم الإدارة المالية على أن تطابق الشرع الإسلامي في طريقة جمعها وتقسيمها، فكان الدخل يجمع بين مصدرين، الزكاة كركن من أركان الإسلام والغنائم التي يتحصل عليها من المدن المفتوحة فتصادر أموال الحكومة السابقة وما كان يمتلكه الإداريون المصريون والأتراك من أموال في بيوتهم باعتبار أنهم تحصلوا عليها عن طريق الرشاوي والظلم، وبعد جمع هذه الأموال بدأ النظر في طريقة حفظها وتقسيمها، إن بداية تأسيس بيت المال تعود الى أيام المهدي في جبل قدير، وبعد تحرير الأبيض في عام 1883م عين المهدي أميناً لبيت المال وهو أحمد سليمان ومنحه سلطات واسعة⁽¹⁸⁾ .

سعت الدولة المهدية سعياً حثيثاً لتنظيم حركة الأسواق إدارياً وتجارياً راميةً من وراء ذلك الخروج بالمجتمع السوداني من البيئة الرعوية القبلية إلى مشارف مجتمع الإنتاج السلعي البسيط وكانت نشأة الأسواق تدور حول اقتصاد السوق البسيط المعتمد على قاعدة الإنتاج الزراعي المحدود وفي هذا الإطار تطورت الأسواق الموسمية إلى أسواق مستديمة وعلى الرغم من أن فترة المهدي لم تشهد إجراءات كبرى لتنظيم السوق وإنما كانت هناك مؤشرات عامة منها أيلولة كل المؤسسات والمصالح والمحال التجارية لبيت المال، وكان الهدف من ذلك إخضاع النشاط التجاري والاقتصادي لسلطة الدولة ويقودنا الحديث عن النظام المالي والاقتصادي للدولة المهدية عن نظام ملكية الأرض في عهد المهدي فقد كانت فترة تدخل واسع من جانب الدولة في نظام ملكية الأرض واعتمد المهدي في تدخله على سلطته الدينية ونظام ملكية الأرض المستمد منها، فالأرض ملك لله، والمهدي خليفة الله في الأرض فهو المتصرف فيها، وقد أدت هذه السياسة إلى فتح أراضي السودان الأوسط الزراعية أمام القبائل الرعوية لتتصرف فيها وتستفيد من خبراتها⁽¹⁹⁾ وبهذا يكون المهدي قد عمل بالمبدأ الاقتصادي الأرض لمن يفلحها ويستصلحها .

نظام الجيش :-

للجيش مكانة عظيمة في جهاز الدولة المهدية إبان سنوات الثورة 1881م — 1885م وبعد قيام الدولة في يناير 1885م، فشارك الجيش بفصائله المختلفة في تثبيت أركان الدولة وتأمينها، وفي الصراع حول السلطة والحكم، وفي الحروب الداخلية والخارجية، ويعتبر المهدي أول حاكم سوداني يكون جيشاً متفرغاً على النسق الحديث في تاريخ السودان، فأصدر المهدي في قدير أول منشور خاص بتنظيم الجيش، فقسم الجيش إلى ثلاثة أقسام وجعل كل قسم تحت قيادة أحد خلفائه، كما جعل لكل خليفة راية، ويقودها الخليفة عبد الله وهي لقبائل غرب السودان الراية الزرقاء الراية الخضراء ويقودها علي ود حلو وهي لقبائل وسط السودان، الراية الحمراء يقودها الخليفة محمد شريف وهي لقبائل شمال السودان⁽²⁰⁾، وقسمت الرايات إلى أرباع، والأرباع إلى رأس مئآت، وكانت تلك التقسيمات تقوم على أساس قبلي، رغم أن الجيش كان لدولة مركزية تسعى لتوحيد البلاد، إلا أنه حمل في تكوينه جذور الولاء القبلي والجهوي وذلك على حساب النزعة القومية⁽²¹⁾ .

وخلال الأشهر الخمسة التي حكمها المهدي تحول الجيش إلى مهام تأمين الدولة وبحث الطمأنينة في أنحائها، فقد وجه المهدي همه بعد إقامته في أم درمان إلى إخضاع الحاميات التي لم تخضع لحكمه بعد، فأوفد محمد عبد

الكريم علي رأس قوة إلى سنار وبعث حمدان أبو عنجة إلى جبال النوبة لإخضاع أهالي الجبال الذين تمردوا وقطعوا الطريق بعد ارتحال المهدي من قدير⁽²²⁾ وأمر المهدي حمدان أبو عنجة ألا يبادرهم بالحرب بل يدعوهم للطاعة فإن رفضوا حاربهم، وفي شهر مايو 1885م بعث المهدي بكتيبة إلى كسلا وكانت كسلا في تلك الفترة تعاني من الحصار وكتب أهلها إلى المهدي يسألونه أن يبعث إليهم أمناً من عنده فأجابهم على ذلك، وعندما وافقه الأخبار أن الإنجليز هددوا دنقلا أرسل قوة عسكرية علي رأسها عبد الرحمن النجومي في مارس 1885م وأمره أن يعسكر في المئمة، وطلب من محمد الخير في بربر استنفار جيشه والاستعداد لمطاردة الانجليز وبينما هو في هذه الاستعدادات اتاه الخبر بإخلاء الانجليز لمديرية دنقلا فأمر المهدي بالزحف عليها واحتلالها⁽²³⁾. وعليه يمكننا القول أن جيش الدولة المهدية ظل مواصلاً لطبيعته الحربية القتالية ولكن بوتيرة أقل مما كان عليه الحال إبان سنوات الثورة .

النظام القضائي :-

وفي مجال القضاء والتشريع كان هدف المهدي الأول هو إقامة دولة إسلامية مماثلة للنظام الذي كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فاعتمد النظام القضائي في دولته على القرآن والسنة ، غير أن الظروف اضطرت المهدي في بعض الأحيان لإصدار تشريعات في بعض المسائل اعتبرت سوابق قضائية، وأهم هذه التشريعات هي التي تعلق بوضع المرأة ونظام ملكية الأرض فقد أدى نشاط الثورة المهدية العسكري إلى زيادة نسبة الطلاق والعلاقات غير الشرعية بين النساء والرجال فأصدر المهدي عددا من القوانين والتشريعات في هذا الشأن، لكي يعود الاستقرار إلى المجتمع السوداني الذي تعرض لهزات عنيفة خلال الفترة التي تمكن فيها السودانيون من إزالة الحكم التركي المصري⁽²⁴⁾. تعتبر المؤسسة القضائية في الدولة المهدية من أهم مؤسسات الحكم المركزية، ويتولى الإشراف عليها قاضي الإسلام وهو الذي ينظر في الدعاوي من الأفراد وينظر في الاستئنافات، ويصدق على أحكام القصاص، وأول من تولى قاضي الإسلام أحمد ود جبارة ثم عبد الله ود جلاب، وكلاهما استشهد في معارك الثورة المهدية، ثم تولى المنصب أحمد ود علي في عهد الخليفة عبد الله التعايشي⁽²⁵⁾.

السياسة الخارجية للدولة المهدية في عهد المهدي

السياسة الخارجية هي ذلك السلوك الذي تتبعه إحدى الدول عبر مسؤوليها وصانعي قراراتها في وقت معين خارج حدودها السياسية والجغرافية، بقصد إنجاز هدف أو أهداف سياسية أو استراتيجية خارجية وتسعى الدولة

في تنفيذ سياستها الخارجية إلى حماية مصالحها أو تقليل الضرر الناشئ من تأثرها بما يجري على الساحة الدولية تتداخل فيها المصالح وتتشابك فيها العلاقات، وعليه فإنَّ أي قرار يؤخذ في إطار سياسة الدولة الخارجية يجب أن ينطلق من اعتبار طبيعة المجتمع الدولي و تعقيداته السياسية الاقتصادية والعسكرية⁽²⁶⁾.

إنَّ السياسة الخارجية لأي دولة هي في الأساس انعكاساً لسياستها الداخلية، فهناك عوامل اقتصادية واجتماعية وتاريخية وجغرافية وذاتية تتحكم في صياغة العلاقات الخارجية للمجتمع المعني⁽²⁷⁾ ونظراً لأنَّ الدولة المهديّة دولة ناشئة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي، وخرجت للمجتمع الدولي بعد صراع عنيف مع النظام التركي المصري في السودان ولم تجد الفرصة الكافية لبناء قدراتها الذاتية الموضوعية، واستكمال وحدتها، فوجدت نفسها في مواجهة دول متقدمة عليها حضارياً وتقنياً، وهي تتقدم نحو المناطق الاستراتيجية في العالم في تسابق استعماري شرس، فتصادمت مصالحها مع المصالح الاستعمارية، وتضافرت كل هذه العوامل وأثرت على توازن القوى العالمية، ممَّا عرقل من عملية سير سياسة الدولة المهديّة الخارجية وبرنامجهما الوطني والإقليمي⁽²⁸⁾.

بدأ المهدي سياسته الخارجية منذ استقراره في جبل قدير فبعث رسالة إلى السلطان محمد يوسف سلطان مملكة وداي في تشاد، وبعث رسالة إلى محمد أحمد السنوسي زعيم الطريقة السنوسية في ليبيا، وعرض عليه أن يكون خليفته الثالث في مقام سيدنا عثمان بن عفان، وبعث كذلك برسالة إلى الشيخ حياتو بن سعيد حفيد الشيخ عثمان دان فديو في شمال نيجيريا، كما بعث برسالة إلى الشيخ رابح فضل الله في وسط غرب إفريقيا، فالملاحظ أنَّ جميع هذه الرسائل كانت وجهتها غرب إفريقيا، هل يرجع ذلك إلى انتشار فكرة المهدي المنتظر في غرب إفريقيا؟ وبالتالي تجد التربة الصالحة للقبول، أم أنَّ للعامل الجغرافي دوره في توجيه الرسائل إلى غرب إفريقيا القريب من المجتمع المهدي في قدير، أم كان للسيد عبد الله التعايشي دوره في توجيه النشاط الخارجي إلى غرب إفريقيا لإدراكه بظروف وطبيعة المنطقة⁽²⁹⁾.

وبعد أن استتب الأمر للمهدي داخلياً وآلت إليه مقاليد السلطة والحكم في يناير 1885م، التفت إلى تنظيم العلاقات الخارجية لدولته والخروج بها من مرحلة التنظير إلى الواقع العملي الملموس وسلك في بداية أمره مسلك التبشير والدعوة السلمية، باعتبار أن الدعوة المهديّة دعوة عالمية يجب أن تسود كلَّ أرجاء العالم الإسلامي، فكتب عدداً من الرسائل إلى كل من الخديوي توفيق

خديوي مصر، وإلى علمائها وسائر أهلها، وإلى إمبراطور الحبشة يوحنا الرابع، وإلى أهالي المغرب ومراكش بل عيّن لهم محمد الغالي أميراً، كما خاطب والي فأس الحسن بن محمد بن عبد الرحمن موضحاً الأسباب التي دعت به إلى تعيين محمد الغالي والياً، وأيضاً إلى عشرة من أمراء بني شنقيط في موريتانيا يدعوهم إلى الانخراط في دعوته ويعلمهم بتعيين محمد تقي الدين عاملاً عليهم. وخارج إفريقيا خاطب المهدي أهالي الحجاز عندما أتاه وفد منهم وعيّن لهم عثمان نور الدين عاملاً عليهم، وأرسل الحاج عبد الله الكحل عاملاً على بلاد الشام⁽³⁰⁾.

ومضمون هذه الرسائل يحتوي على عالمية الدعوة المهدية والانخراط في دولتها سلماً وطوعاً، بالاعتماد على الزعماء والقادة في كل المناطق، ومما يؤخذ على السياسة الخارجية للمهدي أنها ألقت أعباء ومهاماً فوق قدرات الدولة المهدية التاريخية والفكرية خصوصاً وأن الدولة المهدية مازالت في مرحلة تكوينها وتثبيت دعائم حكمها الداخلي، وقد عبر المهدي عن جوهر سياسته الخارجية في قوله: وكما صليت بمسجد الأبيض تصلي بمسجد الخرطوم، ثم مسجد بربر، ثم مسجد المدينة المنورة، ثم مسجد مصر ثم مسجد العراق، ثم مسجد الكوفة، ويوضح هذا القول اتجاه السياسة الخارجية صوب العالم الإسلامي في أول الأمر، تعقبها مرحلة الفتوحات المهدوية على مستوى العالم، تمشياً مع قوله في رسالته إلى حسين باشا زعيم قبيلة العبابدة والتي ذكر فيها أن موضوع أمرنا الدين وجهاد أعداء الله، وقد انتهى أمرهم في السودان، فعزمتنا بإرادة الله على التفرغ لغيرها من البلدان⁽³¹⁾.

وصفوة القول عن السياسة الخارجية للدولة المهدية في عهد المهدي، نجد أنها ارتكزت أساساً على الفهم التقليدي لعالمية الدعوة المهدية وسيادتها على العالم الإسلامي أولاً، ثم الانطلاق عبر الفتوحات المهدوية لنشرها عالمياً، وهكذا بدأ المهدي رسم سياسته الخارجية عبر منشوراته ورسائله، لكن وفاته المبكرة في 22 يونيو 1885م حالت دون تطبيق هذه السياسة على الواقع العملي، كما أنها أدت إلى انفجار الصراع حول السلطة بين الأطراف المختلفة وانعكس أثرها على استقرار الدولة المهدية⁽³²⁾.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة التاريخ السياسي للدولة المهديّة خلال الفترة من 26 يناير 1885م وحتى 22 يونيو 1885م، وهي الفترة التي تولى فيها محمد أحمد المهدي قيادة الدولة، والفترة رغم قصرها إلا أنّها تعد مؤشراً قوياً ومحكاً حقيقياً لتطبيق فكرة المهدي المنتظر على أرض الواقع على يد منظرها في أرض السودان، فقد كانت سياسة المهدي وفلسفته تهدف إلى إقامة دولة دينية تستوعب متغيرات العصر ومتطلباته في الوقت الذي اندفعت فيه أوروبا بحضارتها ومدينتها نحو بلدان القارة الإفريقية، مما حتم التعامل مع هذا الواقع الدولي والمحلي المعقد وفق رؤية حكيمة غير أن وفاة المهدي المبكرة في 22 يونيو 1885م حالت دون ذلك .

النتائج والتوصيات :-

النتائج :-

1. استطاع المهدي أن يؤسس نظاماً سياسياً متكاملًا تمثل في القيادة العليا للدولة والتي هو على رأسها، ومجلس الأمناء المؤسسة التنفيذية للدولة ويقف عليها الخليفة عبد الله والمؤسسات المركزية الأخرى مثل بيت المال، وقاضي الإسلام .
2. على الصعيد المحلي والإقليمي قسمت البلاد إلى عمالات ووحدات إدارية صغيرة لتسهيل عملية إدارتها ومراقبتها مركزياً.
3. ركز المهدي جهده للاهتمام بحركة المجتمع وفق الضوابط الأخلاقية الشرعية، وذلك للنهوض بالأمة السودانية.
4. واصل الجيش الذي أعده المهدي إبان سنوات الثورة وفق المنظور الجهادي مهامه الحربية لتأمين الدولة عسكرياً والاستعداد لحركة الفتوحات المهدوية.
5. كانت السياسة الخارجية للمهدي منسجمة مع التصور الفلسفي والأيدولوجي لفكرة المهدي المنتظر وعالميتها.

التوصيات :-

توصي الدراسة بالبحث والتنقيب في المجالات الأخرى الاجتماعية والفكرية والاقتصادية للدولة المهديّة إبان تولي المهدي وتصديه لقيادة الدولة .

المصادر والمراجع

- (1) محمد محبوب مالك : المقاومة الداخلية لحركة المهدية 1881م - 1898م، ط1 دار الجيل بيروت 1407هـ / 1987م، ص، 65.
- (2) محمد إبراهيم ابوسليم : الحركة الفكرية في المهدية، ط3، دار جامعة الخرطوم للنشر 1989م، ص، 81.
- (3) بشير كوكو حميدة : صفحات من التريكة والمهدية ،دار الارشاد الخرطوم 1389هـ/1969م ص ،215.
- (4) منشورات المهدي ،تحقيق محمد ابراهيم ابو سليم ،دار الجيل بيروت ط2 ،1979م ص،70 .
- (5) نعم شقير : تاريخ السودان ،الدار السودانية للكتب 1408هـ / 1988 ص 601 .
- (6) محمد سعيد القдал : تاريخ السودان الحديث 1820 - 1955م شركة الامل للطباعة ص 158 .
- (7) محمد ابراهيم ابو سليم : المرجع السابق ص 81 .
- (8) سليمان كشة : تأسيس مدينة الخرطوم والمهدية ص 25.
- (9) محمد سعيد القдал : المرجع السابق ص 158.
- (10) القдал،محمد سعيد القдал : المرجع السابق ص 159 .
- (11) عبدالعزيز حسين الصاوي ومحمد علي جادين ،الثورة المهدية مشروع رؤية جديدة،شركة الفارابي للنشر ط1 1407هـ / 1987م ،ص 59 .
- (12) حسن أحمد ابراهيم : تاريخ السودان الحديث الخرطوم 1976 ،ص 69 .
- (13) منشورات المهدية : تحقيق محمد ابراهيم ابو سليم ،دار الجيل بيروت ط2 1979م ص 165.
- (14) محمد ابراهيم ابو سليم : المرجع السابق ،ص81 .
- (15) عبدالله علي ابراهيم : الصراع بين المهدي والعلماء ،دار نوبار للطباعة 1994م ص25.
- (16) منشورات المهدي ،المرجع السابق ص 355.
- (17) شقير نعم ،المرجع السابق ص 598 .
- (18) ب،م ،هولت : المهدية في السودان ،ترجمة د. جميل عبيد ،مراجعة د. أحمد عبدالرحيم مصطفى ،دار الفكر العربي ص 140.
- (19) محمد سعيد القдал : المرجع السابق المرجع السابق ص 176.
- (20) ب ،م هولت :المصدر السابق ص 131.
- (21) محمد سعيد القдал : المرجع السابق ص 172.
- (22) مكي الطيب شبيكة : المرجع السابق ص 364 .
- (23) نعم شقير : المرجع السابق ص 588.

- (24) حسن أحمد ابراهيم : المرجع السابق ص 70 .
- (25) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان ،الدار السودانية للكتب 1408هـ / 1988م ص 158.
- (26) رحاب جلال الدين خالد : الخليفة عبدالله وصناعة القرار السياسي في الدولة المهدية 1885 – 1989م ،مطبعة آفاق للطباعة والنشر 2008 ، ص 14,15 .
- (27) محمد سعيد القدال : المرجع السابق ص 190.
- (28) رحاب جلال الدين خالد : المرجع السابق ص 190 .
- (29) محمد سعيد القدال : المرجع السابق ص 191.
- (30) محمد ابراهيم ابو سليم : المرجع السابق ص 41.
- (31) مكي الطيب شبيكة : المرجع السابق ص 364 .
- (32) دباخ حنان : الثورة المهدية في السودان 1881-1899م ،(رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة محمد خضر ،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية 201 ص 52 .

أهم المدن الإسلامية في القرن الأول الهجري (مدينة البصرة أنموذجاً)

باحثة

أ. سميرة بنت صقر بن غميض اليزيدي

المستخلص :

تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على أهم المدن الإسلامية في القرن الأول الهجري مدينة البصرة أنموذجاً حيث ظهرت العديد من المدن الإسلامية والتي أدت أدواراً مهمة في مجالات عدة عسكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية ودينية، ونالت هذه المدن اهتماماً واسعاً وعناية فائقة من قبل الجغرافيين والرحالة المسلمين، ومن هنا تكمن أهمية الدراسة في التركيز على مؤلفات الجغرافيين والرحالة، إذ قدمت مؤلفاتهم معلومات مهمة عن حياة هذه المدن من وصف جغرافي وتاريخي واجتماعي وحركة ثقافية، متابعين فيها خططها العمرانية من قصور ومساجد ومحلات وأسواق وحمامات وقبور ومشاهد ومدارس وأربطة، فضلاً عن ترجماتهم لعلمائها وفقهائها، وإنجازاتهم العلمية، وعلى ذلك اتبعت هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي للوصول لنتائج علمية، من خلال تتبع كتب الرحالة، وذلك لبيانهم لأهمية المدن الإسلامية اقتصادياً، وسياسياً، وفكرياً، محاولين إظهار محاسنها وفضائلها، وانطلاقاً من أهمية جبهة البصرة ودورها في التاريخ العسكري العربي الإسلامي كان لا بد من دراسة علمية شاملة لهذه الجبهة من عدة جوانب، حتى نخلص لإبراز إرث هذه المدينة الفني بعبائهم الحضاري ونتائج علمائهم إضافة إلى دور المسلمين في فتحهم للمدن والعمل على نهضتها وحضارتها، حتى غدت منارة لطلاب العلم يفدون للتعليم منها خصوصاً العلوم الشرعية والعربية، وبناء على ماسبق ذكره، اخترنا أن يكون موضوعنا «البصرة من خلال كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين»

Abstract

This study aims to shed light on the most important Islamic cities in the first century AH, the city of Basra as a model, where many Islamic cities appeared, which played important roles in several military, political, economic, social and religious fields. Here lies the importance of the

study in focusing on the literature of geographers and travelers, as their books provided important information about the life of these cities from a geographical, historical, social and cultural description, in which they followed up their urban plans such as palaces, mosques, shops, markets, baths, graves, scenes, schools and ribat, as well as their translations of their scholars and jurists. And their scientific achievements, and accordingly this study followed the analytical historical method to reach scientific results, by tracking travelers' books, for their demonstration of the economic, political, and intellectual importance of Islamic cities, trying to show their merits and virtues, and based on the importance of the Basra front and its role in the Arab-Islamic military history was essential. From a comprehensive scientific study of this front from many aspects, until we conclude to highlight the artistic legacy of this city with its civilization and the results of its scholars in addition to the role of Muslims in their conquest of cities and work on their renaissance and civilization, until it became a beacon for science students who come to learn from it, especially Sharia and Arabic sciences, and based on the above Mentioning him, we chose to have our topic "Basra through the books of Muslim geographers and travelers.

المقدمة:

يرجع أصل اسم البصرة كما ورد عند بعض الجغرافيين والرحالة المسلمين إلى أصل عربي، مقتبس من الطبيعة الجغرافية للمنطقة ونوعية تربتها، ففي رواية للبلاذري يشير فيها إلى أن موضع البصرة لرخاوة أرضها⁽¹⁾ أما المقدسي (ت381هـ) فيرى أن اسم البصرة مشتق من الحجارة السود كأنه يثقل بها مراكب اليمن فتلقى، وفي قول آخر أن اسمها مشتق من الحجارة الرخوة المائلة إلى البياض، وأورد أحد اللغويين بأن اسمها مشتق من الأرض الغليظة⁽²⁾، أما ياقوت الحمدي فقد أورد عدداً من أقوال اللغويين

في اشتقاق اسم البصرة وخلصته أنه رجّع للروايات التي تشير إلى أن البصرة تدل على الصلابة لا الرخاوة⁽³⁾.

وإذا رجعنا إلى لسان العرب لابن منظور (ت711هـ) فذكر أن في البصرة ثلاث لغات : بصرة بفتح الباء وسكون الصاد وبصرة بفتح الباء وكسر الصاد وبصرة بضم الباء وسكون الصاد، فالأولى تعني الحجارة البراقة وهي أرض كأنها جبل من جص وهي التي بنيت بالمربد، وإنما سميت البصرة بصرة بها⁽⁴⁾، أما الثانية فهي أرض حجارتها جص وبها سميت البصرة⁽⁵⁾ أما الثالثة فهي الحجر الأبيض الرخو⁽⁶⁾ وأطلق على البصرة والكوفة البصرتان⁽⁷⁾.

موقع مدينة البصرة:

فيذكر ابن فقيه الهمزاني أن البصرة كانت تعرف قديماً بأرض الهند قبل أن يخطها عتبة بن غزوان ، ففي رواية يشير فيها إلى أن عمر t كتب إلى سعد بن أبي وقاص يأمره بـ « حط قيروانك بالكوفة » وابعث بعتبة بن غزوان إلى أرض الهند فإن له في الإسلام مكاناً، وقد شهد بداراً فمضى عتبة في ثمانمائة ونزل البصرة في سنة ستة عشر للهجرة ومصرها⁽⁸⁾، ويبدو من ذلك أن منطقة البصرة لم تكن مأهولة بالسكان والعمران قبل مجيء المقاتلة العرب بدليل أن البلاذري ذكر أن هناك ضرائب لقصور قديمة أطلق عليها اسم الخريبة وإن موضع البصرة كان فيها مسلحة فارسية عسكرية⁽⁹⁾ واتفق الجغرافيون والرحالة المسلمون على أن الجيش الإسلامي المرافق للقائد عتبة هم الذين اختاروا موقع البصرة ووضعوا اللبنة الأولى لخطتها⁽¹⁰⁾، والمقاتلون العرب هم أول من قطنوها وبنوا المساكن فيها فذاع اسمها⁽¹¹⁾، وحدد الجغرافيون المسلمون موقع البصرة بأنها تقع على ساحل الفرات ودجلة⁽¹²⁾، ويحيط بغربها البادية مقوسة وبشرقها مياه الأنهار⁽¹³⁾ وفي غربها وجنوبها جبل يقال له سنام، وتحيط البرية في جنوبها وغربها، وفي جنوبها أيضاً واد يقال له وادي النساء لأن النساء يظهرن إليه ويلتقطن فيه الكمأة، وسنام عن البصرة يبعد نصف مرحلة وليس في برية البصرة مزروع على المطر⁽¹⁴⁾، ونرى انحصار مدينة البصرة بين البحر من قبل المشرق أي الخليج العربي حالياً ومن غربها الصحراء وقد لقوا أهل البصرة حين نزولها أحد عيوبها، فيذكر البلاذري (ت279هـ) أن وفداً من أهل البصرة وفي مقدمتهم الأحنف بن قيس وفد على عمر بن الخطاب t شاكياً له سوء الأحوال من قلة الماء العذب وقلة الزرع، فلما سمع عمر منهم ذلك ألحق ذراري أهل البصرة في العطاء وكتب إلى أبي موسى يأمره أن يحفر لهم نهراً⁽¹⁵⁾.

ومدينة البصرة التي⁽¹⁶⁾ اختطها الصحابي الجليل عتبة بن غزوان⁽¹⁷⁾ t

من سنة 17هـ وهو يومئذ عاملاً للخليفة عمر بن الخطاب t في الموضع الذي نزل فيه المسلمون أيام عمر t لتكون مقراً للمقاتلة العرب ، وجاء نزولهم فيها بناء على أمر من الخليفة بأن تكون البادية بين الجزيرة العربية وبينهم لا يفصلها حد طبيعي كالبحر أو النهر لكي يضمن الخليفة سهولة وصول الإمدادات، وحدد الجغرافيون المسلمون طول البصرة وعرضها، فعند اليعقوبي (ت292هـ) وقت افتتاحها كانت فرسخين في فرسخ⁽¹⁸⁾، أما ابن الفقيه الهمزاني فقد حدد طولها أيام ولاية خالد بن عبد الله القسري بفرسخين وعرضها فرسخين⁽¹⁹⁾، وحدد ياقوت الحموي (ت626هـ) طولها بأربع وسبعين درجة وعرضها بإحدى وثلاثين درجة، وحدد موقعها فمن الإقليم الثالث⁽²⁰⁾، ويشير المقدسي إلى حدود البصرة مستنداً إلى رواية تشير إلى أن عمر رضي الله عنه وجه عتبة بن غزوان أن يبني للمسلمين مدينة بين فارس وديار العرب وحد العراق على بحر الصين فاتفقوا على موضع البصرة ونزلها العرب⁽²¹⁾، أما صورة مدينة البصرة عند الجغرافيين المسلمين فتتمثل بأحد جناحي الطير فيقول الحميري (وعن اياس بن معاوية: مثلت الدنيا على صورة طائر فالبصرة ومصر الجناحان والشام والراس والجزيرة الجؤجؤ واليمن الذنب ويلى في الحديث ذكر الكوفة⁽²²⁾، وفي هذا النص نجد أن البصرة تتميز على الكوفة أنها ذكرت في صورة الدنيا ولم تذكر الكوفة ، وعن اليعقوبي فإن صورة البصرة مدينة مستطيلة الشكل⁽²³⁾

وصف أرض البصرة ومناخها:-

عني الجغرافيون والرحالة المسلمون بوصف أرض البصرة ومناخها ففي كتاب فتوح البلدان نجد وصفاً مسهباً جاء على لسان رئيس وفد البصرة الأحنف بن قيس عندما وفد على الخليفة عمر بن الخطاب t ليتضح من خلال الوصف إلى الإشارة إلى ظاهرة الملوحة التي تشكو منها البصرة آنذاك⁽²⁴⁾، وأحصى الرحالة عدد الأنهار في البصرة ، فكانت أكثر من مائة ألف نهر⁽²⁵⁾.

أما مناخ البصرة : والذي عرف بتقلبه فيقول المقدسي: «أنها متقلبة الهواء»

مساجد البصرة :-

وللبصرة عدة مدن منها عبادان والأبلة والمفتح والمذار وهي مدن صغار أكبرها الأبلة⁽²⁶⁾، وعني الجغرافيون والرحالة المسلمون بوصف مسجد البصرة وذكروا الزيادات التي أدخلت عليه من قبل ولاة المسلمين، فأول من بنى المسجد باللبن والطين أبو موسى الأشعري وزاد في المسجد⁽²⁷⁾ وبناه

عبد الله بن عامر في عهد الخليفة عثمان بن عفان t باللبن أيضاً⁽²⁸⁾ وكان المنبر في وسط المسجد، وفي كتاب فتوح البلدان للبلاذري، تفاصيل مهمة عن بناء المسجد ودار الإمارة لا نجدها عند غيره من الجغرافيين والرحالة المسلمين ولعل الجغرافيين والرحالة المسلمين أثروا أن لا يذكروا مثل هذه التفاصيل لأنه حسب اعتقادهم أن من سبقهم قد تناولها في كتابه بشيء من التفصيل فلا حاجة لتكرارها، وذكر البلاذري أن عتبة بنى المسجد من القصب فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو فإذا رجعوا أعادوا بناءه فلم تزل الحال كذلك إلى حين مجيء أبو موسى الأشعري الذي بناه باللبن والطين وزاد في المسجد⁽²⁹⁾، وذكر البلاذري أن زياد بن أبي سفيان زاد في المسجد زيادة كثيرة، وجعل صفة المقدمة خمس سواري وبنى منارته بالحجارة أيضاً وهو أول من عمل المقصورة ونقل دار الإمارة إلى قبلة المسجد⁽³⁰⁾ وزاد عبد الله بن زياد في هذا المسجد وفي مسجد الكوفة⁽³¹⁾، أما أرض المسجد فكان تراباً فأمر زياد بفرشه بالحصى بعد أن رأى الناس ينفضون أيديهم من التراب وهم في الصلاة فخاف أن يظن الناس بأن نفض الأيدي سنة فأمر بجمع الحصى والقائه في المسجد⁽³²⁾، ويذكر ابن الفقيه الهمزاني أن زياداً بنى سبعة مساجد فلم يضاف إليه شيئاً منها : مسجد السورة ، ومسجد بن عدي ، ومسجد بني مجاشع ، ومسجد حدان ، ولكل مسجد في البصرة كانت رحبته مستديرة فإنه من بناء زياد وكلما بنى فيها أو صنع فإنه نسب إلى غيره⁽³³⁾، وكان لعمر بن الخطاب بن خطيب الأنصاري مسجداً في البصرة عرف باسمه⁽³⁴⁾.

ويبدو أن عدد المساجد التي بنيت بالبصرة كان كبيراً ولعل هذه المساجد بنيت بعد زياد فيذكر الإدريسي أن عدد المساجد في البصرة نقلًا عن اليعقوبي قائلاً حكى أحمد بن يعقوب صاحب كتاب الممالك والمسالك أن البصرة كان فيها سبعة آلاف مسجد ونيف أما الآن فأكثرها خلا ، وما بقي منها إلا عمارة ما دار بالمسجد الجامع الذي فيها⁽³⁵⁾، ويبدو أن كتاب المسالك والممالك لليعقوبي هو غير كتاب البلدان لأن هذا النص غير موجود في كتابه البلدان ، ومن الملفت للنظر أن كلاً من الأصبخري وابن حوقل لم يذكرا شيئاً عن مسجد البصرة، أما المقدسي فقد اكتفى بالقول أن بها أي البصرة ثلاثة جوامع أحدها في الأسواق، وجامع آخر على باب البادية، وكان قديماً وثالثاً على طرف البادية⁽³⁶⁾، وينفرد ابن بطوطة بوصفه لمسجد علي بن أبي طالب t وذلك بناء على مشاهداته ومعاينته له إذ يذكر أنه قد شهد مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة فقال ابن بطوطة في وصفه : « وهذا المسجد من أحسن المساجد

وصحنه متناهي الانفتاح مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع، وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان t يقرأ فيه لما قتل، وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى : فسيفكيهم الله وهو السميع العليم»⁽³⁷⁾.

دور البصرة وقصورها :

ينفرد البلاذري بذكر قصور البصرة ودورها بشيء من التفصيل فيشير إلى أن أول دار بنيت بالبصرة دار نافع بن الحرث، ثم دار معقل بن يشار المزني،⁽³⁸⁾ وبالبصرة دور كثيرة كانت لمواليهم، وذكر البلاذري قصوراً عدة بالبصرة من بينها قصر أوس بن ثعلبة⁽³⁹⁾ والقصر الأحمر يعود لعمر بن عتبة بن أبي سفيان ، وقصر المسيرين كان لعبد الرحمن بن زياد، وقصر عبد الله بن زياد وغيرها من القصور

وذكر ابن الفقيه قصر أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ وفي عهد بن العباس بنى المنصور عندما دخل البصرة لأول مرة قصره وبنى بعد ذلك المصلى بالبصرة⁽⁴⁰⁾.

وعلى الرغم من ذكر الجغرافيين المسلمين لقصور البصرة إلا أنهم لم يذكروا تفاصيل عن شكل بنائها وعدد غرفها وكل واجهات هذه القصور ومساحتها وهل كانت تحتوي على حدائق أم لا؟ ومدى ارتفاع البنيان؟ إلا أنهم اكتفوا بذكر مواد البناء، فيذكر ابن الفقيه أن بنيان عثمان بن عفان t بالحجارة المنقوشة التي حملت له عن طريق البحر مع خشب الصنوبر والساج ويقول الأصبخري إن أكثر أبنية البصرة بالأجر، وهذا يعني أن البناء بالأجر لم يقتصر على قصور الخلفاء والولاة بل شمل البصريين من عامة أهلها، وهذا يعني أن التطور الاقتصادي انعكس على حياة البصريين فظهرت مظاهر الشرق لديهم.

المشاهد بالبصرة :-

يذكر الجغرافيون والرحالة المسلمون القبور المشهورة بالبصرة أمثال قبر طلحة بن عبيد الله الصحابي الجليل وحددوا موقعه بأنه يقع خارج المربد في البادية، ويصفه ابن بطوطة قائلاً : « بأن عليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وأهل البصرة يعظمونه تعظيماً شديداً⁽⁴¹⁾ ووجدت قبور أنس بن مالك، والحسن البصري، وابن سيرين، والمشاهير من علماء البصرة وزهادها⁽⁴²⁾ ومن الغريب ما يذكره ابن بطوطة في رحلته أن بالبصرة قبر حليلة السعدية مرضعة رسول الله ﷺ وإلى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله ﷺ⁽⁴³⁾ وهو أمر مستبعد لأن حليلة السعدية في المدينة المنورة ولم يذكر المؤرخون أن قبرها بالبصرة ويبدو أن الجغرافيين والرحالة المسلمين

اقتصروا على ذكر قبور المشهورين من الصحابة والتابعين خوف الإطالة ويدل على ذلك قول ابن حوقل: «والمشاهير من علماء البصرة وزهادها إلى يومنا هذا، كما ذكر ابن سعد مشهد رجل بها»⁽⁴⁴⁾.

سكك البصرة :-

عني الجغرافيون والرحالة المسلمون بذكر السكك، فذكر البلاذري أن السكك كانت تسمى بأسماء الأشخاص الذين قاموا بفتح الطرق وتأمينها لمرور القوافل، أو أنهم أول من سكن هذه السكك التي بناها زياد أسكنها أربعة آلاف من البخارية فقليل سكة البخارية⁽⁴⁵⁾، فعندما بنى عبيد الله بن زياد داره في البصرة كان فيها باب إلى السكة التي تنفذ إلى سكة اصطفا نوس كما اشتهرت بالبصرة بسكة بني سمرة أما أبواب البصرة فإن بها عدداً من الأبواب لم يذكر منها إلا القليل منها باب عثمان وينسب إلى عثمان بن أبي العاص الثقفي.

حمامات البصرة :

وهي من المعالم البارزة في البصرة والتي عرفت بكثرتها ومنها المقدسي بقوله وحماماتها طيبة ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الحمامات كانت لا تبني بالبصرة إلا بعد أخذ الإذن من الولاة على حد قول البلاذري⁽⁴⁶⁾ وأول حمام اتخذ في البصرة حمام عبد الله بن عثمان بن أبي العاص ومن ذكر البلاذري للحمامات يتضح أنها كانت تدر على أصحابها فوائد، فذكر أن حمام مسلم بن أبي بكر كان يدرّ عليه كل يوم ألف درهم وعندما مرض أوصى إلى أخيه عبد الرحمن وأخبره بغلة حمامه فأفشى بذلك واستأذن السلطان في بناء حمام ومن رواية البلاذري نستشف أن الحمامات كانت تدر أرباحاً إضافية إلى أنها شجعت أهل البصرة على البناء، وذكر ابن الفقيه الهمداني أن من الحمامات حمام فيل يعود لشخص يدعى فيل كان مولى لزياد « يضرب المصل بهذا الحمام⁽⁴⁷⁾ فيبدو أن الحمام ذلك ضرب به المثل لوجود مميزات به تختلف عن بقية الحمامات بحيث أصبح يضرب به المثل.

الأحوال الاقتصادية للبصرة:

مثلت البصرة مصدراً تجارياً واقتصادياً مهماً بالنسبة للطرق، وذلك بفضل ما تميزت به من موقع استراتيجي على الممر التجاري، فهناك طريق برية ونهرية داخلية، فيشير ابن الفقيه الهمداني نقلاً عن سليمان التاجر إلى أهمية ميناء البصرة بقوله: «أن أكثر السفن الصينية تعمل من البصرة وعمان وتعبأ بسيراف وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه»⁽⁴⁸⁾، كما أشار إلى الطريق التجاري البحري الموصل إلى عدن، ويشير اليعقوبي إلى

أهمية مدينة البصرة فيقول: « والبصرة مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها⁽⁴⁹⁾ ونظراً لاتساع النشاط التجاري للمدينة نشطت أسواقها المملوءة بالبضائع فيقول المقدسي : « وأسواقها ثلاث: قطع الكلاء على النهر، وسوق الكبير، وباب الجامع، وكل أسواقها حسنة⁽⁵⁰⁾. »

ورافق هذه النهضة التجارية نهضة في الصناعات منها صناعة الأقطان كما اشتهرت البصرة بثرواتها الزراعية والحيوانية، فيمتدح المقدسي البصرة ويذكر أنها مشهورة بتمورها الكثيرة ويضيف قائلاً: « ذات لحم وخضر وأقطان وألبان وعلوم وتجارات⁽⁵¹⁾، وتميزت البصرة بكثرة أصناف التمور فعددها ابن الفقيه بثلاثمائة وستين ضرباً⁽⁵²⁾ وقال الحميري عن تجار التمور: « تجارة أهل البصرة العظمى وعدتهم الكبرى، وأن أهل البصرة بالنخل أعلم وأقوم بها وأحذقهم بفراستها وتربيتها وإصلاحها وأدائها وأعرفهم بأحوالها حين تفرس إلى حين تكمل ويستوي وأبصرهم بالتمر وخرصه وتمييزه وجزره وخزنه⁽⁵³⁾. » كما اشتهر أهل البصرة بتجارة الأسماك ووجود أصناف فيها الشبوط والشيم⁽⁵⁴⁾ والشاه عند البصريين لها أنساب فيقولون شاة بني فلان أمها فلانة وأبوها ليس فلان⁽⁵⁵⁾

أما الحمام فكانت تجارته رائجة في البصرة فيقول الحميري: « فأما الحمام فالأمر بالبصرة جل فيه وتجاوز الحد وبلغت الحمام عندهم من الصعري أن جاءت من أقاصي بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة وتنافسوا في اقتنائها حتى بلغ ثمن الطائر منها سبعمائة دينار، وكانت تباع البيضة من الطائر المشهور بعشرين دينار⁽⁵⁶⁾

أما عن أسعار التمور بالبصرة فأشار الإدريسي إلى أن بعض التجار المسافرين إلى البصرة حكى أنه اشترى التمر بها عام 536هـ رطلاً بدينار، وبذلك نرى اعتماد البصرة على وفرة إنتاجها من التمور والقطن وتجارة الحيوانات مما يشير إلى أنها بلدة نشطة تجارياً بحكم موقعها إضافة إلى المميزات سابقة الذكر .

أحوال البصرة اجتماعياً ودينياً :-

تنوعت الصلات التي ربطت البصرة بعد تأسيسها بالحجاز فشملت جوانب اجتماعية واقتصادية وسياسية وفكرية كان لها الأثر الأكبر في التحولات التي شهدتها البصرة طيلة القرن الأول الهجري، ففي الجانب الاجتماعي أسهمت القبائل الحجازية ومنذ البداية الأولى لتأسيس مدينة البصرة في تكوين البنية الاجتماعية لها، حيث عدة قبائل أهل العالية، التي تتكون من العشائر الحجازية الأصل، احد أبرز الأخماس الأساسية التي تشكل

منها المجتمع البصري، وكان لرجال هذه القبائل مكانة اجتماعية واقتصادية وسياسية، بارزة في المجتمع البصري ومساهمة فاعلة في الكثير من الأحداث الكبرى التي شهدتها البصرة طيلة القرن الأول الهجري..

أما في الجانب الاقتصادي من خلال وصف الرحالة للبصرة يتضح لي علاقة المتغيرات الاقتصادية وازدهار التجارة الذي انعكس على نشاط أهل البصرة الثقافي والفكري فصارت هذه المدينة ملتقى للمتقنين وفي ذلك يقول أبو الفداء: «وهو محلة عظيمة في البصرة من جهة البرية، كان يجتمع فيها العرب من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشتررون، فتحول هذا السوق إلى محل للعطاء الفكري، إلى جانب النشاط الاقتصادي على حد سواء، فأشار ياقوت الحموي إلى هذا الشارع الذي يوجد به سوق المريد فيقول إنه كان من أجل شوارع المدينة، كما أنه كان سوقاً من أجل أسواقها حيث كان يجتمع فيه الشعراء والخطباء يتفاخرون بأشعارهم وقبائلهم وأنسابهم، ووجد في البصرة عدد كثير من العلماء والصالحون والزهاد كأئس بن مالك، صنفهم ابن سعد إلى طبقات كل طبقة حوت العديد من العلماء الذين ذاع صيتهم في البصرة⁽⁵⁷⁾، كما أشاد المقدسي بأهل البصرة بقوله «وبالبصرة صالحون وزهاد ورعون ومستورون»⁽⁵⁸⁾ كانت لهم مجالس علم عديدة⁽⁵⁹⁾، كما حوت البصرة العديد من مختلف التيارات الفكرية⁽⁶⁰⁾.

الطعام والملابس المشتهرة في البصرة :

اشتهر أهل البصرة بلبس الخزّ والذي كان سداً الحرير⁽⁶¹⁾ ومطرف الخز⁽⁶²⁾، والبرانس⁽⁶³⁾، والبرد القطرية⁽⁶⁴⁾ واشتهروا بلبس العمامة ومنها الحرقانيده⁽⁶⁵⁾ ولبسوا الطيلسان⁽⁶⁶⁾.
أما طعامهم فكان السمك، اللحم، المرق، والفرسك وصعو الخوخ، والتمر،⁽⁶⁷⁾ وغيرها.

أهم النتائج :

1. يتضح من خلال الدراسة على عظم مدينة البصرة في الإسلام وأنها مدينة مستحدثة لم يكن لها وجود قبل الإسلام .
2. تبين من خلال الدراسة أن أكثر الكتب إسهاباً في وصف مدينة البصرة هو كتاب فتوح البلدان للبلاذري، واعتمد على كتابه العديد من المؤلفين أمثال ياقوت الحموي، وابن الفقيه.
3. هناك من المؤلفين من اعتمد على وصف البصرة من خلال مشاهداته كابن حوقل، والمقدسي .

1. أولى الجغرافيون والرحالة اهتماماتهم في وصف البصرة والحركة الفكرية فيها والاجتماعية والاقتصادية والمناخية وغيرها دون التوسع في الجانب السياسي لها .

2. لكتب التراجم والطبقات ابرزها كتاب ابن سعد وصفا لمدينة البصرة من خلال ترجمة لأبرز الاعلام نزولاً بها ومن خلال تتبع ترجمتهم نستطيع ان نطلع على ابرز علمائها، ودورهم، ومهنتهم، واسواقهم، وطعامهم، وتعامل أهلها بعضهم ببعض، وغيرها..

التوصيات:

1. ضرورة الاهتمام بدراسة المدن الإسلامية.
2. ان يكون التركيز في وصف المدن على كتب الرحالة، وفي وصف المجتمع على كتب الطبقات والسير.
3. القاء المزيد من الضوء على الجانب المشرق لتاريخ المدن الإسلامية الأولى.

المصادر والمراجع:

- (1) البلاذري: أحمد بن يحيى (ت 279هـ)، فتوح البلدان، عني بمراجعته رضوان محمد رضوان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398، ص 336.
- (2) المقدسي: محمد بن أحمد (ت 381هـ): أحسن التقاسيم بمعرفة الأقاليم، مراجعة: محمد أمين الصاوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ، ص 108
- (3) الحموي: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله (ت 626هـ): معجم البلدان، ط1، دار احياء التراث، بيروت، 1416هـ ج2، ص 340 .
- (4) المصدر السابق: ج2، ص 340 .
- (5) المصدر السابق ج2، ص 340
- (6) المصدر السابق: ج2، ص 340 .
- (7) ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي (ت 711هـ): لسان العرب، د، ط، د، ت، م 1، ص 220 .
- (8) البلاذري: البلدان، ص 188.
- (9) البلاذري: البلدان، ص 345.
- (10) المصدر السابق، ص 431- 432
- (11) ناجي: عبد الجبار، اسهامات مؤرخي البصرة، ص 17.
- (12) ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد (ت 779هـ)، رحلة ابن بطوطة، طض، دار الكتب العلمية، ص 126
- (13) ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي الضيبي البغدادي (ت 367هـ)، صورة الأرض، ج1، ص 329 .
- (14) أبو الفداء: عماد الدين اسماعيل بن محمد (ت 732هـ)، تقويم البلدان، ص 358.
- (15) فتوح البلدان، ص 350.
- (16) وقد تحدث عنها كثير من المؤلفين أمثال البلاذري في فتوح البلدان (ن 279هـ)، واليعقوبي في كتابة البلدان (ت 292هـ)، الأصبخري في كتابه المسالك والممالك (ت 348هـ)، وابن حوقل في كتابه صورة الأرض (ت 367هـ)، المقدسي في أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ت 385هـ)، الإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الأفاق (ت 560هـ)، الحموي في كتابه معجم البلدان (ت 626هـ)، القزويني في آثار البلاد وأخبار العباد

(ت682هـ)، الحميري في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار (ت723هـ)، شيخ الربوة، الدمشقي في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (ت727هـ)، أبو الفداء في كتابه تقويم البلدان (ت732هـ)، ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ت749هـ)، ابن بطوطة: في كتابه تحفة انظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف اختصاراً برحلة ابن بطوطة (ت779هـ، كما أود هنا أن أشير إلى أن هناك من كتب الطبقات والتراجم حوت معلومات حضارية من البصرة فمثلاً العلامة ابن سعد في كتابه الطبقات الكبير (ت230هـ)، أورد في جزئه التاسع العلماء الذين نزلوا البصرة وكانت لهم مساهمات كبيرة في البناء والإعمار ونشر التعليم والنهضة الحضارية، كما أشار الى ملبسهم وزيههم وطعامهم وما اشتهروا فيه .

(17) عتبة بن غزوان المازني، قال ابن سعد في كتابه الطبقات، استعمل عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان على البصرة، فهو الذي مصر البصرة واختطها، توفي في البصرة سنة ١٧هـ. ابن سعد: الطبقات، مصدر سابق، ج٣، ص ٩٢.

- (18) البلدان : ص 323 .
- (19) مختصر كتاب البلدان : ص 190 .
- (20) معجم البلدان : ج 2 ، ص 347 .
- (21) أحسن التقاسيم : ص 108 .
- (22) الروض المعطار : ص 106 .
- (23) البلدان : ص 323 .
- (24) المرجع السابق.
- (25) المرجع السابق.
- (26) الأضطخري: مسالك الممالك ، ص 57 .
- (27) البلاذري : فتوح البلدان : ص 341 .
- (28) المصدر السابق ، ص 341
- (29) المصدر السابق: ص ٣٤١ .
- (30) المصدر السابق: ص ٣٤١ .
- (31) المصدر السابق: ص ٣٤١ .
- (32) ابن الفقيه الهمزاني: البلدان، ص ٢٣٢.

- (33) المصدر السابق: ص ٢٣٢.
- (34) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 9، ص 27.
- (35) الادريسي: نزهة المشتاق، ج ١، ص ٣٨٣.
- (36) نادية نوري: نشأة مدينة البصرة وتطورها، ص ٣٣.
- (37) المرجع السابق.
- (38) البلاذري، مصدر سابق، ص ٣٤١.
- (39) هو اوس بن ثعلبة التيمي، صاحب قصر البصرة. ابن الاثير: اسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ١، ص ٣١٥.
- (40) ابن الفقيه: مصدر سابق، ص ٢٣٢.
- (41) ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ١٢٦.
- (42) ابن سعد: مصدر سابق، ينظر الجزء التاسع فيمن نزل البصرة وتوفي بها.
- (43) ابن بطوطة: مصدر سابق.
- (44) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج 9، ص 140.
- (45) البلاذري: مصدر سابق، ص ٣٤١.
- (46) المصدر السابق.
- (47) شاكر مجد كاظم: حمامات البصرة في القرن الأول الهجري، ص ٣٤٣.
- (48) الكعبي: عبدالحكيم غنتاب، مهن السوق في البصرة، ص ٢٢.
- (49) المرجع السابق.
- (50) المرجع السابق.
- (51) المقدسي: احسن التقاسيم، ص ١٠٨.
- (52) المصدر السابق: ص ١٠٨.
- (53) الكعبي: مهن السوق في البصرة، ص ٢٢.
- (54) نادية نوري: نشأة مدينة البصرة وتطورها، مرجع سابق، ص ٣٠.
- (55) نادية نوري: نشأة مدينة البصرة، مرجع سابق، ص ٣٠.
- (56) المرجع السابق.
- (57) ابن سعد: الطبقات الكبرى، مصدر سابق، انظر الجزء ٩ فيمن نزل البصرة.
- (58) المقدسي: احسن التقاسيم، ص ١٠٨.

- (59) المصدر السابق: ص ١٠٨.
- (60) المصدر السابق: ص ١٠٨.
- (61) لخز هو لباس من صوف وأبريسم ، لبسها الصحابة والتابعون .
- (62) ابن سعد: الطبقات الكبرى ، ج 9 ، ص 111- 125- 145.
- (63) المصدر السابق : ج 8 ، ص 261 .
- (64) المصدر السابق : ص 145 .
- (65) المصدر السابق : ص 145.
- (66) المصدر السابق : ج 9، ص 172
- (67) هو الذي زينت أطرافه بالديباج .
- (68) ابن سعد : الطبقات ، ج 9 ، ص 127-322.

تجارة العبور (الترانزيت) في البحر الأحمر خلال القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي

باحثة دكتوراه - قسم التاريخ - كلية الآداب
والعلوم الإنسانية - جامعة الملك عبدالعزيز -
المملكة العربية السعودية

أ. سهى سعود شعبان

المستخلص:

يهدف البحث للتعرف على تجارة العبور (الترانزيت) في البحر الأحمر خلال القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، حيث شهدت هذه الفترة حركة تجارية كبيرة جداً ومزدهرة لتجارة (الترانزيت) في حوض البحر الأحمر والموانئ المطلة عليه، وتنبع أهمية البحث من أهمية البحر الأحمر نفسه وحركة السلع والبضائع التي كانت تنقل أو تعبر عبر هذا الممر الحيوي الاستراتيجي المهم. وقد انتهج هذا البحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي بغية الوصول إلى نتائج من أهمها ازدهار التجارة في البحر الأحمر منذ أقدم العصور بصورة عامة وتجارة العبور على وجه الخصوص، تطور وسائل النقل البحري التي أسهمت بصورة مباشرة في تطور تجارة العبور في البحر الأحمر، إسهام تجارة العبور في نمو وتطور موانئ البحر الأحمر عبر العصور.

Abstract:

This research aims to identify trade transport (transit) in the Red Sea during the 13th century (H) / 19th century (G). This period witnessed a thriving trade (transit) movement in the Red Sea basin and its bordering seaports. The importance of this study springs from the significance of the Red Sea itself as well as the direction of the goods and merchandise moved or transported through this important, vital and strategic corridor during the period of the study. The research has followed a descriptive-analytical historical approach in order to arrive at the conclusions: the ancient flourishing trade through the Red Sea in general, and the use of transit specifically; the progress in marine transport had a direct impact on the development of trade transit in the Red Sea; and the influence of trade transit on the growth and development of the Red Sea ports through time.

المقدمة

ازدادت أهمية البحر الأحمر كممر مائي لعبور البضائع والمسافرين عبر موانئه تحت مسمى بتجارة العبور أو (الترانزيت) بين الشرق والغرب في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، حيث اختيرت تلك الفترة التاريخية - محل الدراسة - لكونها فترة مهمة ومفصلية في تاريخ البحر الأحمر نتيجة تطور تجارة العبور عبر موانئه لعوامل وأسباب عدة، لذا سوف يعمل هذا البحث على دراسة تلك الفترة من تاريخ البحر الأحمر من حيث مفهوم تجارة العبور أو (الترانزيت) وطبيعته في هذا البحر عبر موانئه، والعوامل المؤثرة في تطورها، إضافةً إلى العوائق والأضرار التي لحقت بها.

تطرق البحث لمفهوم تجارة العبور أو (الترانزيت) وطبيعته من حيث حركة البضائع ونقل المسافرين والحجاج خلال تلك الفترة، ودراسة العوامل المؤثرة في تطور تلك التجارة من حيث تطور وسائل النقل البحري، ونشاط موانئ البحر الأحمر، وتطبيق مبدأ حرية الملاحة والتجارة بعد فتح قناة السويس عام (1286هـ/1869م)، والتنافس الأوروبي للسيطرة على البحر الأحمر وتجارة العبور فيه، والعوائق والأضرار التي لحقت بتلك التجارة من حيث العوائق الطبيعية والجغرافية، وعدم الاهتمام بتطوير الموانئ، وتطبيق الحجر الصحي في البحر الأحمر، إلى جانب انتشار القرصنة البحرية، ومنع تجارة الرقيق وتهريب الأسلحة.

البحر الأحمر حوض شريطي الشكل⁽¹⁾، يفصل بين قارتي آسيا وإفريقيا، ويتصل بالبحر المتوسط عبر قناة السويس شمالاً، وبخليج عدن والمحيط الهندي عبر باب المندب جنوباً، وحوض البحر الأحمر يغطي مساحة تبلغ 178 ألف ميل مربع⁽²⁾، وهو حوض ضيق من المياه، يميل محوره في اتجاه شمال غرب إلى جنوب شرق، وعلى سواحل عدة موانئ مهمة، منها ما بقي على أهميته في العصر الحديث، فعلى الساحل الشرقي مثلاً: جدة، وينبع، والحديدة، أما على ساحله الغربي فتقع: السويس، وسواكن، ومصوع، وبورسودان⁽³⁾.

شكل البحر الأحمر منذ أقدم العصور عاملاً فعالاً لربط البلاد المحيطة به، فهو يعدّ شرياناً حيويّاً للمواصلات والتبادل التجاري والحضاري بين البلدان المحيطة به من جانب، وبينها وبين البلدان الأخرى من جانب آخر، فانتفع كل بلد بما يوجد لدى الآخر، مما ساعد ذلك على ازدهار الحالة الاقتصادية، وحينما تقدّمت الملاحة وبدأت المواصلات مع الهند والصين وبقية بلاد الشرق الأقصى ازدادت أهميته، حيث لم يقتصر دور البحر الأحمر على توصيل تجارة ومنتجات هذه المناطق إلى بلاد الشرق فحسب، بل أصبح هو الممر أو العبور التجاري لتمويل العالم الأوربي بكل ما يلزمه من منتجات الشرق عبر موانئه⁽⁴⁾.

تجارة العبور (الترانزيت) في البحر الأحمر خلال القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي: حركة البضائع ونقل المسافرين والحجاج :

يعرف مصطلح الترانزيت (Transit) بالعبور أو المرور⁽⁵⁾، وقد عُرف عن حوض البحر الأحمر بأنه منطقة العبور للبضائع والمسافرين عبر موانئه تحت مسمى بتجارة العبور أو (الترانزيت) بين الشرق والغرب، وهو نمط اقتصادي معروف قد ازدادت أهميته مع ازدياد أهمية البحر الأحمر في اجتياز البضائع العابرة خلال القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي لعوامل وأسباب عدة.

إذ شكّلت موانئ البحر الأحمر نقاط عبور للبضائع وإعادة توزيعها وتصديرها نحو مراكز أسواق جديدة، حيث تكفلت المراكب العربية وملاحوها بنقلها إلى تلك المراكز، فكان من ضمن الخدمات والوظائف المضافة التي كانت تؤمنها بعض الموانئ البحر الأحمر: تفريغ، شحن، تسعير البضائع، مقايضة⁽⁶⁾.

وعند دراسة حركة نقل البضائع والسلع عبر البحر الأحمر خلال تلك الفترة يجب التمييز بين تيارين: تيار البضائع المنقولة من الجنوب إلى الشمال وهي المواد الخام والأغذية لإطعام الشعوب الأوروبية. وتيار البضائع المنقولة من الشمال إلى الجنوب وهي مواد مصنوعة تُرسل إلى أسواق الشرق⁽⁷⁾، حيث تغادر السفن التجارية من أوروبا محملة بمختلف المصنوعات والمنسوجات، متجهة لأسواق الشرق، تمر في البحر الأحمر وتعود في الطريق نفسه محملة بمختلف المواد الخام⁽⁸⁾، وهذه نموذج للبضائع المنقولة عبر البحر الأحمر في اتجاه موانئ أوروبا عام (1251هـ/ 1841م) :

جدول رقم 1: نموذج من البضائع المنقولة عبر البحر الأحمر في اتجاه موانئ أوروبا عام (1251هـ/ 1841م)⁽⁹⁾

البضاعة	القيمة / ريال تركي	القيمة / فرنك فرنسي
مطاط عربي	600,000	130,000
بخور	700,000	175,000
فلفل	400,000	100,000
كاكاو	300,000	75,000
كركم	60,000	15,000
صدف لؤلؤ	300,000	75,000

البضاعة	القيمة / ريال تركي	القيمة / فرنك فرنسي
لؤلؤ دقيق	50.000	12.005
صدف	500.000	125.000
قصدير	450.000	112.000
ريش نعام	200.000	50.000
كشمير (نسيج)	700.000	175.000
ملاية (نسيج أزرق)	500.000	125.000
هيل (حب)	580.000	145.000
طمباك (نبات)	300.000	75.000
المجموع	5,640,000	1,410,000

يمثل هذا الجدول نموذجاً من البضائع التي كانت تصل إلى ميناء السويس عبر البحر الأحمر عام (1251هـ/1841م)، والتي كانت تتوجه إثر ذلك إلى أسواق القاهرة بشكل أساسي ليعاد توزيعها محلياً ونحو موانئ البحر الأبيض المتوسط، وعلى الرغم من تصدّر تجارة البن أو القهوة شبكة الصادرات من موانئ البحر الأحمر خلال تلك الفترة⁽¹⁰⁾، إلا أنها قد غابت في هذا الجدول لأن ولاية مصر قد احتكرت تجارتها، ومن ثمّ لم تكن تخضع فيما يبدو للرقابة الجمركية أو للاقتطاع الضريبي⁽¹¹⁾، فتصدّرت بدلا عنها بضائع أخرى كالبخور والكركم والكاكاو ومطاط العربي وصدف لؤلؤ والنسيج الكشميري وغيرها، وذلك بحسب قيمة الريال التركي والفرنك الفرنسي.

كذلك من خلال إحصائية الواردات والصادرات بين أوروبا والهند عبر البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي تبين على نمو التجارة بين الجانبين:

جدول رقم 2: الواردات والصادرات بين أوروبا والهند عبر قناة السويس في البحر الأحمر⁽¹²⁾

السنوات	الواردات بالمليون	الصادرات بالمليون	الإجمالي بالمليون
1869 – 1870 إلى 1873 – 1874	30، 1	51، 6	81، 7
1874 – 1875 إلى 1878 – 1879	33، 5	52، 8	86، 3
1879 – 1880 إلى 1883 – 1884	41، 3	64، 8	106، 1
1884 – 1885 إلى 1888 – 1889	45، 1	65، 1	110، 3
1889 – 1890 إلى 1893 – 1894	47، 7	70، 8	118، 5
1894 – 1895 إلى 1898 – 1899	43، 5	64، 8	108، 2
1899 – 1900 إلى 1903 – 1904	56، 5	83، 3	139، 7

وبحسب هذه البيانات من الجدول السابق فإن حجم الواردات والصادرات بين الهند وأوروبا⁽¹³⁾ قد ارتفعت بشكل ملحوظ منذ افتتاح قناة السويس عام (1286هـ / 1869م) ، نتيجة لعبور البضائع والسفن التجارية في طريق مختصر، كما ارتبطت المصالح التجارية الأوروبية بالهند والشرق الأقصى حيث المواد الخام ولتصدير مصنوعاتهما، وقد حقق ملاك السفن التجارية أرباحاً هائلة من خلال نقلهم للبضائع عبر البحر الأحمر وموانئه المهمة.

كما تمثل حركة نقل الركاب المسافرين عبر البحر الأحمر عنصراً مهماً في النشاط التجاري البحري وخاصة للحجاج الذين كانوا يسلكون طريقين في البحر حتى يصلوا إلى موانئ الحجاز، أولهما في جنوب البحر الأحمر وهو المدخل من باب المنذب إلى البحر الأحمر، وثانيهما في الشمال وهو المدخل من قناة السويس إلى البحر⁽¹⁴⁾. ومن خلال إحصائية حركة نقل المسافرين والحجاج في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي نجد أنها قد تفاوتت في أعدادهم لأسباب عديدة، غير أننا نجد أن أعداد السفن البخارية قد ازدادت في نقل المسافرين والحجاج عن السفن الشراعية في البحر الأحمر لسرعتها في الوصول إلى الموانئ⁽¹⁵⁾. وقد تكتفت دور البحرية الأوروبية والوكالات التجارية المالكة للخطوط الملاحية العاملة بين موانئ البحر الأحمر بنقل تجارة الترانزيت بين الشرق والغرب، كالسفن البريطانية والفرنسية والهولندية وغيرها، إلى جانب السفن المصرية التابعة للشركة المجيدية والشركة العزيرية المصرية، حيث بدأت منذ أواخر عام (1266هـ / 1850م) بتقوية التجارة والنقل بين ميناء السويس وموانئ البحر الأحمر خلال تلك الفترة⁽¹⁶⁾.

عوامل تطور تجارة العبور :

1. تطور وسائل النقل البحري:

لاشك أن اكتشاف البخار في أوروبا واستعماله في حركة السفن البخارية له الأثر الفعال في سرعة النقل وانسياب حركة البضائع والسلع المختلفة والتي كانت تحمل كثيراً من البضائع عبر سواحل البحر الأحمر، بدلا من السفن الشراعية بطيئة الحركة ذات الحمولة القليلة⁽¹⁷⁾. وبالتالي كان أهم تغيير في النقل البحري قد تمثل في استخدام السفن البخارية بعد عام (1255هـ / 1840م)، والتي كانت تملكها الدول الأوروبية أو شركاتها، مما نتج عنه التدهور في عدد السفن الشراعية المملوكة لأصحاب الأعمال في حوض البحر الأحمر⁽¹⁸⁾.

2. موانئ البحر الأحمر:

شهدت سواحل البحر الأحمر قيام موانئ عديدة كانت لها دور في تدعيم تجارة العبور أو (الترانزيت) بين الشرق والغرب خلال فترة الدراسة، من أهمها:

- ميناء جدة : تعدّ جدة الميناء الرئيس للحجاز على الساحل الشرقي للبحر الأحمر،

وتعتبر من أبرز الموانئ التي كانت تقوم بالاستيراد ثم إعادة التصدير، وهي التجارة المعروفة بـ (تجارة الترانزيت)، حيث كان خمس واردات جدة من مختلف البضائع والسلع يُعاد تصديره مرة أخرى عن طريق البحر إلى ميناء السويس وغيرها من موانئ البحر الأحمر، فكانت هذه التجارة تحقق أرباحاً طائلة وعلى أساسها دارت معظم الأنشطة التجارية في جدة⁽¹⁹⁾، ويعود السبب في ذلك إلى أن جدة لم تكن تعتبر نفسها ميناء الحجاز وحده، بل ميناء لكل من وادي النيل والجزيرة العربية والهند، وأنها معبر سهل بين الشرق والغرب للتبادل التجاري، وعليه فإن كل الصادرات هذه البلاد كانت تأخذ طريقها إلى أيدي تجار جدة ومن ثم تعيد تصديرها إلى موانئ أخرى⁽²⁰⁾. ولم تتوقف تلك التجارة على تبادل السلع والبضائع، بل شمل أيضاً قطاع خدمي جديد ظهر في ميناء جدة وغيرها من الموانئ الحجازية، وهو قطاع نقل الركاب الذي كان الأكثر حيوية في موانئ البحر الأحمر، ومن ثم تحولت تجارة إعادة التصدير في ميناء جدة إلى خدمات نقل مسافري البحار والحجاج- أي الترانزيت البشري - مع الهند وسنغافورة وجاوة وزنجبار وبقية موانئ المحيط الهندي⁽²¹⁾.

- **ميناء عدن:** ارتبط تاريخ عدن بتاريخ البحر الأحمر، الشريان المهم للمواصلات الدولية بين الشرق والغرب، فهي بحكم موقعها الاستراتيجي تسيطر على مدخله الجنوبي وتحكم فيه، لذا عرفت لدى الكثيرين بأنها جبل طارق الشرق (The Gibraltar of the East)⁽²²⁾. وهي تعتبر ميناء ومركزاً لتجارة العبور أو (الترانزيت) للبضائع القادمة من الشرق خلال فترة الدراسة، حيث اعتمدت تجارة عدن على التصدير وإعادة التصدير البضائع إلى داخل اليمن وخارجه، فكان من الأهداف الاقتصادية الطويلة المدى للاحتلال البريطاني لعدن عام (1254هـ/1839م) هو تحويلها كمركز تجاري للصادرات من اليمن ومن ثم إعادة تصديرها مرة أخرى، وبالتالي تتحول عدن إلى قناة تنساب من خلالها البضائع الشرقية داخل البلاد وإلى أسواق الدول المجاورة والبعيدة من قبل شركة الهند الشرقية والتي كانت ترعى المصالح البريطانية في البحر الأحمر⁽²³⁾.

- **ميناء السويس:** يعدّ الميناء الرئيس لولاية مصر على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وقد شهد هذا الميناء نشاطاً تجارياً ملحوظاً خلال فترة الدراسة، حيث كانت تصل إليه السفن التجارية من مينائي جدة وعدن، محملة بمختلف البضائع والسلع كالتوابل والعطور والعقاقير والأحجار الكريمة وغيرها، إلى جانب أنه ميناء العبور السنوي لقافلة الحج التي تضمّ حجاج مصر والمغرب العربي وأواسط أفريقيا إلى الأماكن المقدسة في الحجاز⁽²⁴⁾، وبالتالي لهذا الميناء أهمية خاصة خلال مواسم الحج وفي الترانزيت البشري في البحر الأحمر.

- **ميناء سواكن:** ميناء سوداني يقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر، ويبعد عن ميناء السويس بحوالي 720 ميلاً، وعن ميناء مصوع بحوالي 280 ميلاً، وعن جدة بحوالي

200 ميل، وكان لهذا الميناء دور كبير في خدمة الملاحة والتجارة خلال فترة الدراسة، حيث كانت لها أنشطتها التجارية مع الهند وموانئ البحر الأحمر الأخرى، ومركز ملائم لرسو السفن التجارية والقيام بعمليات الشحن والتفريغ من السفن بكل سهولة⁽²⁵⁾.

3. قناة السويس وتطبيق مبدأ حرية الملاحة والتجارة:

كان لافتتاح قناة السويس عام (1286هـ / 1869م) نتائج عدة على تجارة العبور في البحر الأحمر وعلى تطبيق مبدأ حرية الملاحة والتجارة فيه، وهي:

- وفرت طريقاً مباشراً بين الشرق مصدر الخامات والسوق الضخم، وأوروبا مركز المصنوعات وذلك بتقصير المسافات بينهما إلى أكثر من النصف، والذي أدى دوره إلى توفير ونقل البضائع في يسر وسهولة⁽²⁶⁾ عبر سواحل البحر الأحمر، مما جعله من الناحية الاقتصادية ممراً مهماً وميسراً للمحيط الهندي⁽²⁷⁾ ولتجارة الشرق ومن ثم إلى أوروبا.
- انتعاش حركة الملاحة وازدياد اعداد السفن البخارية في البحر الأحمر نزولاً وصعوداً تبعاً للأوضاع السياسية في المناطق المطلة عليه، التي أصبحت تستقبل أعداداً كثيرة من السفن التجارية وغيرها، فانتعشت تلك الموانئ وصارت تستقبل التجارة الأوروبية في رحلتي الذهاب والعودة⁽²⁸⁾.
- بافتتاح قناة السويس استطاعت أن تعيد الأهمية التجارية لدول البحر الأبيض المتوسط وموانئه لتصبح مراكز تجارية تستطيع استيراد السلع من مصادرها مباشرة دون اللجوء إلى الوسيط البريطاني وشركاته حيث كانت تقوم به قبل الافتتاح باستيراد البضائع من الشرق ثم تعيد تصديرها إلى أوروبا، إلا أن التجار الأوروبيون قد تمكنوا من الحد من السيطرة البريطانية على السلع الشرقية بعد افتتاح القناة، وأصبح بإمكانهم التعامل مع مصادر التجارة مباشرة دون الاستعانة بوسيط البريطاني⁽²⁹⁾، وبالتالي عودة طريق التجارة للبحر الأحمر مع افتتاح قناة السويس كان له الأثر الإيجابي في الدول الأوروبية بانخفاض القيمة الشرائية للسلع والبضائع القادمة من الشرق⁽³⁰⁾.
- تطبيق مبدأ حرية الملاحة والعبور عبر قناة السويس من خلال اتفاقية القسطنطينية عام (1306 هـ / 1888م) عام بين كل من الدولة العثمانية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا وغيرها من الدول الأوروبية، فكان من أهم بنودها حرية الملاحة في القناة، والاعتراف بسيادة مصر عليها، واحترام سلامة القناة، وحيادها في السلم والحرب لجميع السفن التجارية والحربية دون تمييز⁽³¹⁾.

4. التنافس الأوروبي في البحر الأحمر:

شهد البحر الأحمر منذ بداية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي تنافساً أوروبياً محمومًا للسيطرة عليه وعلى مداخله وموانئه المهمة⁽³²⁾، فقد كانت التجارة ومكاسبها هي المحرك الأساسي للصراع حول البحر الأحمر في تلك الفترة، والتي انتهت بتقسيم النفوذ فيما بينهم.

كانت بريطانيا قد أخذت نصيب الأكبر في تدعيم حضورها عسكرياً في البحر الأحمر، فقد احتلت ميناء عدن عام (1254هـ/1839م) وجعلتها قاعدة للتوسع في البحر الأحمر خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، حيث تمكنت من تدعيم نفوذها وحضورها في الجزر والموانئ اليمنية في الجزء الجنوبي من البحر، وبالتالي نالت شركة الهند الشرقية البريطانية مكانة ممتازة في المنطقة لرعاية المصالح البريطانية التجارية، بعدها احتلت بريطانيا مصر عام (1299هـ/1882م) وسيطرت على قناة السويس في شمال البحر الأحمر، بينما فرنسا قد اقتصرت نفوذها في جنوب البحر الأحمر بمستعمرة جيبوتي الصغيرة الواقعة على الطرف الغربي لمضيق باب المندب، حيث صدر مرسوم عام (1313هـ/ 1896م) بوضعها تحت إدارة خاصة عُرفت باسم (الصومال الفرنسي)، وأصبحت جيبوتي مقراً للحاكم الفرنسي العام في شرق إفريقيا. أما إيطاليا فقد احتلت مينائي عصب منذ عام (1287هـ/1870م) وميناء مصوع عام (1302هـ/1885م)⁽³³⁾ وهكذا كل هذه العوامل جعلت حوض البحر الأحمر وموانئه منطقة حركة وعبور التجاري بين الشرق والغرب خلال تلك الفترة.

العوائق والأضرار التي لحقت بتلك التجارة :

1. العوائق الطبيعية والجغرافية:

صعوبة حركة الملاحة في البحر الأحمر نظراً لكثرة الشعاب المرجانية على طول الساحل والصخور، حيث يزداد خطر الملاحة فيه نتيجة لانتشار هذه الشعاب تحت سطح الماء وقربية منه، مما حال دون إيجاد مراكز للملاحة تخدم حركة النقل في البحر، هذا بالإضافة إلى ارتفاع درجة الحرارة وزيادة الرطوبة فيه، والعواصف الفجائية التي تباغت الملاحين⁽³⁴⁾.

2. عدم الاهتمام بتطوير الموانئ وتزويدها بفنارات (منارات) ليهتدي بها البحارة :

بصفة خاصة عانت موانئ الحجاز من إهمال السلطات العثمانية من حيث سوء الأرصفة ومراسي السفن التي حالت بين وصول السفن البخارية الضخمة إلى الميناء، ووقوفها بعيداً عنها، واستخدام السنايك⁽³⁵⁾ والمراكب الشراعية والربابنة من أهل جدة لنقل البضائع والركاب، وفي ذلك يقول أحد الباحثين: «ومما يوجب الأسف هو الإهمال الذي شمل كل الموانئ الشرقية للبحر الأحمر، مما حرّمها من الثروات الطائلة»⁽³⁶⁾.

3. تطبيق نظام الحجر الصحي في سواحل البحر الأحمر:

أثار ظهور موجات لوباء الكوليرا (37) (Cholera) في الحجاز خلال مواسم الحج في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي قلقاً لدى

أوساط الدول الأوروبية، إذ اكتسب قضية الحجر الصحي في البحر الأحمر اهتمامًا كبيرًا من جانب هذه الدول وصارت أحد محاور سياستها، فكان من أهم قرارات المؤتمر الصحي الدولي الذي انعقد في إستانبول عام (1282 هـ/ 1866م) هو إنشاء حجر صحي كبير بجوار باب المندب الذي يعدّ بوابة البحر الأحمر من الجنوب، لفحص الحجاج قبل السماح لسفنهم بدخول مياه البحر، مع إقامة مراكز للحجر الصحي على طول ساحل الحجاز، وبالتالي وضعت الدولة العثمانية هذه القرارات بموضع التنفيذ⁽³⁸⁾، فكان من ضمن الأثر الاقتصادي التي تركته التدابير الصحية المعتمدة في الحجاز وفي سواحل البحر الأحمر هو إعاقة حركة مرور السفن، سواء كانت تجارية أو لنقل الحجاج، والتي لا شك أثار التذمر لدى أصحاب شركات السفن البخارية خلال تلك الفترة⁽³⁹⁾. على سبيل المثال في خريف عام (1293 هـ/ 1876م) اشتكت شركات الملاحة البخارية البريطانية إلى السلطات العليا في لندن من المعوقات الكبيرة التي تواجه سفنهم عند إبحارهم شرقًا باتجاه الهند، وغربًا إلى مداخل البحر الأحمر، بسبب اللوائح الصحية التي اقراها مجلسا الحجر الصحي بإستانبول والإسكندرية تجاههم، وهو عدم صلاحية جوازات الصحة التي أصدرت من قبل سلطات الميناء في بومباي للسفن المغادرة، مما أدى بالسلطات البريطانية في الهند إلى إعلان احتجاجها بدعم كامل لكل من وزير الهند، ووزير الشؤون الخارجية، ووزير الملكة الأولى في لندن على إجراءات مجالس الحجر الصحي الدولية الجائرة والتي تضرّ بالمصالح البريطانية العليا⁽⁴⁰⁾، إذ اعتمد ازدهار بريطانيا وقوتها على أسطولها التجاري وحرية التجارة والعبور في شتى أنحاء العالم.

4. تراجع تصدير البن اليمني :

يعود لبلاد اليمن فضل اكتشاف بذرة البن واتخاذها شرابًا بين الناس في أرجاء المعمورة، ولعل وصول العثمانيين إلى بلاد المشرق العربي، بما في ذلك بلاد اليمن، قد ساعد على انتشار القهوة وازدهار تجارة البن بين ولايات الدولة المترامية الأطراف، فقدره العثمانيين آنذاك على حماية طرق تجارتهم مكنت تجارة البن من أن تنتقل سريعًا بين الولايات، كما أن اتصالات العثمانيين بالدول الأوروبية سنحت لهذه السلعة أن تجد أسواقًا جديدة في القارة الأوروبية، وبالتالي فقد مرت تجارة البن اليمني منذ اكتشافه عام (854 هـ/ 1450م) تقريبًا بمراحل مختلفة من حيث الازدهار والتأثر والتأثير خلال تلك الفترة⁽⁴¹⁾، فقد زادت أهمية تجارة البن اليمني في كل من أوروبا وأمريكا، والذي أدت التجارة فيه إلى زيادة عدد السفن المارة في البحر الأحمر، حيث تأتي بالبضائع الأوروبية والأمريكية لتفرغها وتوزعها على موانئ البحر الأحمر، والتي تحملها القوافل إلى الحجاز لتوزع على باقي موانئ البحر

الأحمر، ثمّ تأخذ في طريق عودتها البن اليمني⁽⁴²⁾، وقد اعتبرت مينائي المخا اليمنية وجدة مركزاً رئيساً لتوزيع البن اليمني⁽⁴³⁾، غير أننا نجد قد تأثرت تجارة البن في جدة خلال تلك الفترة بظهور تجارة البن الهندي وتصديره من غرب الهند مباشرة إلى الموانئ العثمانية، بعد أن كانت جدة تعتمد اعتماداً شبه كلي على تجارة البن اليمني وتصديره إلى مناطق آسيا الصغرى وبلاد الشام⁽⁴⁴⁾، إلى جانب تراجع شهرة ميناء المخا في تصدير البن عبر موانئ البحر الأحمر من ثمّ إلى العالم نتيجة تغلغل النفوذ الأوروبي المستمر في مضاب الحبشة وتراجع النفوذ العثماني فيها وتراجع مكانة أسطولهم في البحر الأحمر مما دعم مكانة البن أو القهوة الحبشية وخاصة تلك التي كانت تنتج في إقليم هرار منذ القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، لكن ظلّ البحر الأحمر المر الذي تعبره هذه السلعة نحو موانئ البحر الأبيض المتوسط خلال تلك الفترة⁽⁴⁵⁾. ولم تكن زراعة البن خارج الجزيرة العربية المؤثّر الوحيد في تراجع تصدير البن اليمني، فقد أثّرت الأحداث السياسية في اليمن، ومحاولة العثمانيين إعادة حكمهم المباشر إليها، سلبياً في إنتاج البن وبيعه، بل إن انخفاض تصدير البن اليمني من جدة وإليها كان مرده إلى بيعه مباشرة إلى الوكلاء العثمانيين في الموانئ اليمنية، فنتيجة لذلك أصبح أغلب البن الوارد إلى الحجاز يأتي من الهند، والباقي القليل من اليمن⁽⁴⁶⁾.

5. انتشار القرصنة البحرية :

- انتشرت أعمال القرصنة⁽⁴⁷⁾ في البحر الأحمر والمحيط الهندي خلال تلك الفترة للسطو على السفن التجارية، وذلك يرجع لعدة أسباب:
- السبب الاقتصادي وهو احتكار الشركات الأوروبية للتجارة مع الهند ومنطقة جنوب شرق آسيا، مما ضيق الخناق على التجار الآخرين الذين كانوا يعملون كوسطاء، ويجنون من تلك المهنة الأرباح المناسبة، إذ أدى الاحتكار من جانب الشركات الكبرى إلى لجوء هؤلاء التجار إلى أعمال التهريب التي تطوّرت مع الوقت إلى أعمال القرصنة والنهب⁽⁴⁸⁾.
 - السبب السياسي وهو عدم استقرار أوضاع البلدان ونشوب الحروب في المنطقة، حيث ألحقت ضرراً برحلات البحر الأحمر التجارية والنقل خلال تلك الفترة، ولاسيما النزاعات بين المهديّة والقوات المصرية - البريطانية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي بالسودان⁽⁴⁹⁾.
 - غياب السلطة السياسية الشاملة ذات النفوذ الحقيقي والمتوازن في المنطقة على الرغم من الحضور العثماني هناك⁽⁵⁰⁾، إذ استمرت أعمال القرصنة في البحر الأحمر وصولاً إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر

الميلادي، فكان هذا الأمر مثار شكوى لدى السفير البريطاني بإستانبول الذي أبلغ حكومته بأن السلطات العثمانية في البحر الأحمر لم تتخذ أي إجراء حيال هجمات القرصنة في البحر الأحمر، وعلى الرغم من صدور قرارات سابقة لدى الحكومة العثمانية بضرورة اتخاذ الإجراءات لمنع هجمات القرصنة في البحر الأحمر، فإن الصدر الأعظم (51) قد أبلغ نظارة الداخلية في (22 رجب 1323هـ/ 22 سبتمبر 1905م) بضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة لمنع أعمال القرصنة في البحر الأحمر بأسرع وقت ممكن (52)، في ظلّ عدم وجود قوات عسكرية بحرية كافية لدى السلطات من أجل منع هجماتهم على السفن التجارية.

- أن القرصنة قد أصبحت مهنة للوصول إلى الثروة والقوة والنفوذ في ظلّ التفكك السياسي والممالك المتعددة على ضفتي البحر الأحمر خلال فترة الدراسة.

6. منع تجارة الرقيق:

تعدّ تجارة الرقيق من أهم مصادر الثروة في الممالك السودانية البعيدة عن البحر الأحمر، ومن أهم صادراتها إلى مصر والحجاز وغيرها من البلدان خلال تلك الفترة⁽⁵³⁾، وهي تجارة تحظى بالتأييد الديني والشعبي وتتوافق مع الشريعة الإسلامية، وعندما حاول الوالي العثماني كامل باشا⁽⁵⁴⁾ تنفيذ أوامر الحكومة المركزية في إستانبول بمنع تجارة الرقيق في الحجاز عام (1272هـ/ 1855م) لاقى معارضة كبيرة من الأطراف المحلية بحجة أن تجارة الرقيق ضرورية وجائزة دينياً⁽⁵⁵⁾، وبالتالي ظلّت تجارة الرقيق متواصلة بين ضفتي البحر الأحمر وموانئه، خاصة في جدة، وإن كانت تميل نحو الضمور والزوال⁽⁵⁶⁾. وقد ساعدت الأوضاع في مصر والسودان على التقليل من هذه التجارة بشكل ملحوظ، إذ نفذت اتفاقية عام (1294هـ/ 1877م) بين مصر وبريطانيا على منع تجارة الرقيق في أعالي البحار، حيث أعطت الاتفاقية الحق للسفن البريطانية باستعمال القوة لتفتيش أي سفينة مصرية مشتبهة بتهريب الأرقاء وترفض الوقوف⁽⁵⁷⁾.

7. منع تهريب الأسلحة:

تعدّ تجارة تهريب الأسلحة عبر البحر الأحمر من الأنشطة التجارية الممنوعة، وتخضع للقيود والضغط لوقفها، بهدف الحفاظ على الأمن والاستقرار في المنطقة، وقد كانت تجارة تهريب الأسلحة تذرّ أموالاً كثيرة للمهربين، حيث اتخذوها مهنة لهم يربحون أموالاً طائلة من تجارتها، فكانت وسيلتهم في نقل تلك الأسلحة السفن الأجنبية⁽⁵⁸⁾، وبالتالي حاولت السلطات العثمانية في البحر الأحمر إصدار عدة أوامر بخصوص منع تصدير الأسلحة عبر البحر الأحمر خلال تلك الفترة، ففي (24 شعبان 1312هـ/ 20 فبراير 1895م) أرسلت قيادة جدة البحرية إلى نظارة البحرية بإستانبول بوجود قارب بريطاني منذ فترة بالقرب من ميناء جدة، ولم تقم بإنزال الأسلحة، وبالتالي

لابدّ من الإسراع في إرسال إحدى السفن السلطانية إلى جدة، لأجل العمل على استتباب الأمن في المنطقة كما ينبغي، مع التعجيل في إصلاح ماكينة (السفينة القنفذة) الموجودة في جدة، لتشارك في استتباب الأمن على ساحل البحر الأحمر. وفي (12 رمضان / 9 مارس) من العام نفسه أصدرت نظارة البحرية أوامرها إلى السلطات العثمانية في البحر الأحمر بناءً على المعلومات التي وصلت إليها بأن إحدى القوارب البريطانية ستقوم بتهريب الأسلحة والذخائر عبر البحر الأحمر، وبالتالي أصدر السلطان العثماني أوامره بضرورة اتخاذ الإجراءات اللازمة لمصادرة تلك الأسلحة وعدم السماح بتكرار ذلك⁽⁵⁹⁾. وفي (8 محرم 1316هـ / 29 مايو 1898م) أرسلت السلطات في ميناء الحديدة اليمنية إلى نظارة الداخلية بإستانبول برقية بشأن الأسلحة الحديثة والممنوعة التي تدخل إلى ولاية اليمن بحرًا من السواحل الإفريقية، فردّت نظارة الداخلية في (14 محرم / 4 يونيو) من العام نفسه بضرورة التيقظ والحذر إزاء هذا الأمر، والعمل على التحقيق في هذه المسألة عن الجهة التي جاءت منه شحنة الأسلحة، وعن أي ميناء أدخلت إلى الولاية؟، وبواسطة من؟ ومن أرسلها؟ وأي طريق سُلكت؟، مع التنبيه على الموظفين والمسؤولين بضرورة التيقظ التام في هذا الشأن. وبحسب التحقيقات من جانب السلطات في ميناء السويس وبور سعيد والحديدة وعدن تبين أن الأسلحة قد أتت من أوروبا إلى مينائي عصب ومصوع الواقعين تحت الاحتلال الإيطالي، ومن هناك نُقلت بالقوارب إلى السواحل اليمنية، وكافة الأماكن التي لا يوجد بها أحد، بعدها استلمتها القبائل العربية الذين قاموا بإدخالها إلى الولاية⁽⁶⁰⁾ وبيعها للأهالي والعربان⁽⁶¹⁾.

الخاتمة

المتتبع لتاريخ البحر الأحمر يجد أن هذا الممر الحيوي الاستراتيجي قد لعب دوراً مهماً عبر العصور في خدمة التجارة المحلية، والإقليمية، والدولية. الأمر الذي أسهم في تنشيط حركة التبادل التجاري بين موانئ البحر الأحمر والموانئ في آسيا وأوروبا، كما أنه أسهم أيضاً في تطوير العلاقات الاجتماعية بين سكان حوض البحر الأحمر. ولأهمية البحر الأحمر الاقتصادية والاجتماعية والأمنية والاستراتيجية نجد أنه قد كان حاضراً في حركة التنافس الدولي من خلال محاولات القوى العظمى للسيطرة عليه. لكل ما سبق نجد أن هذا البحث قد عمل على توضيح بعض جوانب التجارة العابرة في البحر الأحمر ومدى أهميتها ومعوقاتهما خلال القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي.

النتائج:

خرج البحث بعدد من النتائج والتي من أهمها :

1. شكّلت موانئ البحر الأحمر خلال القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي نقاط عبور للبضائع وإعادة توزيعها وتصديرها نحو مراكز أسواق جديدة.
2. وضوح العوامل المؤثرة في تطور تجارة العبور خلال تلك الفترة من حيث تطور في

وسائل النقل البحري باستخدام السفن البخارية بدلاً عن السفن الشراعية البطيئة الحركة في البحر الأحمر.

3. نشاط موانئ البحر الأحمر في تدعيم تجارة العبور كميناء جدة وعدن والسويس وسواكن، إلى جانب فتح قناة السويس وتطبيق مبدأ حرية الملاحة والعبور عبرها من خلال اتفاقية القسطنطينية عام (1306هـ/ 1888م).

4. زيادة التنافس الأوروبي للسيطرة على أجزاء من هذا البحر، حيث كانت التجارة ومكاسبها هي المحرك الأساسي للصراع حول البحر الأحمر في تلك الفترة، والتي انتهت بتقسيم النفوذ فيما بينهم.

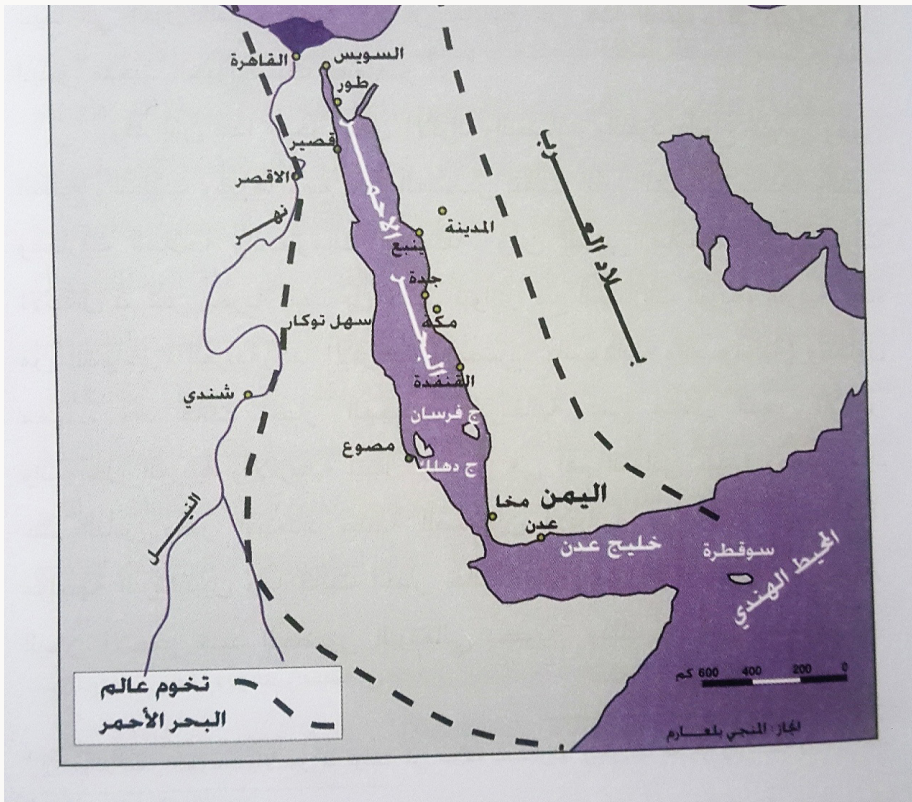
التوصيات:

توصي الدراسة بضرورة تناول تاريخ البحر الأحمر من ناحية تجارة تهريب الأسلحة والرقيق وانتشار القرصنة البحرية في العصور الحديثة كدراسة وثائقية تحليلية حول أسبابها وظروفها والآثار الناجمة عنها.

الملاحق

ملحق رقم (1)

خريطة الموقع الجغرافي للبحر الأحمر(*)



حركة نقل المسافرين والحجاج عبر البحر الأحمر خلال فترة الدراسة (١٩٩٠م)

السنة	مديون	حجاج ومهاجرون	مجموعة المسافرين على السفن البخارية	مجموع المسافرين على السفن الشراعية	المجموع
(1300هـ / 1883م)	36,149	31,529	115,597	3,579	119,179
(1301هـ / 1884م)	39,987	34,993	148,298	3,618	151,916
(1302هـ / 1885م)	47,068	42,478	201,771	4,178	205,949
(1303هـ / 1886م)	55,320	27,709	167,622	3,788	171,410
(1304هـ / 1887م)	53,414	33,405	178,785	4,211	182,996
(1305هـ / 1888م)	36,103	29,231	179,465	4,430	183,895
(1306هـ / 1889م)	72,192	27,868	175,505	5,087	180,598
(1307هـ / 1890م)	69,479	18,780	155,676	5,676	161,352
(1308هـ / 1891م)	73,562	20,784	188,126	6,347	194,473
(1309هـ / 1892م)	70,230	21,929	183,912	5,907	189,820
(1310هـ / 1893م)	67,262	41,290	180,432	6,066	186,498
(1311هـ / 1894م)	71,996	20,562	165,986	17	166,003
(1312هـ / 1895م)	74,878	23,423	216,936	4	216,940
(1313هـ / 1896م)	78,652	31,055	308,227	13	308,241
(1314هـ / 1897م)	83,833	14,743	191,512	9	191,224
(1315هـ / 1898م)	79,836	17,783	219,671	58	219,729
(1316هـ / 1899م)	88,616	24,179	221,347	1	221,384

المصادر والمراجع

- (1) انظر إلى ملحق رقم (1) ، خريطة الموقع الجغرافي للبحر الأحمر ، ص 61.
- (2) عادل عبد الله عبد الرحمن، بيئة البحر الأحمر ومشكلاتها، مجلة القلزم للدراسات الجغرافية والبيئية، العدد الثاني، نوفمبر (2020م)، ص 87 .
- (3) أمل أحمد النتيفي، تأثير افتتاح قناة السويس على الحجاز (1286 – 1333هـ/ 1869 – 1914م)، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، (1442هـ/ 2020م)، ص 6.
- (4) منال سالم الشيخ ، العلاقات بين شطري البحر الأحمر في الفترة من 1218 – 1256هـ/ 1803 – 1840 م، رسالة دكتوراه، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، (1440هـ/ 2018م)، ص 14؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني 1517 – 1798م، الدارة، المجلد السادس، العدد الثاني، يناير (1981م)، ص 90 .
- (5) الياس انطوان الياس وادوار ا. الياس ، قاموس الياس العصري انجليزي - عربي ، (بيروت : دار الجيل ، 1974 م)، الطبعة التاسعة عشرة، ص 745 .
- (6) المبروك محمد الباهي، عالم البحر الأحمر تاريخ عالم أكثر من بحر ، (جدة : مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز، 1439 هـ / 2018 م)، ص 16 .
- (7) ثريا حامد حسين دمنهوري، النشاط التجاري البحري البريطاني في البحر الأحمر 1869 – 1914 م / 1286 – 1333 هـ ، رسالة دكتوراه ، جامعة الملك عبد العزيز ، جدة، (1419هـ/ 1998م)، ص 98.
- (8) نبيل عبد الحي رضوان، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس (1286 – 1326 هـ / 1869 – 1908 م)، رسالة ماجستير ، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، (1401هـ/ 1981م)، ص 3 .
- (9) الباهي، مرجع سابق، ص 293.
- (10) ظلت تجارة البن أو القهوة في بداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي من أهم البضائع التي تعبر البحر الأحمر حتى ميناء السويس، وقد ارتبطت شهرة ميناء مخا اليمنية بتصدير البن خلال تلك الفترة، إذ يعدّ مخا ميناء البن أو القهوة في اليمن والبحر الأحمر بامتياز منذ القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، فقد طبقت شهرتها آفاق العالم العثماني والأوروبي والهندي ومنحت اسمها للقهوة العربية قبل أن تتحول التسمية إلى موكا (Mokha). انظر: الباهي ، مرجع سابق، ص 26 ، 280 .

- (11) الباهي، المرجع السابق ص 293 – 294 .
- (12) دمنهوري، مرجع سابق، ص 87 .
- (13) كان من أهم البضائع التي تصدّر من الهند إلى أوروبا هي القمح، حيث شاركت مينائي كلكتا وبومباي في تصدير القمح إلى أوروبا منذ عام (1293هـ/1876م)، ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري /التاسع عشر الميلادي أصبحت كلكتا أهم ميناء تصدير للقمح إلى أوروبا وكان نسبة ما صُدر منها مرورًا بالبحر الأحمر 53% من بين صادرات الهند، إضافةً إلى صادرات أخرى كالرز والشاي والبن .
انظر : المرجع السابق، ص 91.
- (14) جولدن صاري يلدن، الحجر الصحي في الحجاز ١٨٦٥ – ١٩١٤ م ، ترجمة: عبد الرازق بركات، مراجعة: سعد الشامان، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1422هـ/٢٠٠١م)، ص 95 .
- (15) انظر إلى ملحق رقم (2)، حركة نقل المسافرين والحجاج عبر البحر الأحمر خلال فترة الدراسة، ص 62.
- (16) مبارك محمد المعبدّي، النشاط التجاري لميناء جدة خلال الحكم العثماني الثاني 1256 هـ - 1840/1335 - 1916 م ، جدة : النادي الأدبي الثقافي ، 1413هـ/ 1993م)، ص 236.
- (17) المرجع سابق، ص 21 ، 259 .
- (18) وليم أوكسنولد، الدين والمجتمع والدولة في جزيرة العرب الحجاز تحت الحكم العثماني 1840 – 1908م، ترجمة: عبد الرحمن سعد العرابي، جدة: مركز النشر العلمي جامعة الملك عبدالعزيز، 1431هـ / 2010م) ص 158 .
- (19) عبد الله بن سراج عمر منسي، جدة في التاريخ الحديث (923 – 1344 هـ / 1517 – 1926م)، (الناشر المؤلف، 1436 هـ / 2015 م)، ص 154؛ محمد الشعفي، التجارة الخارجية لمدينة جدة في العهد العثماني 1840 / 1916 م، الرياض : دن، 1428هـ / 2007م)، ص 85 – 86 .
- (20) صابرة مؤمن إسماعيل، جدة خلال الفترة 1286 – 1326 هـ / 1869 – 1908م دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة ، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، 1418هـ)، ص 87 .
- (21) النتيقي، مرجع سابق ، ص 60 .
- (22) فاروق عثمان أباطة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839 – 1918م، (دم : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987 م) ، ص 23 .

- (23) حسين سعيد الملعي، تاريخ تطور النشاط التجاري الحر لميناء عدن للفترة 1850 - 1967م ، مجلة عدن للعلوم الاجتماعية والإنسانية، المجلد الثالث، العدد الخامس، يناير - يونيو (2000 م)، ص 142، 147.
- (24) طارق عبد العاطي غنيم بيومي، سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر 1226 - 1265 هـ / 1811 - 1848 م، (د.م : الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت)، ص 24 .
- (25) المرجع السابق، ص 27 .
- (26) دمنهوري، مرجع سابق، ص 83 .
- (27) أحمد حسين العقبي، التنافس الإنجليزي الفرنسي في شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، (الرياض: دار الملك عبد العزيز، 1430هـ)، ص 185 .
- (28) النتيقي، مرجع سابق، ص 37 .
- (29) دمنهوري، مرجع سابق، ص 103 .
- (30) رضوان، مرجع سابق، ص 84 .
- (31) هشام بن عبد الملك بن دهيش، موقف الدولة العثمانية من اتفاقية القسطنطينية للملاحة في قناة السويس وواقعها في القانون الدولي، المؤتمر الدولي الخامس بعنوان (العرب والترك عبر العصور) ، جامعة قناة السويس، (2013م)، ص 794 - 795 .
- (32) مما تجدر الإشارة إليه بأن التنافس الأوروبي في البحر الأحمر قد انطلق فعلا منذ بداية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، وقد سبقته مرحلة التسرب عن طريق الشركات الأوروبية التجارية ووكالاتها في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .
- (33) آمال ابراهيم محمد، الصراع الدولي حول البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، (صنعاء: مركز الدراسات والبحوث اليمني، 1413هـ/1993م)، ص 50 - 51 ، 157 ، 166 ، 181 .
- (34) بيومي ، مرجع سابق، ص 19 - 20 ؛ الباهي ، مرجع سابق، ص 134 .
- (35) السنابيك : مفردا سنبوك، وهي مراكب شراعية متوسطة الحجم، تحمل ما يزن مئة رطل فما فوق. انظر : النتيقي، مرجع سابق، ص 63.
- (36) داييل بن علي الخالدي، الإدارة العثمانية وأنظمتها في الحجاز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1293 - 1327 هـ / 1876 - 1909 م) ، (الرياض : دار الملك عبد العزيز، 1435هـ/2014م)، ص 424؛ النتيقي، مرجع سابق، ص 127.

- (37) الكوليرا (Cholera) : هو وباء معوي حاد وخطير، تظهر أعراضه فجأة بإسهال مائي حاد وغير مؤلم ، يتكرر لأكثر من (20) مرة يومياً، مصحبةً مع قيء بعد الإسهال، يفقد المريض بهذا القيء حوالي (5-7) لترات يومياً، وبالتالي جفاف سريع، وانهيار في الدورة الدموية مع تقلصات عضلية مؤلمة. وقد تحدث الوفاة خلال ساعات قليلة من بدء الوباء. وتعدّ ضمة أو ميكروب الواوي الشكل والسريع الحركة سبباً في تفشي الوباء. انظر: يوسف صلاح الدين يوسف ، الآثار المترتبة على الإصابة بالأمراض المعدية في المنظور الشرعي والطبي، (الأسكندرية : دار الفكر الجامعي ، 2008 م) ، ص 31.
- (38) يلدز ، مرجع سابق، ص 40 ، 47 ، 127 .
- (39) سهى سعود شعبان، الأوبئة والتدابير الصحية في ولاية الحجاز خلال مواسم الحج (1293 - 1327 هـ / 1876 - 1909 م) ، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، (1438هـ/2017م)، ص 136 .
- (40) Sheldon Watts. Cholera Politics in Britain in 1879: John Netten Radcliffe's Confidential Memo on «Quarantine in the Red Sea», The Journal of The Historical Society, No. 3, Vol. 7, September (2007), p291 , 324 .
- (41) هاني زامل عبد الإله مهنا، تجارة البن اليمني : دراسة في العلاقة بين الشؤون التجارية والسياسية في اليمن 854 هـ / 1450 م - 1337 هـ / 1918 م ، مجلة جامعة الملك عبد العزيز ، مجلد 11 ، (1421 هـ / 2001 م) ، ص 56 ، 58 ، 61 .
- (42) الشيخ ، مرجع سابق، ص 86 .
- (43) مهنا ، مرجع سابق، ص 62 .
- (44) النتيقي، مرجع سابق، ص 69 .
- (45) الباهي ، مرجع سابق، ص 24 - 25 .
- (46) النتيقي، مرجع سابق، ص 69 .
- (47) القرصنة: هم مجموعة من البحارة الخارجين عن القانون الذين يسطون على السفن في البحار والأنهار والمحيطات بغرض الاستيلاء عليها بما تحمله من بضائع ، وأحياناً ما كانت الدول تمنح هؤلاء البحارة تراخيص لمهاجمة سفن أعدائها، وبذلك تضيف قوة إلى أسطولها، غير أنه في كثير من الحالات كانت الدول لا تستطيع السيطرة على هؤلاء الأفراد الذين عادة ما يعملون لحسابهم الخاص، ويكونون عصابات أشبه بعصابات قطاع الطرق في البر. انظر : الشيخ ، مرجع سابق، ص 16 .

- (48) الشيخ ، مرجع سابق، ص 16 .
- (49) أوكسنولد، مرجع سابق، ص 152 .
- (50) الباهي، مرجع سابق، ص 95 – 96 .
- (51) الصدر الأعظم : هو الشخص الذي حاز منصب رئاسة الوزراء في الدولة العثمانية. وكان وكيلا للسلطان العثماني ، لديه صلاحيات في أمور الدولة ، ولديه ختم السلطان. لُقّب بالصدر العالي وصاحب الدولة، غير أن لقب الصدر الأعظم انتشر أكثر من غيره واستمر استخدامه إلى نهاية عصر الدولة العثمانية. انظر: سهيل صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 1421 هـ/2000م)، ص 143 – 144 .
- (52) الأرشيف العثماني – التصنيف 19 – DH MKT PRK 2662 ، عنوان الوثيقة: بخصوص طلب اتخاذ الإجراءات اللازمة والمناسبة لمنع القرصنة في البحر الأحمر، تاريخ الوثيقة: 22 / 07 / 1323 ، محفوظات دارة الملك عبد العزيز، رقم السجل: 182923 .
- (53) الباهي، مرجع سابق، ص 76 .
- (54) كامل باشا: الوالي العثماني في الحجاز في الفترة (1270هـ / 1853م) وحتى عام (1273هـ / 1856م). انظر : سهيل صابان، مداخل بعض الأعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني، (الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1425 هـ / 2004 م)، ص 168.
- (55) أوكسنولد، مرجع سابق، ص 189 .
- (56) الباهي، مرجع سابق، ص 76 .
- (57) أوكسنولد، مرجع سابق، ص 191 .
- (58) النتيقي، مرجع سابق، ص 51 .
- (59) الأرشيف العثماني – التصنيف 59 – Y.MTV 166 ، عنوان الوثيقة: الإجراءات اللازمة لمنع تهريب الأسلحة في البحر الأحمر، تاريخ الوثيقة : 21/09/1312، محفوظات دارة الملك عبد العزيز، رقم السجل: 18348.
- (60) من الواضح أن تجارة الأسلحة في البحر الأحمر يشترك فيها جميع الأطراف الأوروبية والمحلية، إذ بحسب ما ذكرته الوثيقة بأن شحنة الأسلحة قد أتت من أوروبا واتجهت

- إلى مينائي عصب ومصوع الواقعين تحت الاحتلال الايطالي بعدها انتقلت إلى السواحل اليمنية وإلى الأماكن الخالية التي لا يوجد بها المراكز الحكومية، وبالتالي لم تقم الإدارة الإيطالية في مينائي عصب ومصوع بشرق إفريقيا بما يلزم لمنع تجارة تهريب الأسلحة على عكس السلطات العثمانية في الساحل الغربي للبحر الأحمر.
- (61) الأرشيف العثماني – التصنيف 84 – 42 Y.PRK.UM، عنوان الوثيقة: بخصوص تهريب الأسلحة عبر بعض النوافذ في سواحل البحر الأحمر، تاريخ الوثيقة: 02/24 /1316، محفوظات دارة الملك عبد العزيز، رقم السجل: 36805 .
- (62) (*)الباهي ، مرجع سابق ، ص 3 .
- (63) (*)دمنهوري ، مرجع سابق، ص 97 .

الاستشراق (مراحله، وسائله، وأهدافه)

كلية الشريعة والقانون- جامعة دنقلا

د. شوقي عبد المجيد عبيدي

المستخلص:

الاستشراق، هو دراسة كافة البنى الثقافية للشرق من وجهة نظر غربي، وتستخدم كلمة الاستشراق، أيضاً لتدليل تقليد أو تصوير جانب من (الحضارات) الشرقية لدى الرواة والفنانين في الغرب. المعنى الأخير هو معنى مهمل ونادر استخدامه، والاستخدام الأغلب هو دراسة الشرق في العصر الاستعماري ما بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر. لذلك صارت كلمة الاستشراق، تدل على المفهوم السلبي وتنطوي على التفاسير المضرة والقديمة للحضارات الشرقية والناس الشرقيين. وجهة النظر هذه مبيّنة في كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق) المنشور سنة (1978). أن أهمية الموضوع تنبع من خلال معالجته لنماذج استشراقية في تناولهم وعبر مقارنتها بالرؤية الإسلامية؛ والتركيز للتصدي لعملية الاستلاب الفكري التي تتعرض له الأمة المسلمة وكذا التصدي لعملية الغزو الثقافي في المجال التاريخي. إن مشكلة البحث تتلخص في سؤال رئيسي يعقبه أسئلة فرعية علي النحو الآتي : ماذا نعني بالاستشراق؟ ماهي وسائله ومراحله وأهدافه أن المنهج الذي يتبعه الباحث في كتابة هذا البحث هو المنهج التحليلي والمقارن .

Abstract

Orientalism is the study of all the cultural structures of the East from a Western point of view . The most common use is the study of the East in the colonial era between the 18th and 19th centuries. Therefore, the word orientalism became indicative of the negative concept and involved the harmful and ancient interpretations of eastern. civilizations and eastern people .The topic stems from his treatment of orientalist models in their handling and by comparing them to the Islamic vision . The problem of research boils down to a major question followed by sub-questions as follows: What do we mean by orientalism? What are its means, stages and objectives that the approach taken by the researcher in writing this research is the analytical and comparative approach .

مقدمة :

تحتل الدراسات الاستشرافية حيزاً واسعاً في مجال الدراسات الإسلامية . ولهذه الدراسات أهميتها وثقلها العلمي في الدوائر العلمية، بحيث لا تكاد في الغالب تخلو دراسة علمية من الإشارة إليها . ولقد عملت هذه الدراسات منذ وقت مبكر على تشكيل العقل الغربي، وتحديد موقفه تجاه الإسلام، بحيث يمكن القول بأن الموقف الغربي العدائي تجاه الإسلام هو في نهاية المطاف موقف الاستشراق ، ذاته من الإسلام . يضاف إلي أن هذه الدراسات الاستشرافية عملت على تشكيل عقلية الصفوة العلمية في العالم الإسلامي من خلال الابتعاث للجامعات الغربية، مما أدى لاستمرار النسق المعرفي الاستشراقي. فضلاً عن أن ترجمة الدراسات الاستشرافية إلى العربية واللغات المحلية في العالم الإسلامي أحدثت تأثيراً فكرياً أدى في النهاية لإحداث انقسام في الشخصية المسلمة، نظراً لاهتزاز ثوابتها الدينية. عرف البعض الاستشراق ، بأنه ((ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي معبراً عن الخلفية الفكرية للصراع بينهما)). ومن الصعوبة بمكان وضع حد فاصل وواضح بين الاستشراق ، والتبشير والاستعمار ؛ إذ إن الاستشراق ، يمثل الوليد الطبيعي للثقافة التي تنتجها، فالمفكر إلى حد بعيد رهين بالثقافة التي ينشأ فيها وليس وليداً للموضوع المدروس أو المطروح، باعتباره صاحب الحق الأول في الاهتمام والدراسة. لذلك لا يستطيع أي مستشرق أن يتناول موضوعاته دون أن يخضع للقوالب والحدود الفكرية والعلمية المفروضة عليه مسبقاً، بسبب من ثقافته التي يصعب عليه الانفلات منها .

فالاستشراق هو دراسة كافة البنى الثقافية للشرق من وجهة نظر غربي، وتستخدم كلمة الاستشراق ، أيضاً لتدليل تقليد أو تصوير جانب من الحضارات الشرقية لدى الرواة والفنانين في الغرب. المعنى الأخير هو معنى مهمل ونادر استخدامه، والاستخدام الأغلب هو دراسة الشرق في العصر الاستعماري ما بين القرن الثامن عشر والتاسع عشر. لذلك صارت كلمة الاستشراق ، تدل على المفهوم السلبي وتنطوي على التفسير المضرة والقديمة للحضارات الشرقية والناس الشرقيين. وجهة النظر هذه مبينة في كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق) المنشور سنة (1978)

فضلاً أنها احدي محددات المؤتمر ؛ نجد ان الدراسات الاستشرافية كانت لها شهرتها في الدوائر الاكاديمية ؛ بحيث انها عملت علي تأهيل أجيال

عديدة من أبناء المسلمين وفق نسقها المعرفي ؛ الخاضع في نشأته وتطوره ومناهجه الي ما حدث في الغرب من تطور في العلوم ومناهجها ؛ فظهرت دراسات خطيرة وجدت لها موطئ قدم في مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي في العالم الإسلامي ومريدين ؛ لذلك فأن لهذه الدراسات ونقدها سيؤدي الي تحصين العقل المسلم في مجال يرتبط أشد الارتباط بعقيدته وهويته .

فتصويب الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء المستشرقين في تناولهم لمعطيات الدين الإسلامي وتفسير وقائعها والرد على أخطائهم ردا علميا وموضوعيا مقارنة بالرؤية الإسلامية بالإضافة لابرار ما أنطوت عليه دراسات بعض المستشرقين من تعصب ديني وعنصري كان أحد اسباب اختياري لهذا الموضوع .

تعريف الاستشراق ، :-

هناك من يرى أن الاستشراق ، هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي وكلمة مستشرق بالمعني العام تطلق على كل عالم غربي يشغل بدراسة الشرق أقصاه ووسطه وأدناه في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه ⁽¹⁾ الاستشراق، دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون من الدول الاستعمارية للشرق بشتي تاريخه وثقافته وأديانه ولغاته ونظمه الاجتماعية والسياسية وثرواته وإمكاناته من منطلق التفوق العنصري والثقافي بهدف السيطرة عليه لمصلحة الغرب وتبرير هذه السيطرة بدراسات وبحوث ونظريات تتظاهر بالعلمية⁽²⁾

من الباحثين من يرى أن مصطلح الاستشراق ، مصطلح غامض وفي غاية الإبهام لأن الشرق اصطلاح ابتدعه أوربا لكل أرض الشرق التي تقع وراء حدودها شرقاً إلى اليابان بيد أن هذا المصطلح بدأ يتزحزح عبر القرون في مفهومه العام والغامض على الشرق الأوسط فقط وما في هذا الشرق من أديان (عدا النصرانية لأن الفكر الأوربي لا يحب ربطها بالشرق) وثقافات وحضارات مختلفة، والباحث في أي فرع من فروع المعرفة التي تتعلق بقريب أو بعيد بهذا الشرق يسمى (مستشرق) بالرغم من رفض الكثير من هؤلاء لهذا المصطلح⁽³⁾

أيضا يراد بالاستشراق دراسة علوم الشرق أحواله وتاريخه ومعتقداته وبيئاته الطبيعية والعمرانية والبشرية ودراسة لغاته ولهجاته وطبائع الأمة الشخصية في كل مجتمع شرقي

ومن الكتاب من يرى أن الاستشراق ، قوة ضد الإسلام والمسلمين، منهم من يرى أن الاستشراق ، كهانة جديدة تلبس مسوح العلم والرهبانية في البحث العلمي وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلم والتجرد وجمهرة المستشرقين

مستأجرون لإهانة الإسلام والإفتراء عليه⁽⁴⁾ وهناك من يرى أن الفكر الاستشراقي يمثل قوة باغية من القوى المضادة للإسلام والمسلمين وينسحب هذا الفكر علي كل فكر غربي أو حتي شرقي غير إسلامي عرض لتراث الشرق الديني والحضاري وبخاصة الشرق الإسلامي بالدراسة والبحث⁽⁵⁾ إن كلمة الاستشراق ، أطلقت على الدراسات التي يقوم بها غير الشرقيين لعلوم الشرقيين ولغاتهم وأديانهم وتاريخهم وأوضاعهم الاجتماعية ونحو ذلك⁽⁶⁾

هذا استعراض لبعض التعريفات عن الاستشراق ، ولكن الاستشراق، في حقيقة الأمر يشتمل علي عناصر إيجابية وأخرى سلبية وعلينا الاعتراف للمستشرقين بما لهم من ايجابيات وفي المقابل من واجبنا أن ننبه إلى ما وقعوا فيه من أخطاء وما اشتملت عليه دراسات العديد منهم من أباطيل فيما يتعلق بالقرآن الكريم ونبينا محمد ﷺ.

نشأة الاستشراق ، ومراحله ووسائله

إن بدايات الاستشراق ، من الصعب تحديد فترة زمنية معينة، إذ إن البعض يعود به إلى أيام الدولة الإسلامية في الأندلس. في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين. ولكن من المتفق عليه أن الاستشراق ، اللاهوتي الرسمي قد بدأ وجوده حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي سنة 1312م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية.⁽⁷⁾ من أبرز المراحل التي يُقسَّم إليها الاستشراق ، ما ذهب إليه الدكتور المبروك المنصوري في كتابه «الدراسات الدينيّة المعاصرة من المركزيّة الغربيّة إلى النّسبيّة الثقافيّة: الاستشراق، القرآن، الهوية والقيم الدينيّة»، إذ قسّم الاستشراق ، إلى ثلاث مراحل أساسيّة هي: الاستشراق ، الاستعماري (colonial orientalism) ويشمل كل ما أنتج من بداية تشكل هذا التوجه مع الحركة الرومانسية الغربية إلى حوالي 1960م. ثم الاستشراق ، ما بعد الاستعمار (post colonial orientalism) وهو التوجه الذي تشكل في المرحلة ما بعد الاستعمارية، ويرتكز أساساً على الجانب الثقافي واللغوي وقد تلبس لبوساً جديداً. ثم الاستشراق ، الجديد (new orientalism) وهو التيار الذي تشكل في بداية هذا القرن، وقد دشنه كريستوف لكسنبرغ بكتابة القراءة السريانية الآرامية للقرآن.⁽⁸⁾ ويبدو أن الاستشراق ، قد قام في البداية على جهود فردية لم تكن ذات تأثير على مجرى التفكير الغربي، مما أدى إلى عدم اتخاذها نقطة بداية للاستشراق لدى بعض الباحثين. ومن ثم فإن اعتبار الحروب الصليبية- التي بدأت التعبئة لها في مجمع كيلرمونت سنة 1095م على عهد البابا أوربان الثاني ((1099-1088)) هي البداية الحقيقية للاستشراق ترجع في الأساس إلى أن الاستشراق ،

قد تبلور كتيار فكري عام، إذ أن الاحتكاك بالمسلمين يفرض على العالم الغربي المسيحي التعرف على العالم الإسلامي ودراسته. ولعل طبيعة المرحلة الصليبية بكل ما لها من ذيول في عقول الأوربيين، قد أدت إلى إفراز بنية عدائية المنهج في تعاملها مع الإسلام، جرد المستشرقين من الموضوعية والأمانة العلمية، وبحيث استمرت هذه الدراسات تغذي الأجيال اللاحقة من المستشرقين.⁽⁹⁾

وسائل الاستشراق ، :-⁽¹⁰⁾

1. إصدار المجلات المتخصصة
2. إصدار الموسوعات الإسلامية بعدة لغات
3. نشر المقالات في الصحف والمجلات العربية
4. اكتساب عضوية مجامع اللغة العربية
5. إلقاء المحاضرات
6. تطبيع الفكر الاستشراقي وذلك من خلال إيجاد كوادر محلية تتبنى الأطروحات الإستشراقية حيث يتم تعليم هذه الكوادر علي أيدي المستشرقين في الجامعات المحلية أو أقسام الدراسات الإسلامية والعربية في الجامعات الغربية

أهداف الاستشراق

واقع الحال الآن شاهد على ما فعله الاستشراق ، في العالم الإسلامي، إذ تعددت دول العالم الإسلامي وتعددت وحداته السياسية بعد أن كانت دولة واحدة من طنجا غربا إلى جاكرتا شرقا . لذا نجد أن أخطر أهداف على الأمة الإسلامية تحويل المسلمين عن دينهم ووحدتهم وتقطيع أوصال جماعتهم الإنسانية الكبرى إلى وحدات صغرى متقاطعة ومتنافرة يجافي بعضها بعضا وتقاتل بعضها

إن أهداف الاستشراق ، متعددة ومتداخلة ولكن أهمها الدافع الاقتصادي ومنها الدافع الاستعماري ومنها الدافع الديني ثم الدافع العلمي والدافع السياسي ونجملها في الآتي⁽¹¹⁾

أولا : الأهداف السياسية والاستعمارية

عمل الاستعمار على تعزيز موقف الاستشراق، واستفاد الاستعمار كثيرا من التراث الاستشراقي، وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة كبيرة من المستشرقين لخدمة أغراضه، وتحقيق أهدافه، وتمكين سلطانه في البلدان المستعمرة، وهكذا نشأت رابطة وثيقة بين الاستشراق ، والاستعمار. وعمل بعض المستشرقين كمستشارين لوزارات خارجية دولهم وكقناصل وتجسسوا على المسلمين ولقد كانت هناك علاقة وثيقة بين رجال السياسة والمستشرقين إذ كان رجال السياسة

يرجعون إليهم قبل اتخاذ قراراتهم المهمة في الشؤون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية. وكان بعض المستشرقين يؤسس صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية، ويتخذ من هذه الصلات ستارا يقوم من ورائه بأعمال التجسس في أثناء الحرب. ومهما يكن من أمر فقد كان التراث الاستشراقي بمثابة الدليل للاستعمار لفرض سيطرته علي الشرق. ولعل واقع الممارسات الاستشراقية في العالم الإسلامي يوضح الي حد بعيد ضلوع الاستشراق ، في خدمة المخططات الاستعمارية، إذ عمل الاستشراق ، على إحياء النزعات العصبية، وعمل علي إثارة الخلافات المذهبية والفقهية لأجل إثارة الفتن بين المسلمين لخدمة المخططات الاستعمارية وبحيث يؤدي في خاتمة المطاف الى إضعاف العالم الإسلامي وتكبيله بقيود التبعية للعالم الغربي، مما أدى الى أن يشوه الاستشراق ، للشخصية المسلمة أمام نفسها وأمام العالم الغربي .

غير أن بعض الباحثين المسلمين يرى أن من قصر النظر والفهم اعتبار الاستشراق ، مرتبطا بالاستعمار والتبشير، لأنك لا تكاد تجد بحثا عن الاستشراق، لا يرجع الاستشراق ، الى الاستعمار والتنصير والمكر والصراع، وما شابه ذلك من كلمات تخرجه عن المنهج العلمي، الذي يدعيه المؤلف، ويرجوه القارئ، وكأن الاستعمار والتنصير⁽¹²⁾ والمكر لم يكن لها وجود قبل ظهور الإسلام، أو كأن الاستشراق ، لا عمل له ولا هدف سوى الكيد للإسلام، فترادف في مفهومنا مصطلح الاستشراق ، مع الكفر والعداء والصهيونية والماسونية. هذا الفهم القاصر للاستشراق سهل لنا تعليق كل أسباب انحطاطنا وتخلفنا علي هذا المشجب متعدد الألوان، وحدد لنا مسبقا أساليب بحثنا فيه، والتي أبعدت كثيرا من الأبحاث عن الموضوعية العلمية ... إن من ينكر علاقة الاستشراق ، بكل ما ينسب إليه في كتاباتنا، الإستعمار والتنصير في مقدمتها يرتكب خطأ لا شك فيه، ولكن من يقصر الاستشراق ، علي كونه مساعدا للاستعمار والتنصير لا يقل خطأه عن الأول . فالاستشراق وإن كان قد نشأ بالفعل في أحضان الكنيسة، وكان الكيد للإسلام أهم أهدافه، إلا أن هذه النشأة الأولى قد فقدت كثيرا من تأثيرها علي تطور هذا العلم، حتى أنه قد وصل هذا التأثير إلى مرحلة في غاية الضآلة .⁽¹³⁾

ومهما يكن من أمر فلا يمكن إنكار تأثير البيئة والمحيط الثقافي علي المستشرقين، وهذه البيئة وذلك المحيط الثقافي يتسم بالعداء للإسلام، فلا يستطيع المستشرق - مهما بذل من حيادية وموضوعية - أن يجد فكاكا أو تحولا عن ما ورثه من آبائه .

ثانيا : الأهداف الدينية

إن مراجعة قائمة أسماء أعلام المستشرقين تجعل من السهل إدراك الرؤية الكنسية للإستشراق وأهمية الدافع الديني له، إذ أن هؤلاء الأعلام هم في الأساس من آباء الكنيسة وتلامذتهم، فأدى هذا إلى أن تظل الرؤية الاستشراقية ثابتة من حيث (الكيف) رغم تطورهما من حيث (الكم) . وعلي الرغم من أن الاستشراق ، قد بدأ يتخفف في القرن الثامن عشر الميلادي من ضغط الكنيسة، إلا أن صورة الإسلام المشوهة بفعل الاستشراق ، اللاهوتي لم تتغير في أذهان الغربيين حتي الآن . وإذا كان الهدف الديني لم يعد ظاهرا الآن في الكتابات الإستشراقية، فليس معني ذلك أنه قد إختفي تماما، إنه لا يزال يعمل من وراء ستار، لانه من الصعب على معظم المستشرقين النصاري المشتغلين بدراسة الإسلام _ وأكثرهم متدينون _ أن ينسوا أنهم يدرسون دينا ينكر عقائد أساسية في النصرانية ويهاجمها ويفندها، مثل عقيدة التثليث، وعقيدة الصلب والفداء. كما أنه من الصعب عليهم أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها . لذلك فإن فهم الاستشراق ، لا يتم إلا من خلال فهم جذوره الكنسية وبيئة المستشرق _ التي هي في الأساس مسيحية _ وإسقاطاتها على وعيه .⁽¹⁴⁾ لقد برز الاستشراق ، منذ البداية بقصد إيقاف التأثير الإسلامي في العالم الغربي، ثم تطور ليخدم مشروع تنصير المسلمين . ولقد كان هدف الاستشراق ، منذ نشأته خدمة الكنيسة والاستعمار . وحسبما يرى بعض الباحثين فإن الاستشراق ، قد بدأ بنشاط الرهبان في مجال الترجمة، حيث توجهت البعثات العلمية إلى الأندلس وتمت ترجمة القرآن إلى اللاتينية، فكان لا بد من معرفة الإسلام معرفة جيدة لمحاربته محاربة جيدة على مستوى العقيدة، وانكب المفسرون المسيحيون علي ترجمة القرآن ودراسته من أجل نقده ⁽¹⁵⁾

وإمتد النفوذ الكنسي علي الاستشراق ، حتي وصل إلى المعاهد العلمية. فمثلا قرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبيرج عام 1636م نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجاري، والآخر تنصيري . ونتيجة لهذا التأثير الكنسي على الباحثين المستشرقين، فإن دوافعهم تظل غير بريئة . وكانت الكنيسة ذاتها تشعر بمرارة حقيقية تجاه المد الإسلامي حتى استولى المسلمون الأتراك على القسطنطينية وجعلوها عاصمة الامبراطورية البيزنطية عام 1453م، لذلك لم يكن غريبا أن تشن الكنيسة علي الإسلام حروب دينية إنتقامية فكانت الحروب الصليبية المشهورة، وحملات الإسترداد المسيحي في أسبانيا والتي انتهت بطرد آخر حكام بني نصر من قشتالة عام 1492م .

وأما علي الجانب الفكري فقد اتخذت الكنيسة من الاستشراق ، أداة للطعن في الإسلام، فجاءت المحصلة النهائية للاستشراق وليدة كراهية شديدة للإسلام.⁽¹⁶⁾

ثالثا: الأهداف العلمية

قليل من المستشرقين أقبلوا على الدراسات الاستشراقية بدافع من حب العلم والاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافتها ولغاتها فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم، بل منهم من اهتم بدراسته للإسلام وآمن برسالته . وهؤلاء لا يجدون إلا حين يكون لديهم من الموارد المالية الخاصة ما يمكنهم من الانصراف إلى الاستشراق ، بأمانة وإخلاص، لأن أبحاثهم المجردة عن الهوى لا تلقى رواجاً لا عند رجال الدين ولا عند رجال السياسة ولا عند الباحثين لذلك فهي لا تدر عليهم مكاسب ومغانم وطبيعي أن يندر وجود هذه الفئة في أوساط الحركة الاستشراقية⁽¹⁷⁾

رابعا: الأهداف الاقتصادية

من الأهداف والدوافع الاقتصادية التي أغرت المستشرقين علي الدراسات الاستشراقية رغبتهم بغزو البلاد الإسلامية غزوا اقتصاديا هدفهم الاستيلاء على الثروات الأرضية واستغلال الموارد الطبيعية وعلي الأسواق التجارية لتكون بلاد المسلمين بلاد استهلاك لما تنتجه المصانع الغربية من السلع الأولية التي حصلوا عليها من غزو هذه البلاد .⁽¹⁸⁾ :الرؤية الإستشراقية تجاه النبي (ﷺ) ودعوته باتت هذه الرؤية الاستشراقية تجاه نبينا الكريم في الأندلس منذ أحتكاك المسلمين بالمسيحيين، ومنها تطورت، في البداية كانت الرؤية عدائية وكان هذا التطور في الشكل دون الفهم للإسلام ومضمونه ، وقد أخذت الدعاية الكبرى في العصور الوسطى تعمل على تثبيت فكرة العدو الأكبر في الأذهان، حتى إذا ما حل القرن الحادي عشر كانت للأفكار الخرافية المتعلقة بالإسلام والمسلمين تأثير يؤسف له، منها اتهام النبي في العصور الوسطى بالخداع وعدم الوفاء والأوهام والأباطيل حالت زمنا طويلا دون درس مصادر الإسلام في أوروبا دراسة علمية حتي جاء القرن التاسع عشر والقرن العشرين حيث تناول فيها عدد من علماء الغرب بحوثهم عن النبي والإسلام، كانت أبحاثهم وكتبهم عامل هدم حيث غالى بعضهم في نقد الإسلام.⁽¹⁹⁾

تكاد الرؤى الإستشراقية علي مر العصور تتفق علي أن الإسلام تركيب ملفق من المسيحية واليهودية والمجوسية، هذا إذا كان المستشرق يحاول أن يظهر حياديته ونزاهته العلمية أنثال وات وبروكلمان . أما إذا انساق المستشرق وراء عواطفه أو المؤثرات الضاغطة على وعيه (وهم كثر) فإنه حينها لا يكتب دراسة علمية جادة عن الإسلام، وإنما يكتب سبابا لا داعي لسردها⁽²⁰⁾ فالمستشرق حينما يكتب عن الإسلام أو النبي فإنه لا يكتب ليثبت الحقيقة، وإنما يكتب

لإثبات أشياء آمن بها سلفاً . إذ إن المستشرق اللاهوتي مثلاً الذي لا يؤمن إلا بالمسيحية، يجعل من هذه المسيحية مرتكزاً يتوكأ عليه لدراسة الإسلام، فإذا وجد تشابهاً اتخذ دليلًا على اقتباس الإسلام لأفكاره من المسيحية، بدلاً من أن يكون التشابه دليلًا على صدق الإسلام ذاته . لذا نجد أن الفكرة المسبقة التي يؤمن بها المستشرق في موضوع دراسة الأديان هي أن الإسلام مجرد تلفيقات خليطة من المسيحية واليهودية وغيرها من الأديان⁽²¹⁾ وحينما تمرد مفكرو أوروبا على الكنيسة، حاولوا أن يطبقوا نفس المناهج المادية والعلمانية وغيرها من المناهج في دراستهم للإسلام، دون وضع اعتبار لاختلاف ظروف الزمان والمكان واختلاف العوامل البيئية والاجتماعية والسياسية، مما أدى في النهاية إلى أن تأتي المحصلة النهائية للاستشراق ضعيفة بل ومخطئة⁽²²⁾

نخرج بنتيجة مفادها أن علماء المسلمين قديماً وحديثاً يتحملون إلى حد ما قدراً من المسؤولية في بروز الانحراف الاستشراقي واستمراريته، ولعل ما يوضح مسؤولية علماء المسلمين في العصر الحاضر في استمرارية الخلل الاستشراقي في مجال الدراسات الإسلامية أنهم تركوا الساحة الفكرية للمستشرقين يدرسون في جامعات العالم الإسلامي، ويجمعون المخطوطات العربية، ويحققونها ثم ينشرونها، بل ويكتبون تاريخ الأدب العربي، ودائرة المعارف الإسلامية والمعاجم . وبمعنى آخر

فإن الفكر الاستشراقي بعد أن شكل العقلية الغربية، وحدد موقفها تجاه الإسلام (وهو موقف عدائي) يتجه بالآليات لتشكيل العقل المسلم ذاته، ليحدد موقفه هو الآخر تجاه الإسلام من خلال توطين الاستشراق ، في العالم الإسلامي⁽²³⁾.

ولقد بدأ توطين الاستشراق ، بالفعل في العالم الإسلامي منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ولا أخال أن تسمية المنطقة بالشرق الأوسط، ومشروع الشرق الأوسط الكبير، والربيع العربي، وصفقة القرن وخلافه الي إحدى نتائج الدراسات الاستشراقية .⁽²⁴⁾

الخاتمة :

نختم بأن البحث يسلط الضوء على الدراسات الاستشراقية، وبيان موقفها من الإسلام، وبيان نقاط الالتقاء والاختلاف بين تلك الدراسات والإسلام فكرياً وتشريعياً وعقيدةً وسلوكاً و الوقوف على طرق وأهداف تأثير المستشرقين في تكوين الرأي العام الغربي عن الدين الإسلامي والشعوب الإسلامية. و إبراز عناية المستشرقين بمخطوطات التراث الإسلامي وجمعها ودراستها دراسة توضح مدى تأثير الكتابات الاستشراقية بلغاتها الأصلية في تشكيل الرأي العام الغربي عن الإسلام و المسلمين سلباً وإيجاباً . إن الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون في تناولهم لمعطيات الدين الإسلامي والكيفية التي نما بها الانحراف الاستشراقي في الوقت الذي كان فيه للإسلام وجود فاعل في الساحة الأوروبية حتى أن استمر الطرح الاستشراقي حتى وقتنا الحاضر. وختمت البحث بطائفة من النتائج والتوصيات والمراجع.

النتائج

1. إنَّ الذين جاءوا لدراسة الشرق كانوا أفراداً متفاوتين، فمنهم من جاء بلباس عسكري أو غير عسكري، أو بصفة أطباء أو معلّمين، لكنّهم في حقيقة الأمر قساوسة كان هدفهم التنصير بالدين المسيحي، وكانوا يتردّدون بكثرة على لبنان وسورية ومصر. ظلّت حركة الاستشراق، موضع شكّ لدى الكثير، وبسبب هذا الغموض انقسم الناس نحوها إلى فريقين: الأول: ينظر إلى المستشرقين بعين الاحترام. والثاني: ينظر إليه على العكس من ذلك، لأنّه كان من بينهم أناس مهّدوا للاستعمار الغربي، وكانوا أداة لتسلّط الغرب على الشرق، كما لا يخفى أنّ منهم جماعة دفعهم شوق التعرّف على الشرق وأسراره، وتحملوا في سبيل ذلك كثيراً من الصعوبات والمشاق. وعلى أيّ حال مهما كانت الأغراض والدوافع التي دفعت للاستشراق، فإنّ الاستشراق، شيء، والمستشرقين شيء آخر يعتبر الاستشراق، حديث الظهور إلّا أنّ معرفة الشرق وما يتعلّق به من أفكار فذلك يعود إلى الأزمان الغابرة، ويؤيّد ذلك ما عثر عليه في التنقيبات من النقوش الأثرية على الأحجار، ثمّ تلت ذلك حركة الاستشراق ، في القرون الوسطى، لتؤكّد ذلك من خلال الوقائع التاريخية والنصوص الجغرافية، وكتب الأسفار وغيرها
3. الاستشراق ، حلقة من حلقات الحرب ضد الإسلام
4. تكمن خطورة المؤسسات الاستشراقية في أنّها تعمل عمل السوس لهدم روح وكيان المجتمع الإسلامي، وهي تحاول أن تفسد الأفكار الإسلامية واستبدالها بالأفكار الغربية بغية تغريب المجتمع الإسلامي فكرياً وثقافياً وتفرغ المجتمع الإسلامي من أهم مقوماته الفكرية، وعندما تهزم أفكار المجتمع الإسلامي ويظل المجتمع الإسلامي يزهد في أفكاره، فبالتالي عدم الوحدة الفكرية يؤدي إلى عدم الوحدة العضوية التي هي روح المسلمين.

التوصيات

1. سيظل المستشرقون يؤثرون علي مجري التفكير الغربي في تعامله مع الإسلام والمسلمين من خلال فرض مناهجه ونسقه المعرفي ونوصي الانتباه والجاهزية للمؤسسات الإسلامية من ناحية التفكير والمناهج والنسق المعرفي
2. نوصي بوحدة المسلمين العضوية لأنها هي الحماية الوحيدة لهم ضد أي هجمات استعمارية أو امبريالية أو استشراقية
3. إن الاستشراق، ما كان ليظهر وينمو لولا عجز المسلمين أنفسهم عن الوصول إلي العقل الغربي ومحاولة تشكيله وفق النسق المعرفي الإسلامي الصحيح، أو علي أسوأ الفروض تحييد موقفه تجاه الإسلام .
4. يقع العبء الأكبر في التصدي لمخططات الاستشراق، على أقسام الدراسات الإسلامية بالجامعات وعلى المفكرين الإسلاميين، ولن يتأتى ذلك إلّا من خلال الاهتمام بالاستشراق ذاته، والاهتمام باللغات الأجنبية والترجمات باعتبارها وسيلة الاتصال المهمة.
5. علي وزارات التعليم العالي في الدول العربية والإسلامية وعبر أقسام الدراسات الإسلامية في جامعاتها علاج قصور مناهجها في التعليم وعليها أن ترتفع إلى مستوى التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية وإلا ستظل هذه الأمة في حالة التبعية والارتهان للآخرين

المصادر والمراجع:

- (1) د.محمود حمدي زقزوق، الاستشراق ، والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985، ص 18
- (2) د. أحمد غراب، رؤية إسلامية للاستشراق،المنتدي الإسلامي لندن1411هـ، ص 25
- (3) الشيخ محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مزاعم المستشرقين، دار الإهرام، 1395هـ، ص 21
- (4) د. محمد الدسوقي، الفكر الاستشراقي، ط1، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، 1995م، ص 36
- (5) د. عبد الرحمن حسن حبنكة، أجنحة المكر الثلاثة، ط2، دار القلم، دمشق، 1980م، ص 83
- (6) الدكتور المبروك المنصوري، الدراسات الدينية المعاصرة من المركزية الغربية الى النسبية الثقافية، دار النشر، القاهرة، 2008م، ص 29
- (7) عبد محمد الأمين النعيم، الاستشراق ، في السيرة النبوية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، 1997م، 23
- (8) د.محمد موسي البر، التنصير،الاستشراق، الاستعمار والصهيونية العالمية،مطابع السودان للعملة،الخرطوم، بدون ،ص200
- (9) عبد الله محمد الأمين النعيم، مرجع سابق، ص26
- (10) عبد الله محمد الأمين النعيم، المرجع السابق، ص21
- (11) إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب ،مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981م، ص 146
- (12) دكتور عبد العظيم الديب، المنهج في كتاب الغربيين عن التاريخ الإسلامي ،مطابع مؤسسة الخليج،قطر، 1411م ص 32
- (13) جوستاف لوبون، اليهود في تاريخ الحضارات الأولى، ترجمة عادل زعيتر، الطبعة الأولى، دار طيبة للطباعة، مكتبة النافذة، القاهرة، 2009م .
- (14) دكتور جعفر شيخ إدريس، نبوة محمد في منهج مونتغمري، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1998م، ص 34
- (15) دكتور عماد الدين خليل، منهج مونتغمري وات في دراسة السيرة، دار الفكر، 2006م، ص 27
- (16) دكتور عبد الهادي أبوريد، تعليقات علي آراء فلهاوزن، دار الشروق، 2008م، ص 19
- (17) الشيخ حسن حامد، موقف الإسلام من الوثنية واليهودية والنصرانية، معهد الإنماء العربي بيروت 1986م، ص 11
- (18) د. محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة، دار الفكر، القاهرة، 1978م، ص 42

- (19) محمد أبوزهرة، أصول الفقه، دار الفكر، القاهرة، بدون تاريخ، ص 34
- (20) 20- دكتور عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، دار القلم، الكويت، 1986م، ص 18
- (21) دكتور يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع السنة النبوية، المعهد العالي للفكر الإسلامي، 1990م، ص 39
- (22) دكتور عبد الحليم محمود، أوربا والإسلام، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ، ص 56
- (23) عبد الكريم علي الباز، إفتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان علي التاريخ الإسلامي، رسالة ماجستير لجامعة أم القري، ص 72
- (24) عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي، مطبعة دار نشر الثقافة، الإسكندرية، 1949م، ص 102
- (25) محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، الإدارة العامة للثقافة بالأزهر، 1981م، ص 16
- (26) د. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مجلد 3، دار العلم، بيروت، 1975م، ص 69

قراءة موجزة في الحالة السياسية للمخلاف السليمانى

(1185 - 1215 هـ / 1771 - 1801 م)

باحثة

أ. هدى بنت علي يحيى أبو عتار

المستخلص:

تهدف الدراسة إلى القاء الضوء على الحالة السياسية للمخلاف السليمانى من عام 1185-1215 هـ حتى عام 1771-1801 م، وتتمثل مشكلة الدراسة في مدى تأثير الأسرة الخيرية والدعوة السلفية على الحالة السياسية في المخلاف السليمانى، وتكمن أهميتها في توثيق مرحلة مهمة في التاريخ السياسي للمنطقة، اتبعت هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي للوصول لنتائج علمية، ولعل من أهم ماتوصلت إليه من نتائج هو أن الدعوة السلفية كان لها بالغ الأثر في زيادة انقسام المخلاف السليمانى سياسيا بشكل عام وتغيير مسار الحكم في الأسرة الخيرية نفسها بشكل خاص .

Abstract:

This study aims to shed light on the political situation of the Sulaymani succession from 1185-1215 AH until 1771-1801 CE, and the problem of the study is the extent of the influence of the charitable family and the Salafi call on the political situation in the Sulaymani dispute, and its importance lies in documenting an important stage in the political history of the region, This study followed the historical and analytical method to reach scientific results, and perhaps one of the most important results it reached was that the Salafi call had a great impact in increasing the political division of the Sulaymani dispute in general and changing the path of governance in the charitable family itself in particular.

المقدمة:

يحتل المخلاف السليمانى موقعا مهما في تاريخ جنوب غرب الجزيرة العربية، وذلك لأسباب جغرافية واقتصادية وسياسية. سمي المخلاف السليمانى بهذا الاسم نسبة إلى سليمان بن طرف الحكمي الذي تمكن من توحيد مخلافي حكم وعثر في القرن الرابع الهجري

الموافق العاشر الميلادي، ومارس سلطته بعيداً عن نفوذ الحكم الزيدي في اليمن، وحكم خلال عشرين عاماً إمارة مستقلة ممتدة من وادي مور⁽¹⁾ في الجنوب إلى حلي ابن يعقوب في الشمال⁽²⁾.

من الناحية الجغرافية: فمنطقة المخلاف السليماني تشغل المنطقة الساحلية الواقعة بين خطي عرض $2/161^\circ$ ، $6/173^\circ$ وخط الطول 42هـ، $2/431$ هـ، ويحده شمالاً وادي حلي ابن يعقوب وجبال عسير⁽³⁾، وجنوباً الحدود السعودية اليمنية حالياً (وقديماً شرجة⁽⁴⁾ حرص⁽⁵⁾) وشرقاً جبال السروات وغرباً البحر الأحمر، ويمكن القول: إنه كان يشغل المنطقة الجنوبية الغربية من المملكة العربية السعودية التي تعرف حالياً باسم منطقة (جازان)⁽⁶⁾. ومن الناحية الاقتصادية: المخلاف يعتبر من أكثر مناطق الجزيرة العربية خصوبة في الأرض، ووفرة في المياه، وكثافة في السكان، أما من الناحية السياسية فهو يمثل حاجزاً سياسياً بين قوتين رئيسيتين في الجزيرة العربية، هما الأشراف في الحجاز والأئمة الزيدية في اليمن، إلا أنه كان يمثل وحدة سياسية مستقلة وإن تأثرت كغيرها بالأحداث السياسية شمالاً وجنوباً، خاصة أنه يمثل معبراً أساسياً للقوات الغازية لليمن، البرية والبحرية على حد سواء⁽⁷⁾.

الحالة السياسية للمخلاف السليماني قبيل فترة الدراسة:

إن الأوضاع السياسية التي مرت بها المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية، أثرت تأثيراً كبيراً على المخلاف السليماني وعلى مسار الحكم فيه.

فاليمن كانت رهينة للصراع بين مدعي الإمامة، وظلت كذلك فترة زمنية طويلة من عام 1097-1110هـ / 1685-1698م، إلى أن وصل إلى سدة الحكم المهدي محمد بن الحسن، إلا أنه واجه كثيراً من المعارضة من مدعي الإمامة، ولم تستقر الأمور في اليمن إلا بعد أن تسلم الحكم المنصور حسين القاسم في سنة 1139هـ / 1726م⁽⁸⁾.

بينما كانت اليمن لتخوض العديد من الصراعات بين الأئمة، كان المخلاف السليماني خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، والسادس عشر والسابع عشر الميلاديين، يتمزق إلى عدة قوى محلية، مثل الخواجيين⁽⁹⁾ في صبيا⁽¹⁰⁾ وما جاورها، والقطبيين⁽¹¹⁾ في منطقة بني الحارث⁽¹²⁾، أما بقية المخلاف فقد كان يخضع لسيطرة الأعيان المحليين⁽¹³⁾.

ظهور الأسرة الخيراتية وأثرها على سياسة المخلاف السليماني:

يرجع تاريخ الأسرة الخيراتية إلى الشريف خيرات بن شبير بن بشير بن أبي نمي والذي تعددت الروايات في ذكر اسباب خروجه من مكة إلى

المخلاف، فتذكر الرواية الأولى إن خروجه من مكة كان «بسبب الخلاف الحاصل بين الشريف المذكور وبنو عمه ذوي بركات على الرئاسة، فخرج بعض ذوي زيد على خارج مكة و وبعضهم إلى الطائف، وخرج الشريف المذكور وجميع أهله وأولاده و بعض المسائرين له في طريقه إلى المخلاف»⁽¹⁴⁾.

وتذكر الرواية الثانية أن سبب خروجه من مكة: «إن لما رأى انطماس المذهب الزيدى بمكة وعدول كثير من أشرافها عنه لا لترجيح علمي بل لغرض في الأغلب دنيوي، فأنف من مساكنهم على ذلك وخرج إلى اليمن»⁽¹⁵⁾.

وتذكر الرواية الثالثة أن سبب خروجه من مكة يعود إلى أن الشريف خيرات كان «يتوق إلى تأسيس إمارة لنفسه في المخلاف»⁽¹⁶⁾.

ولكن الراجح من الروايات السابقة الرواية الأولى وهي أكثر قبولاً لما أجمعت عليه من المصادر التاريخية من استثناء الصراع بين أشراف مكة على الإمارة في تلك الفترة، مما دفع الكثير منهم إلى مغادرة مكة إلى البلدان المجاورة⁽¹⁷⁾، فكان الشريف خيرات ضحية للتطاحن المير الذي حصل من أجل السلطة في مكة، بالإضافة إلى أسباب دينية وإن كانت سبباً غير مباشر في قرار الهجرة من مكة، وبذلك تضافرت العوامل السياسية والدينية معاً للتأثير على الشريف في اتخاذ قرار الهجرة من مكة إلى اليمن. ونتيجة لكل ما سبق فقد لجأ الشريف خيرات إلى اليمن في عهد الإمام الزيدى المتوكل إسماعيل 1108-1053هـ/1696-1643م⁽¹⁸⁾.

ولقد قام الإمام المتوكل إسماعيل⁽¹⁹⁾ بإكرام الشريف خيرات، حيث أستقبله بكل حفاوة وتقدير، ثم عاد الشريف خيرات إلى أبي عريش واتخذها دار إقامة، وكانت له مشاركة في الأدب، وتضلّع في العربية، فانتفع بالتعليم على يد جماعة من أهل المدينة، حتى أدركته الوفاة، ولم تذكر مصادر تاريخ المخلاف التي أطلعت عليها سنة وفاته⁽²⁰⁾.

كان الشريف خيرات يتطلع إلى تأسيس إمارة لنفسه في المخلاف، مستغلاً الظروف التي كان يمر بها المخلاف السليمانى، فأخذ في التمهيد لنفسه بالتقرب لوجهاء المخلاف، وتوثيق صلاته بإمام اليمن، ورغم ذلك كله لم يستطع الوصول إلى هدفه، إلا أننا نستطيع أن نقول: إن الشريف خيرات وضع أساسيات الحكم لأسرته، فقد اتضحت معالم تحركاته الدبلوماسية التي كان يتبعها مع كبار أسر المخلاف ومع إمام اليمن في عهد حفيده محمد بن أحمد بن خيرات، الذي استطاع أن يصبح الحاكم الفعلي لأبي عريش⁽²¹⁾.

فقد كانت الأوضاع متردية في أبي عريش بسبب غياب حاكم قوي يمسك بزمام الأمور، الأمر الذي دفع الأعيان والتجار المقيمين في أبي عريش

إلى مناقشة هذا الوضع، وخرجوا بنتيجة وهي اختيار الشريف أحمد بن محمد حاكماً للمنطقة وراسلوا حاكم اللحية⁽²²⁾ الذي تتبعه المنطقة فوافق على اختيارهم للشريف أحمد بن محمد، ومن هنا بدأت أسرة آل خيرات حكمها للمخلاف السليماني الذي استمر قرابة قرن من الزمان⁽²³⁾.

لم يزل الشريف أحمد بن محمد على القيام بعماله حتى أدركته الوفاة في عام 1154هـ/1741م⁽²⁴⁾.

تولى الإمارة بعد وفاته ابنه الشريف محمد بن أحمد والذي تميز عهده بكثير من الاضطرابات والاحتجاجات من السكان؛ وذلك بسبب سوء إدارته واستغلاله لموارد السكان الاقتصادية، خاصة أثناء صراعه مع كثير من قبائل المخلاف؛ وذلك لسد الديون الخاصة بقبائل يام⁽²⁵⁾ التي كان يستعين بها لتحقيق أهدافه السياسية ضد معارضيه، لاسيما ضد آل القطبي الذين كانوا من أشد المنافسين له في المنطقة⁽²⁶⁾.

وفي 27 من ذي الحجة عام 1184هـ/1770م توفي الشريف محمد بن أحمد⁽²⁷⁾.

وبعد وفاته كادت الفتنة أن تثور بين أولاده بسبب وصيته إلى ابنه حيدر الذي عارضه أخوه الشريف أحمد، ثم حصل الاتفاق بين الأولاد، وقام بالأمر الشريف أحمد بن محمد لولاية البلاد.

وقد دخل المخلاف السليماني حقبة سيئة في ظل الصراع الذي نشأ بين أبناء الشريف محمد بن أحمد على الإمارة، حيث تولاها بعضهم مرتين أو ثلاث مرات، وذلك على النحو التالي⁽²⁸⁾:

- أحمد بن محمد، وتولاها ثلاث مرات (1185هـ/1771م، 1190هـ/1776م، 1193هـ/1779م).
- يحيى بن محمد، وتولاها أربع مرات (1192هـ/1178م، 1198هـ/1784م، 1200هـ/1786م، 1204هـ/1790م).
- علي بن محمد، تولاها ثلاث مرات (1191هـ/1777م، 1193هـ/1879م، 1199هـ/1785م).
- حيدر بن محمد، تولاها مرة واحدة (1186هـ/1772م).

ولم تستقر الأوضاع نسبياً في المخلاف السليماني إلا بعد أن اتفقوا على أن يتولى الإمارة أكبرهم سناً، وهو الشريف يحيى بن محمد، وكان ذلك عام 1204هـ/1790م، وقد استمر حاكماً للمخلاف حتى عزل عنها سنة 1214هـ/1800م، وأسندت إلى الشريف علي بن حيدر⁽²⁹⁾.

فالمأمل في الأحداث التاريخية للمخلاف السليماني يدرك تماماً مدى

التخبط الذي كان يعيشه أمراء المخلاف؛ نتيجة للصراع الذي نشأ بينهم في الفترة الزمنية الممتدة من عام 1185هـ/1771م إلى عام 1214هـ/1800م. وفي ظل هذا الصراع فقد ذاق أهل المخلاف الأمرين؛ وذلك لتدخل عناصر خارجية، متمثلة في عدد من القبائل، كان أهمها قبائل يأم التي كان لتدخلها دور كبير في الأحداث السياسية للمخلاف، حيث كان بعض أمراء آل خيرات يستعينون بهم ضد بعضهم البعض، وذلك لتوطيد نفوذهم عن غيرهم من الأمراء؛ لكن قبائل يأم جعلت من المخلاف مسرحا لسلب ونهب أموال وخيرات أهالي المخلاف، والتي كانت تحصدتها منهم غصبا، إذ تعذر على الأشراف دفعها لهم، فما كان من أهالي المخلاف إلا أن هبوا للدفاع عن أنفسهم وحملوا السلاح، ووقفوا في وجه قبائل يأم في ظل عجز الأشراف آل خيرات عن ردع هذه القبائل وحماية أهالي المخلاف من هجماتهم المتكررة على المخلاف⁽³⁰⁾. وفي هذه الفترة العصيبة التي كان يمر بها المخلاف السليماني كانت مدينة صيبا من أكثر مدن المخلاف استقرارا؛ وذلك يعود لسببين:

- ابتعاد عاملها الشريف ناصر بن محمد⁽³¹⁾ عن الصراعات التي كانت قائمة بين أسرته.

- الحنكة السياسية التي تمتعت بها شخصية الشريف ناصر بن محمد. فبفضل تدبيره وحزمه للأمور استطاع أن يحتفظ باستقلال مدينة صيبا حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، على الرغم من محاولات بعض الخصوم للسيطرة على مدينة صيبا، كالأشراف آل الخواجي الذين حاولوا استرداد حكمهم في ظل صراع الأشراف آل خيرات، لكن لم يتم لهم مرادهم، وذلك يعود لعاملها الشريف ناصر الذي تنحى عن الإمارة فيما بعد لابنه الشريف منصور بن ناصر⁽³²⁾ ليكون أميرا عليها⁽³³⁾. أثر الدعوة السلفية على الحالة السياسية في المخلاف السليماني:

وفي أثناء كل ما سلف كانت أخبار الدعوة السلفية قد وصلت إلى مسامع أبناء عسير، فهاجر من عسير محمد بن عامر المعروف بأبي نقطة⁽³⁴⁾ وأخوه عبد الوهاب⁽³⁵⁾، من آل المتحمي من قبيلة ربيعة ورفيدة، إلى الدرعية رغبة⁽³⁶⁾ منهما في الأخذ عن مبادئ الدعوة السلفية، فما كان من الإمام عبد العزيز بن محمد⁽³⁷⁾، إلا أن أرسل سرية بقيادة ربيع بن زيد⁽³⁸⁾ أمير وادي الدواسر، ورافقه محمد بن عامر وأخوه عبد الوهاب، وما أن أنتصف عام 1215هـ/1801م حتى دخل أهل عسير السراة في طاعة السعوديين وموالاتهم⁽³⁹⁾. ولقد تزامن ظهور الدعوة السلفية ووصولها إلى المنطقة مع فترة حكم الشريف علي بن حيدر وذلك عام 1215هـ/1801م.

من المعروف أن أصداء الدعوة السلفية قد وصلت إلى معظم أنحاء شبه الجزيرة العربية، خاصة بعد خروج الدعوة من نجد وبداية صراعها مع الأمراء الآخرين، كالأشراف في الحجاز وبنو خالد في الأحساء، وبذلك أصبحت الدرعية تستقطب كثيرا من أبناء المناطق المختلفة الذين يريدون الرجوع بالتوحيد إلى سيرته الأولى، مثل ما فعل الأخوين محمد وعبد الوهاب أبو نقطة⁽⁴⁰⁾.

ولما كان المخلاف السليماني في ذلك الوقت يعتبر نقطة التقاء ليس جغرافي وعقدي، فقد كان من السهل تسريب الدعوة السلفية إليه، فقد وصلت إلى مسامع أبناء المخلاف الذين سمعوا بتعاليمها ومبادئها وما تدعو إليه من الرجوع إلى سلك التوحيد والطاعة، فخرج من المخلاف شخصيتان كانتا لهما الأثر الكبير في نشر الدعوة الإصلاحية في المخلاف وهما: أحمد بن حسين الفلقي⁽⁴¹⁾ أحد أشراف آل الخواجي في صبيا، وعرار بن شار الشعبي⁽⁴²⁾ شيخ قبائل بني شعبة، وذلك في مطلع القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، وذلك للوقوف على حقيقة هذا الأمر⁽⁴³⁾، وبعد معرفة حقيقة هذه الدعوة دخلوا فيها، وصاروا من أكبر دعائها في منطقة المخلاف السليماني. إلا أننا نستطيع أن نقول: أن من آثار الدعوة السلفية على المخلاف،

الصراع الذي حدث بين الأمير الشريف علي بن حيدر وعمه الشريف حمود أبو مسمار⁽⁴⁴⁾، حيث استعان الأول بالثاني على أنصار الدعوة السلفية من أبناء المخلاف، ولكن الشريف حمود أبو مسمار استطاع أن ينتهز فرصة ظهوره وانتصاراته التي حققها في معركة الحجريين⁽⁴⁵⁾ عام 1214هـ / 1800م - والتي دارت بين الأمير الشريف علي بن حيدر وأنصار الدعوة السلفية والتفاف آل خيرات حوله، واستطاع أن يستأثر بالحكم لنفسه عام 1215هـ / 1801م وذلك بعد أن تنازل له ابن أخيه الشريف علي بن حيدر عن الإمارة بعد أن استمر الصراع أكثر من ثمانية أشهر⁽⁴⁶⁾، ورفع الأشراف بعد ذلك بما تم من اختيار الشريف حمود أميرا عليهم إلى إمام اليمن المنصور علي⁽⁴⁷⁾، فأرسل إليهم الإمام مرسوما يقضي بتولية الشريف حمود أبو مسمار أميرا على ما تحت يده من مدن المخلاف السليماني⁽⁴⁸⁾.

وبتولي الشريف حمود للإمارة، أصبح الوضع السياسي في المخلاف كالاتي⁽⁴⁹⁾:

- من ضمد⁽⁵⁰⁾ وجنوبا تحت سلطة الشريف حمود أبو مسمار.
- وادي صبيا تحت سلطة الأمير منصور بن ناصر.
- من صبيا شمالا وغربا إلى بيش، تحت سلطة أحمد بن حسين الفلقي ماعدا قرية الملحا⁽⁵¹⁾ فإنها عائدة لصبيا.
- من بيش⁽⁵²⁾ شمالا إلى رجال ألمع⁽⁵³⁾ تحت سلطة عرار بن شار.

الخاتمة:

من خلال دراسة أوضاع المخلاف السليماني يمكن القول بأن المخلاف عاش فترة متخبطة جدا من الناحية السياسية، فقد كان منقسما إلى عدة قوى محلية، ومما زاد ذلك الانقسام أو التفكك دخول بعض أشرف المخلاف في الدعوة السلفية مثل أحمد الفلقي وعرار بن شارو أصبحوا أتباع للدعوة والدولة السعودية الأولى.

نتائج الدراسة:

1. شكل أنصار الدعوة السلفية تهديدا مباشرا للأسرة الخيرية في المخلاف السليماني.
2. كان من تأثير دخول بعض أشراق المخلاف في الدعوة السلفية وانضمامهم للدولة السعودية الأولى أن أنقسم المخلاف إلى مؤيد ومعارض للدعوة؛ ونتيجة لذلك دخل المعارضين للدعوة في صراع مع أتباعها مما كان له بالغ الأثر في تغيير مسار الحكم بين أبناء الأسرة الخيرية نفسها، إذ كان للانتصارات التي حققها حمود أبومسمار على أتباع الدعوة السلفية في معركة الحجرين عام 1215هـ/1801م أثرا كبيرا في وصوله لسدة الحكم في المخلاف السليماني بعد أن أنقسم المخلاف تحت حكمه وحكم منصور بن ناصر المعارضين للدعوة وحكم أحمد الفلقي وعرار بن شار دعاة الدعوة في المخلاف السليماني.
3. يتضح لنا من مراسلة الأشراف لإمام اليمن بعد اختيارهم الشريف حمود أميرا عليهم أن المخلاف السليماني كان تابعا لإمام اليمن في تلك الفترة، وإن كان أتباعا اسميا، فلو كان غير ذلك لاکتفى الأشراف آل خيرات بالاتفاق على قرارهم دون الرجوع لأي سيادة خارجية.

التوصيات:

1. ضرورة الاهتمام بالبحث في تاريخ المخلاف السليماني خاصة في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، والسادس عشر والسابع عشر الميلاديين فهذه من الفترات الزمنية التي اتسمت بالغموض ونُدرة المصادر .
2. ضرورة مساهمة المكتبات الخاصة الموجودة لدى الأسر العلمية في منطقة جازان في اخراج المخطوطات والوثائق والكتب النادرة لحيز الوجود حتى يتمكن الباحثين من تقديم بحث تاريخي بصورة متكاملة يسهم في حفظ تاريخ وتراث المنطقة.

المصادر والمراجع

- (1) وادي مور: من أكبر أودية اليمن وأعظمها، وقد اهتمت الحكومة اليمنية بالاستفادة من مائه. علي حسين الصميلي: العلاقة بين أمراء أبي عريش وأمراء عسير في القرن الثالث عشر الهجري، (د.ط، د.م، 9141هـ)، ص421.
- (2) حلي ابن يعقوب: سمي حلي ابن يعقوب نسبة إلى ابن يعقوب الذي كان يديره ويتأسسه، ويقع على بعد 06 كيلو جنوب القنفذة. حمد الجاسر: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، (د.ط، دار اليمامة، الرياض، المملكة العربية السعودية، 7791م)، ص274.
- (3) جبال عسير: يطلق اسم عسير على مجموعة جبال شامخة مترامية الأطراف، تتخلها أودية وشعاب وعرة المسالك ملتوية المآتي، يحدها شمالا بلاد بللحمر ومحائل، وجنوبا بلاد قحطان ودرب بني شعبة، وشرقا بلاد شهران، وغربا ساحل البحر الأحمر، تقدر مساحتها حوالي 033 كم. هاشم بن سعيد النعيمي: تاريخ عسير في الماضي والحاضر، (د.ط، د.م، د.ت.)، ص51.
- (4) الشرجة: مدينة أثرية موقعها في ساحل الموسم في حدود المملكة العربية السعودية الجنوبية على ساحل البحر الأحمر. محمد بن أحمد العقيلي: المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، مقاطعة جازان المخلاف السليماني، ج1، (د.ط، دار اليمامة، الرياض، المملكة العربية السعودية، 9831م - 6991م)، ص421.
- (5) حرص: بلدة يمنية تقع في تهامة اليمن، سميت حرص نسبة إلى حرص بن خولان. محمد علي الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج2، (د.ط، دار المعرفة، بيروت، د.ت.)، ص723.
- (6) العقيلي: المعجم الجغرافي، ج1، ص41.
- (7) الحسن بن أحمد عاكش: الديباج الخسرواني في أخبار وأعيان المخلاف السليماني المسمى الذهب المسبوك فيمن ظهر في المخلاف السليماني من الملوك، تحقيق إسماعيل بن محمد البشري، (د.ط، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 4241هـ، مقدمة المحقق)، ص52.
- (8) عاكش: الديباج الخسرواني، مقدمة المحقق، ص62.
- (9) الخواجيين: من الأسر المشهورة في المخلاف السليماني، آلت إليها إمارة المخلاف بعد أبناء عمومتهم الأشراف الذروات في بداية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وأول من تولى الأمر من هذه الأسرة على صبيا وتوابعها هو الشريف عيسى بن حسين بن عيسى بن أبي القاسم الخواجي عام 139هـ والذي استمرت ولايته عشرين عاما، وكانت قاعدة إمارتهم مدينة صبيا، وقد احتفظ الخواجيون بإمارة صبيا حتى

تمكن الشريف محمد بن محمد الخيراتي من إخضاعهم لنفوذه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي. علي محمد أبو الخير المعافا: العقود الذهبية في ذكر أمراء وبعض أعيان الأشراف السليمانيين في الحجاز وجنوب غرب الجزيرة العربية، (ط1، د.م، 1341هـ/0102م)، ص991-691.

(10) صبيا: مدينة تقع في شمال شرقي جازان، وهي مدينة داخلية، وتعد من أهم المراكز التجارية في المنطقة. عاتق البلادي: بين مكة واليمن، (ط2، دار اليمامة، الرياض، 5041هـ/5891م)، ص062.

(11) القطبيين: من الأشراف السليمانيين الذين حكموا المخلاف السليماني، وينتهي نسبهم إلى أبي الطيب داود بن عبد الرحمن أبي الفاتك عبد الله بن داود بن سليمان، وأول من تولى إمارة المخلاف من هذه الأسرة هو الأمير خالد قطب الدين في أوائل القرن التاسع الهجري وأوائل القرن الخامس عشر الميلادي، استمر حكمهم حوالي مائة عام، ثم ضعفت بعد أن تعرضوا لمنافسة الأشراف السليمانيين على الإمارة. المعافا: العقود الذهبية، ص901-011.

(12) عاكش: الديباج الخسرواني، مقدمة المحقق، ص62.

(13) عبد الرحمن بن حسن البهكلي: خلاصة العسجد من حوادث دولة الشريف محمد بن أحمد، تحقيق: ميشيل توشيرير، عدنان درويش، (المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 0002م)، ص53.

(14) النمازي: خلاصة السلاف في تاريخ صبيا والمخلاف، (مخطوط)، جازان، محافظة بيش، قرية ابو السلع، مكتبة الأستاذ إبراهيم أبو هادي القبلي، نسخة مصورة، حوادث سنة 6701هـ.

(15) البهكلي: خلاصة العسجد، ص401.

(16) محمد العقيلي: تاريخ المخلاف السليماني، ج1، (ط2، منشورات دار اليمامة، الرياض، 2041هـ/2891م)، ص883.

(17) حمد النمازي: خلاصة السلاف، حوادث سنة 6701هـ.

(18) البهكلي: خلاصة العسجد، ص15.

(19) لم أجد له ترجمة أو معلومات فيما توفر لدي من المصادر.

(20) محمد العقيلي: تاريخ المخلاف السليماني، ج1، (ط2، دار اليمامة، الرياض، 2041هـ/2891م)، ص883.

(21) العقيلي: تاريخ المخلاف، ج1، ص883.

(22) اللحية: مدينة تهامة يمنية على ساحل لبحر الأحمر، تقع شمال غرب الزيدية بحوالي

28 كم. انظر: إبراهيم الملقحي، معجم المدن والقبائل اليمنية، (د. ط، دار الكلمة، صنعاء، 5891 م)، ص 653.

(23) البهكلي: خلاصة العسجد، ص 25.

(24) العقيلي: تاريخ المخلاف، ج 1، ص 193.

(25) قبائل يام: يام قبيلة معروفة من همدان تسكن وادي نجران وما يجاوره من اليمن، ودورها البربري معروف في المخلاف السليماني، وكتب تاريخ المخلاف مشحونة بأخبار أعمالها البربرية. النعمي: تاريخ عسير، ص 242.

(26) البهكلي: خلاصة العسجد، ص 45، العقيلي: تاريخ المخلاف، ج 1، ص 193.

(27) العقيلي: تاريخ المخلاف، ج 1، ص 804.

(28) لمزيد من المعلومات عن هذا الصراع انظر: نزهة الظريف في دولة أولاد الشريف، لعبد الرحمن البهكلي، تذييل الحسن بن عاكش، مكتبة علي الصميلي، جازان.

(29) العقيلي: تاريخ المخلاف، ج 1، ص 334.

(30) العقيلي: تاريخ المخلاف، ج 1، ص 434.

(31) ناصر بن محمد: من أشهر أمراء الأشراف آل خيرات، اتصف بالحكمة ورجاحة العقل، وقد نجح في تجنب الصراع الدائر بين إخوته على الإمارة في أبي عريش واحتفظ بإمارة مدينة صبيا منذ عهد والده حتى سنة 5021هـ/0971م، حيث تنازل عنها لابنه الشريف منصور، وقد توفي الشريف ناصر سنة 0221هـ/0971م. عبد الرحمن البهكلي: نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود، تحقيق محمد العقيلي، (ط 2، مطابع جازان، 6041هـ/6891م)، ص 511-132.

(32) منصور بن ناصر: منصور بن ناصر الحسني، من أشهر أمراء آل خيرات، تنازل له والده عن إمارة صبيا عام 5021هـ/0971م، حيث أذاقهم حلاوة العدل، حتى سمي بالملك العادل، دخل في الدعوة السلفية وعمل على نشرها، وشق عصا الطاعة على عمه الشريف حمود، وأصبح من قادة الدولة السعودية الأولى، ولكن مالبت أن وقع الخلاف بينه وبين عبد الوهاب بن عامر، فخلع طاعة الدولة السعودية وانضم إلى عمه الشريف حمود، ولكن ساءت العلاقات بينهما فارتحل إلى الحجاز للاستعانة بوالها حسني باشا، ثم شارك الشريف منصور في الحملة التركية بقيادة سنان آغا على عسير سنة 3321هـ/8181م، وقتل أثناء اشتباك الحملة مع الشريف حمود والقوات العسيرية في بلاد بني مالك. الحسن بن أحمد عاكش: عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر، تحقيق إسماعيل البشري، (د. ط، د. م، د. ت)، ص 696-796.

(33) العقيلي: تاريخ المخلاف، ج 1، ص 334.

(34) محمد بن عامر: هو محمد بن عامر المتحمي من دعاة الدعوة السلفية والدولة السعودية الأولى في بلاد عسير، وقد زوده الإمام عبد العزيز ببعض القوات لتساعده في نشر مبادئ الدعوة السلفية، وفي سنة 7121هـ/2081م، أسند إليه الإمام عبد العزيز إمارة عسير أثناء وجوده في الدرعية، لكنه توفي في نفس العام أثناء عودته إلى عسير متأثراً بمرض الجدري. انظر: محمد بن هادي بن بكري العجيلي: الظل الممدود في الوقائع الحاصلة في عهد ملوك آل سعود الأولين، تحقيق عبد الله محمد أبو داهش، (ط1، د.م، 8041هـ)، ص22-32.

(35) عبد الوهاب بن عامر: عبد الوهاب بن عامر المتحمي من أقوى أمراء الدولة السعودية الأولى وأكثرهم إخلاصاً، أسند إليه بعد الله الإمام عبد العزيز إمارة عسير سنة 7121هـ/2081م، وكلفه بقتال الشريف حمود، وقد كان للأمير عبد الوهاب الفضل في إخضاع المخلاف السليماني للدولة السعودية، حكم عسير لمدة تسع سنوات، وقتل في معركة ببش التي خاضها ضد الشريف حمود عام 4221هـ/9081م. انظر: العجيلي: الظل الممدود، ص84.

(36) الدرعية: عاصمة الدولة السعودية الأولى، خربها إبراهيم باشا عام 4321هـ، تبعد حوالي 51 كم شمال غرب الرياض. الجاسر: المعجم الجغرافي، ج1، ص544.

(37) عبد العزيز بن محمد: من أشهر أئمة الدولة السعودية الأولى، ولد سنة 2311هـ/0271م، تولى الإمامة بعد وفاة والده سنة 9711هـ/5671م، تمكن من توحيد نجد وأمتد نفوذه إلى غالبية الإمارات المطلة على الخليج العربي، كما غزا الشام والعراق وتمكن من السيطرة على الحجاز وعسير وتهامة اليمن، قتل الإمام عبد العزيز في أواخر عام 8121هـ/3081م، على يد رجل عراقي رافضي والذي هجم على الإمام عبد العزيز وهو يصلي فطعنه بخنجر والتي أودت بحياته. انظر: عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، ج1، (د.ط، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، د.ت)، ص94، 521، 031.

(38) ربيع بن زيد: هو رئيس المخاريم من قبيلة الدواسر، وأحد أشهر قادة الدولة السعودية الأولى، نشر الدعوة السلفية بين أبناء قبيلته، وأصبح رئيساً للدعاة في قومه. انظر: البهكلي: نفح العود، حاشية المحقق، ص651.

(39) أميرة مداح: المخلاف السليماني تحت حكم الأدارسة، (ط1، دار القاهرة، القاهرة، 7002م)، ص55.

(40) عاكش: الديباج الخسرواني، مقدمة المحقق، ص13.

(41) أحمد بن حسين الفلقي: من أهل صبيا، بهره نجاح الدعوة السلفية، واستهوته أخبار توفيقها في قبائل عسير وبني شعبة، فخف مهاجراً إلى الدرعية ليتلقى الدعوة

من منبعها الصافي وموئلها العتيد، وبعد وصوله إلى الدرعية وتحصيله مبادئها اتصل بالإمام عبد العزيز بن سعود، ورجاه انتدابه لنشر الدعوة في المخلاف السليماني، فاستجاب له وأرفقه بالكتاب الذي يشتمل على حقيقة الدعوة السلفية، توفي في أواخر 7121هـ/2081م، ومطلع 8121هـ/3081م وذلك بحسب تتبع بعض المؤرخين لسياق الأحداث. انظر: العقيلي: تاريخ المخلاف، ج1، ص44.

(42) عرار بن شار الشعبي: شيخ قبائل بني شعبة، سمع بالدعوة السلفية فارتحل إلى الدرعية، ودرس على يد علمائها، ثم عاد إلى المخلاف السليماني، ودعا الناس إلى اتباعها، دارت حروب كثيرة بينه وبين الشريف حمود، وبعد أن ساءت العلاقات بينه وبين الأمير عبد الوهاب بن عامر، استقدمه الإمام سعود وفرض عليه الإقامة الجبرية، وظل عرار في الدرعية حتى توفي سنة 0221هـ/7081م انظر: البهكلي: نفح العود، ص32-831.

(43) العقيلي: تاريخ المخلاف، ج1، ص44-444.

(44) حمود أبو مسمار: هو حمود بن محمد بن أحمد الخيراتي، ولد عام 0711هـ/6571م، خاض سلسلة حروب ضد الدولة السعودية الأولى، ثم أصبح من أتباع الدعوة السلفية، ثم ما لبث أن دخل في حروب طاحنة ضد أمراء عسير وأشتبك أيضاً في عدة معارك ضد القوات العثمانية التركية، توفي بعد أن الم به المرض في عام 3321هـ/7181م. وستأتي بقية ترجمته في سياق البحث. لمزيد من المعلومات انظر، البهكلي: نفح العود، تحقيق العقيلي، حاشية المحقق، ص07.

(45) الحجرين: مثنى الحجر الصخري المعروف من أعمال وادي صبيا، وهي مأهولة بالسكان. العقيلي: المعجم الجغرافي، ج1، ص48. وسيرد ذكرها في سياق البحث.

(46) البهكلي: نفح العود، تحقيق العقيلي، ص541.

(47) المنصور علي: المنصور علي بن المهدي العباس ابن المنصور الحسين بن المتوكل القاسم بن الحسين بن المهدي أحمد بن الحسن الإمام القاسم بن محمد الحسن الصنعاني، ولد في صنعاء عام 1511هـ تولى الحكم عام 9811هـ، حمدت سيرته في إمامته لليمن، توفي عام 4221هـ، انظر: محمد بن محمد بن زبارة: نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر من هجرة سيد البشر ﷺ، ج2، (د.ط، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الجمهورية العربية اليمنية، صنعاء، د.ت)، ص041.

(48) البهكلي: نفح العود، تحقيق العقيلي، ص641.

(49) العقيلي: تاريخ المخلاف، ج1، ص744.

(50) ضمد: ذكرها ياقوت بعدة معاني وماذكر منها، والضمد أيضاً موضع بناحية اليمن، بين اليمن ومكة على الطريق التهامي، وفي بعض الأخبار أن رجلا سأل الرسول

عن البداوة فقال: اتق الله ولا يضرك أن تكون بجانب الضمد من جازان. وفي بعض كتب اللغة واد باليمن تسكنه خزاعة، ولا شك أن الوادي المعروف بين وادي صبيا وجازان، وهو واد مشهور بالخير والبركة، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، باب الضاد والميم وما يليهما، (د.ط، دار صادر، بيروت، د.ت)، ص264-364. أحمد بن محمد عاكش: منحة الصمد في الميسور عن حديث ضمد، تحقيق محمد الديباجي، (د.ط، د.م، د.ت)، ص53.

(51) الملحا: قرية تقع شمال مدينة صبيا على بعد حوالي 01 كم، وعن جازان حوالي 74 كم. العقيلي: المعجم الجغرافي، ج1، ص44.

(52) بيش: يطلق على المنطقة التي يسقيها وادي بيش، وهذا الوادي من أكبر أودية تهامة، حثبانته يعد في منزلة وادي مور الذي يسمى تهامة الأعظم، ويسقي هذا الوادي عند شدة فيضانه، مساحته 06 كم في 03 كم، ويطلق في وقتنا الحاضر على قرى وادي مسلية والمطعن وأم الخشب وبيش، انظر: العقيلي: المعجم الجغرافي، ج1، ص16-26.

(53) رجال ألمع: بضم الراء وفتح الجيم، من قرى بني ظالم، وهي حاضرة بلاد رجال ألمع في عسير، تقع على مسافة 54 كم تقريبا غرب مدينة أبها، انظر: الجاسر: المعجم الجغرافي، ج2، ص226.

قلعة صلاح الدين الأيوبي في القاهرة (دراسة تاريخية)

572هـ - 1186م / 1355هـ - 1936م

قسم التاريخ جامعة الملك خالد -
المملكة العربية السعودية

د. منيرة محمد عبد الله

المستخلص:

قاد حركة الرد الإسلامي للصليبية القائد عماد الدين زنكي في الموصل، ثم نور الدين ثم صلاح الدين الأيوبي. ولما كانت مصر تمثل قلب العالم الإسلامي؛ فإن حركة الرد الإسلامي امتدت إليها، ولذلك يعمل البحث على تتبع الجهود التي قام بها صلاح الدين الأيوبي في الجانب المعماري والحربي لصد الهجمات الصليبية، ويتبع البحث المنهج الوصفي، لوصف الظاهرة المدروسة، أملا في التعمق في تناولها مستقبلا. ويعتمد على المصادر والمراجع العربية المتوافرة لصياغة البحث. ويوصي البحث بتوجيه البحوث لدراسة المظاهر المعمارية التي رافقت حركة الرد الإسلامي المعاكس للصليبية. ويقترح البحث دراسة الخارطة التاريخية لحركة الرد الإسلامي وأهم مظاهرها العمرانية.

Abstract

Among the leaders of the Islamic Al-Rad Movement to the Crusader is the leader Imad al-Din Zangi in the city of Mosul, then came after Nur ad-Din and finally Salah al-Din al-Ayyubi. The Islamic Al-Rad Movement extended to the State of Egypt as the heart of the Islamic world, and this research aims to track the efforts made by the leader Salahuddin Al-Ayyubi with regard to urbanism and the Arab side in order to repel the Crusades, so this research followed descriptive method to determine the phenomenon studied before in order to help in dealing with this issue in the future. In addition to that, research relied on the Arabic sources and references available in the libraries to write this research. One of the most important recommendations of this study is to direct research to study the architectural features that occurred during the

Islamic Al-Rad Movement opposite to the Crusader. The research suggest of show back history for the Al-Rad Movement and it architectural features. One of the most important research proposals is to study the historical features of the Islamic Al-Rad Movement and its most important urban aspects therein.

مقدمة:

الإقليم المصري من الجمهورية العربية المتحدة مركز جغرافي عظيم الجاذبية، ووسط مجتمع بناؤه السياسي عربي إسلامي بالشرق الأوسط منذ ألف وثلاثمائة وعشرين سنة. واحتوى هذا المركز -حتى ظهور الإسلام- على دفائن فرعونية وعناصر قبطية وبقايا يونانية رومانية بيزنطية على التعاقب، وهي بقايا من حضارات بادت بعضها من حيث المزايا والبقايا والآثار. وظل هذا المركز الجغرافي الجذاب أعظم إغراء سياسي للمجتمع الأوروبي المسيحي من سائر المراكز العربية الإسلامية الأخرى بالشرق الأوسط، وعدا ذلك فقد كان أكثر تعرضاً لما يتحرك أو يركض بين أحشاء المجتمع المسيحي الأوروبي من حركات توسعة سياسية، أو اقتصادية أو دينية أو هذه كلها مجتمعة في حركة طامعة واحدة، كما حدث عند قيام الحروب الصليبية ووصول جيوشها من مختلف بلاد غرب أوروبا إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، في طريقها إلى الشرق الأوسط وأواخر القرن الحادي عشر⁽¹⁾.

اصطلح علماء العمارة الإسلامية على تقسيم المنشآت الرائعة التي بناها المسلمون إلى ثلاثة أقسام هي: العماير الدينية، والعماير المدنية، والعماير الحربية.

وتشمل الأولى على ما شيدوه من المساجد والأضرحة، وتضم الثانية المدارس والقناطر والوكالات والقصور والأبراج والأسوار...⁽²⁾. وعندما خضعت مصر للأيوبيين نحو ثمانين عاماً، فقد ازدانت فيه القاهرة بأجمل العمارات وأرقى الفنون الإسلامية، ففي هذا العصر ظهرت بمصر المدارس المذهبية بتفاصيلها المعمارية، كما كثرت المباني الحربية مثل القلاع، والأسوار المحصنة⁽³⁾.

أسباب قدوم صلاح الدين للقاهرة:

لقد كان الشرق الإسلامي في زمن الحملة الصليبية الأولى تتنافس عليه أسرتان حاكمتان هما: السلاجقة والفاطميون الشيعة. وبفضل هذه الانقسامات التي تعرض لها العالم الإسلامي في ذلك

الوقت استطاع الصليبيون إحراز انتصارات كبرى على المسلمين، وأن يهددوا العراق باستيلائهم على الرها ومصر، أما السلاجقة فقد اختفوا من فوق المسرح الرئيسي لهذا الصراع، ولم يكن في إمكانهم رد هذا الخطر الصليبي نهائياً، بل إن الصليبيين كثيراً ما جاءوا إلى مصر لمحاربتهم في عقر دارهم، وهكذا بدا الميدان خالياً أمام الصليبيين للقيام بغزو العراق ومصر. غير أن الظروف تغيرت بقيام الأسرة الأتابكية بالموصل وريثة الأسرة السلجوقية في بلاد ما بين النهرين، فقد تمكن زنكي وابنه نور الدين من رد الصليبيين حتى المنطقة الساحلية، وعندما أدركت الوفاة محمود كانت الرها، حلب، دمشق، مصر قد اجتمعت يداً واحدة في وجه الصليبيين. وقد قام نور الدين بنقل التقاليد والنظم السلجوقية إلى الشام، ومن بعده واصل البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي وحتى أصبحت هذه النظم مزدهرة حتى العصر العثماني.

مميزات العصر السلجوقي: لقد تميز عصر ملكشاه بنظامين:-

1. فقد أدى إلى نشأة الإقطاعيات الحربية في جنوبي آسيا، وكان يزور كثيراً ممالكه الواسعة وفي صحبته دائماً سبعة وأربعون ألف فارس، وكانوا يأخذون رواتبهم من الأموال التي كانت تجيء من الأراضي المخصصة لهذا الغرض في الأقاليم المختلفة من الإمبراطورية السلجوقية، ثم تطور الأمر بعد ذلك حتى أصبح القواد وأعيان الدولة من الأتراك خاصة يمنحون المدن والأقاليم كإقطاعيات ويحتفظون بهذه الإقطاعيات بوصفهم اتباعاً للسلطان السلجوقي⁽⁴⁾.
 2. يرتبط بخطة واسعة لنشر التعليم بين أفراد الشعب، وهذه الخطة شرع في تنفيذها بفضل ما كان يتمتع به الوزير (نظام الملك) من نفوذ عظيم لدى ملكشاه، ثم بعد ذلك استكملت تطورها النهائي، وكانت هذه الخطة تقوم على إلقاء نماذج من الدراسات العليا في المدارس التي أنشأها في الدولة، ولقد ظلت المدرسة النظامية ببغداد والتي سميت بذلك الاسم نسبة لمؤسسها (نظام الملك)، وتتمتع بشهرة عظيمة في جميع أنحاء الشرق خلال عدة قرون.
- ويعتبر نظام الإقطاعيات من جهة، ونظام المدارس من جهة أخرى من الخصائص المميزة للأسرة السلجوقية، ولقد برز بين أعوان زنكي ونور الدين إخوان: أحدهما كان رجل دولة، عرف بسداد الرأي ورباطة الجأش، والآخر كان رجل حرب جسور القلب، ضم الأول دمشق إلى أملاك نور الدين بدسائسه ومناوراته البارة، وفتح له الثاني القاهرة، فأما الأخ الأول فهو نجم الدين أيوب، وأما الثاني فهو أسد الدين شيركوهو الأخوين من بلدة دوين التي تقع على أطراف مقاطعة أذربيجان، على الطريق الموصل

إلى آران وإلى بلاد الكرج، هما ينتميان إلى جماعة الأكراد الداودية، إحدى بطون قبيلة الهرانية الكردية الكبرى.

وقدر لشيركوه أن يموت دون أن يترك ولداً، وأما أيوب فقد ترك أولاداً عديدين وهؤلاء الأولاد هم: شامنشاه الذي توفي سنة 543هـ شمس الدولة توران شاه الذي توفي سنة 576هـ، يوسف صلاح الدين الذي ولد في تكريت سنة 532هـ وتوفي سنة 589هـ، محمد أبوبكر سيف الدين الذي ولد بدمشق 538هـ أو سنة 540هـ، وتوفي سنة 615هـ، طغتكين ظاهر الدين (سيف الإسلام) الذي توفي سنة 593هـ، فأما صلاح الدين فهو رجل رقيق الطباع، بل هو إلى الحياء والخجل أقرب، والنزاهة والبُعد عن الهوى والكرم، طيب المعشر والتقوى وله القدرة على حُسن اختيار رجاله ومستشاريه⁽⁵⁾.

صلاح الدين وسقوط الدولة الفاطمية:

مهدت الأحوال والحوادث والظروف لسقوط الدولة الفاطمية وقد أصبحت البلاد من الضعف بحيث لم تعد تقوى على صد الغزوات الأجنبية، لما سادها من الأحوال السيئة طويلاً، وما لبث التطاحن الحربي والمنافسات بين الوزراء المصريين حتى غدت في مركز يشابه مركزها حين فتحها الفاطميون على يد القائد جوهر. وقد أدت وفاة شيركوه إلى صعود صلاح الدين، فابتدأت منذ ذلك عظمته، فقد وطد العزم في هذه الآونة على تأسيس إمبراطورية واسعة، وخصص كل مجهوداته لطرد الصليبيين من البلاد، وقد كان لنجاحه في هذا المشروع ما جعله يُلقب بحامي الإسلام، ولما استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين وتوافق تام بينه وبين المصريين أسند المناصب الدينية في مصر إلى الفقهاء المتضلعين في المذهب السني، انضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة، وسقطت سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين، وأزال من الجيش العناصر التي لم يكن يثق بإخلاصها، لذلك رغب نور الدين في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي، غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ رغبة نور الدين، كما كان يخشى من أن يثير هذا العمل ثورة أهالي مصر الذين كانوا لا يزالون متعلقين بالفاطميين، بيد أن هذا العذر لم يرض نور الدين التردد بأمر لا مناص لواليه من تنفيذه. وكان الخليفة العاضد مريضاً في ذلك الوقت، فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة بدلاً من اسم الخليفة الفاطمي، فوافق بعضهم ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح، غير أن أوامر نور الدين لم تكن بالتي لا تطاع، وكان في هذا المجلس رجل فارسي يعرف بالأمر، فصعد المنبر قبل الخطيب في أول جمعة من المحرم، ودعا للمستضيء العباسي ولم يحتج أحد على ذلك، ثم أمر صلاح الدين في الجمعة التالية الخطباء أن يخطبوا

باسم الخليفة العباسي، ولم يخبر العاضد فقد كان مريضاً جداً، ثم لم يلبث أن توفي في العاشر من المحرم، فجلس صلاح الدين للعزاء، وهكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد⁽⁶⁾.

العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين:

بعد أن تخلص صلاح الدين من الفاطميين كان عليه أن يكمل سلطانه، وأن يتخلص من سيادة نور الدين زنكي، وكان نور الدين يحس بأن صلاح الدين بدأ يعمل لحساب نفسه أكثر مما يعمل لحساب السلطة التي أرسلته إلى مصر، وقد ظل صلاح الدين يعمل في جهتين في وقت واحد، فهو من جهة يدعم سلطانه ويقوي نفسه، ومن جهة أخرى لا يقطع حبل الود مع نور الدين، بل يذكر اسمه في الخطبة، وينقشه على السكة، ويسترضيه بالهدايا والتحف النفيسة، ولعل أولى الخطوات التي أثارت الشكوك في نفس نور الدين كانت ذلك الطلب الذي تقدم به صلاح الدين إليه بإيفاد والده إليه، وأيضاً إيفاد إخوته وذويه، وقد أحس نور الدين من ذلك أن صلاح الدين يريد تثبيت نفسه، ودعم سلطانه واستقراره بمصر، ولكن نور الدين لم يمانع في إرسال أسرة صلاح الدين حتى لا يعلن خوفه من قائده.

وأخذ صلاح الدين بعد ذلك يُعد نفسه لمواجهة مستقبل علاقاته بنور الدين، مع احتمال الدخول في مشكلات حربية ضده إذا عجزت أساليب السياسة عن التوفيق، ولذلك أخذ ينشئ قلعة عظيمة على جبل المقطم لينقل لها مسكنه ودواوينه وليتحصن بها إذا داهمه خطر، كما أخذ يبني سوراً حول العواصم الإسلامية الكبرى بمنطقة القاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع⁽⁷⁾.

هذه القلعة لا تزال موجودة إلى اليوم قائمة بأسوارها العالية شرقي القاهرة تشرف على ميدان صلاح الدين، بل على القاهرة كلها، أنشأها صلاح الدين سنة 572هـ، وكان يقيم بها بعض الأيام وسكنها ابن الملك العزيز عثمان في أيام أبيه مدة ثم انتقل منها إلى دار الوزارة ولما تولى الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أتم بناء القلعة في سنة 604هـ وأنشأ بها الدور السلطانية⁽⁸⁾.

أصدر صلاح الدين أمره إلى وزير الأشغال في حكومته ببناء قلعة ضخمة، يضم سورها القاهرة ومصر معاً، ويقول العماد الأصفهاني عن قصة هذا المشروع الحربي: «وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كل واحدة منهما بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وأمر ببناء قلعة في الوسط من مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقس، وانتهى به إلى أعلى مصر ببرج وصلها بالبرج الأعظم»⁽⁹⁾.

واختار صلاح الدين لهذه القلعة مكاناً استراتيجياً مهماً يشرف منه على الداخل والخارج، ول يتمكن من قمع أي فتنة في مهدها، ول يمكنه من رؤية الأعداء ومحاصرتهم إذا داهموه بالعدوان.

وابتدأ هذا المشروع على نطاق واسع بتكاليف باهظة وأشار الدكتور نظير سعداوي في كتابه التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي إلى أن «القلعة عبارة عن بناءين أحدهما وهو المدخل الحالي للجزء الشمالي على شكل مستطيل، شيدت في سوره أبراج مستديرة حصينة خارجة عن السور ملتصقة به وبارزة عنه ومتباعدة عن بعضها مسافات مقدره بالنسبة إلى مرامي الأسلحة المستعملة وقتذاك والوصول إلى هذا الجزء الشمالي في العصر الحاضر يكون باختراق الباب الجديد الذي أنشأه محمد علي، ويرتكز الجانب الأيسر من هذا الباب على باب المدرج القديم ثم يظل الزائر متجهاً صوب الجنوب حتى يخترق بالباب (الوسطاني)، ومن ثم يواجه جامع محمد علي وجامع السلطان الناصر فإذا ترك ناصية اليمين وانحرف إلى اليسار وجد نفسه أمام باب القلعة وهو المدخل الحالي للجزء الشمالي من القلعة ويقوم على جانبيه برجان كبيران، ثم إذا اخترق الزائر باب القلعة وسار في الاتجاه الشرقي مع السور وصل إلى برج المقطم، وهو حلقة الاتصال بين الجزء الشمالي من القلعة والجزء الجنوبي منها، ويتفرع من برج المقطم خطان من التحصينات الحربية، أحدهما جنوباً لسور الجزء الجنوبي من القلعة وبه ثلاثة أبراج من طراز معين، على حين يتجه الثاني شرقاً لسور الجزء الشمالي من القلعة»⁽¹⁰⁾.

ومهمة برج المقطم الإشراف على الاتجاهين: الشمالي والجنوبي، ولا يزال البرج محافظاً على مظهر الضخامة، وبه صهريج ماء كبير وعلى مسافة 90 متراً شرقي برج المقطم، يجد الزائر نفسه داخل برج كريكلان*، ويظل السور بين هذين البرجين الكبيرين، في تلك المسافة برجان صغيران هما: برج سفتا وبرج العلوة، ثم يبرز من السور على بعد 5 أمتار إلى برج المطر، وهذا البرج الأخير مستدير طوله 25 متراً، وهو في الواقع برجان متلاصقان وشكل كل منهما دائري ويخرج من برج المطر ستار طوله 59 متراً ينتهي عند برج المبلط المقام على الزاوية الجنوبية، وهو نهاية السور الجنوبي من الجزء الشمالي من القلعة وأن السور من برج المقطم إلى مسافة مستوية، وبقيته على صخرة عمودية يبلغ ارتفاعها 908 أمتار وهي تدور مع قاعدة برج المبلط وتظل متصلة من بدايتها بالسور الشرقي ثم تأخذ في الابتعاد عنه بمقدار 7 أو 8 أمتار، وبرج المبلط أقرب أجزاء القلعة لمسافة للمقطم حيث تبلغ المسافة بينهما 350 متراً ويبدأ السور الشرقي من برج المبلط في اتجاه 175 متراً

على استقامة واحدة، ويقطعه برجان نصف مستديرين يسمى أحدهما برج المقصورة، ويقسمانه إلى ثلاثة أجزاء أطوالها 55، 53، 43 متراً على الترتيب، وتتكون الأبراج من طبقتين لكل حجرة من حجراتها ثلاثة مداخل، وتنتهي المداخل بممرات جانبية من الستائر من طبقتين لمسافة 7 أمتار، وتنتهي الصخرة الموازية لل سور من الخارج بانتهاء برج الإمام وإذا ترك الزائر برج الإمام، وصل إلى برج المستدير على مسافة 66 متراً، وعلى مسافة 22 متراً منه يقع برج الحراء، وهذان البرجان الأخيران يتسلطان على الطريق بين القلعة والمقطم وهو الطريق الذي يخترقه القادم إلى القاهرة من الجنوب إذا ما تعذر عليه دخولها من الشمال⁽¹¹⁾.

وهذا يوضح سبب وجود باب سري في السور على بُعد مترين من باب الحديد لتخرج الحامية وتحول دون مرور العدو بهذا الطريق، ويمتد السور الشمالي من برج الحراء إلى برج الزاوية الشمالية الغربية وطوله 650 متراً من الشرق إلى الغرب⁽¹²⁾.

وأ أنه بالرغم من قصر المدة التي قضاها صلاح الدين في القاهرة فقد رغب في أن يجعل القلعة مقراً لسكنه. وإنشأؤه لها يعود إلى حملاته في الشام حيث لا تخلو مدينة شامية من قلعة فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة إلى قلعة تحميها فتتمت مشيئته⁽¹³⁾.

وهذا ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين قال: «كان السلطان لما ملك مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يحميها، فقال: إن أفردت لكل واحدة سوراً احتاجت إلى جند كثير يحميها وإنني أرى أن أدير عليها سوراً واحداً من الشاطئ، وأمر ببناء القلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم». وأن المهندسين العسكريين في القرن الثاني عشر لهم حقهم من الكفاءة والمقدرة في فن المعمار فإن عملهم لا يزال واضحاً للعيان في القرن العشرين⁽¹⁴⁾.

وأمر صلاح الدين بتنفيذ مشروع بناء القلعة عام 1177م وأقام على عمارتها بهاء الدين قراقوش الأسدي الخصي أحد أمرائه المخلصين ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج في الجدار الغربي من القلعة ما نقرأه حتى يومنا هذا: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحرسة القاهرة التي جمعت نفعاً وتحسيناً وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصناً مولانا الملك صلاح الدين والدين المظفر يوسف ابن أيوب محي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهد الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين، على يد أمير مملكته

قراقوش بن عبد الله المالكي الناصري في سنة تسعة وسبعين وخمسائة» أي في عام 1183م - 1184م⁽¹⁵⁾.

ولكي يشيد صلاح الدين القلعة هدم عدداً كبيراً من الأهرام الصغيرة التي كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ونقل ما وجده بها من الحجارة وبنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة وهدم ما وجدوه في موقع البناء من المساجد وأزال القبور وقام بأكثر أعمال نحت الأحجار، الأسرى الفرنج الذين أسرهم صلاح الدين في معاركه - ولقد زار السائح الأندلسي ابن جبير القاهرة في عام 1883م فشاهد الأعمال التي كان يقوم بها الأسرى الفرنج وكان عددهم وفيراً جداً، ولقد كان لبناء القلعة ومد السور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران في القاهرة الأيوبية⁽¹⁶⁾.

أسباب اختيار القلعة:

تذكر الروايات أن هنالك عدة أسباب منها: قيل أن السبب الذي حدا به اختيار مكان قلعة الجبل: «أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة فعلق لحم حيوان آخر في موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين فأمر حينئذ بإنشاء قلعة هناك»⁽¹⁷⁾.

والواقع أن هذا التعليل لا يستند رغم طرافته إلى أساس علمي سيما وأنه قد ذكرت أيضاً قصة مماثلة عند اختيار الخليفة العباسي المنصور لموقع مدينة بغداد، بل أن الأقرب إلى الصحة هو أن مكان القلعة قد أُختير لأغراض استراتيجية لا يتوفر وجودها في مكان آخر، وأن جبل المقطم تبرز فيه أكبر الكتل الصخرية المنفردة والتي تشرف من الوادي كله، وقد أشار المقريزي نفسه إلى ذلك في موضع آخر من خطه بقوله: «هذه القلعة على قطعة من الجبل وهي تتصل بجبل المقطم وتشرف على مصر والقاهرة والنيل والقرافة». وقد عرف هذا المكان في العصر العباسي باسم قبة الهواء نسبة إلى قبة كان قد بناها هرثمة بن أعين وقد خربت هذه القبة في العصر الطولوني وشُغل هذا المكان بمجموعة من الأضرحة والمساجد الفاطمية التي أُزيلت بسبب عمارة القلعة الحربية⁽¹⁸⁾.

ولم تكن قلعة القاهرة أو أعمال التحصينات الحربية التي فكر في إنشائها صلاح الدين هي الأولى في مصر، فقد سبقتها أعمال أخرى أهمها السور الحجري الفاطمي الذي بناه بدر الجمالي حول القاهرة، ولم يلبث أن بدأت أجزاء كثيرة منه في الانهيار وخاصة عند ضلعه الشرقي وقد أشار

إلى هذه الحقيقة أبو شامة حيث قال: « وفي هذه السنة 566هـ/1171م شرع السلطان صلاح الدين في عمارة سور القاهرة لأنه قد تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً⁽¹⁹⁾ ».

وتوالى أحداث كثيرة جعلت صلاح الدين يتحول إلى مشروع آخر أكبر يحتاج إلى زمن أطول وأموال أوفر، ويتحقق مع مركزه بعد أن أصبح سلطاناً واسع النفوذ مطلق السلطة ومن أهم الأحداث القضاء على الفاطميين سنة 567هـ/1171م ثم استيلائه على مملكة سيده بالشام والعراق⁽²⁰⁾. وقد أفاد صلاح الدين فوائد كثيرة في شؤون الحرب التي مارسها في الشام خلال جهاده في سبيل توحيد القوى الإسلامية ضد الصليبيين في الشرق العربي. وأحس صلاح الدين بما طرأ عليه من تغيير في أفكاره وخططه الحربية إذ أدرك وهو بالشام ما قامت به القلاع وخاصة في حلب والكرك من دور فاصل في المعارك الحربية فقد تسقط المدينة وتظل قلعتها على المقاومة حتى ييأس المحاصرون لها ويرفعون عنها الحصار⁽²¹⁾. وقد ذكر المؤرخ لين بول في كتابه عن صلاح الدين: «مما دفع صلاح الدين إلى بناء القلعة رغبته في أن تكون حصناً يُدافع به عن أسرتِه وعن مصر إذا اجتاحتها سيده نور الدين زنكي». ولكن هذا غير صحيح إذ إن صلاح الدين لم يشيد القلعة إلا بعد وفاة نور الدين بعامين، أي سنة 572هـ. وفي 16 من ربيع الأول سنة اثنين وسبعين وخمسائة بعد ما كانت لعساكره حروب كثيرة مع الفرنج شرع صلاح الدين في بناء قلعة الجبل وعمل السور وحفر الخندق حوله⁽²²⁾. وفي الواقع لم تكن هناك أسلحة معروفة وقتذاك قادرة على قذف شحاناتها من قمة المقطم إلى الأهداف داخل القلعة، كما وأن المهاجمين على القاهرة لا يستطيعون صعود جبل المقطم في قيظ الحر وصعوبة توفر الماء في هذا المكان وإذا حاول المهاجمون الاقتراب من أسوار القلعة فإن الخندق حولها يمنع من اقتحامها، هذا بالإضافة إلى أن المسافة بين القلعة وقمم المقطم لا تيسر للمهاجمين القيام بحركات تكتيكية بشيء من الحرية⁽²³⁾. وأن صلاح الدين جلب أحجار البناء للقلعة من بعض أهرامات الجيزة وكما ذكر عبد اللطيف البغدادي وغيره من الكتاب الذين جاءوا من بعده قال: «لقد ترك صلاح الدين كتابه على باب المدرج في الناحية الشمالية من القلعة سنة 579هـ»⁽²⁴⁾.

وهذه الكتابة التاريخية وهي في تسعة أسطر بخط النسخ الأيوبي على لوحة من الرخام مساحتها 125 سم × 69 سم. «بسم الله الرحمن الرحيم»، «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا {1} لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا {2} وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا {3} سورة الفتح، الآيات: (1-3).

ولا تتركز أهمية هذا النص في تحديد التاريخ 579هـ/1183م الذي يثبت أن القلعة أو على الأقل الجزء الكبير منها لم يتم حتى سنة 579هـ، إذ المعروف تاريخياً أن صلاح الدين غادر مصر سنة 578هـ/1182م ولم يعد بعد هذا التاريخ إلى مصر⁽²⁵⁾. والغالب أن القلعة كانت في سنة 578هـ عند سفر صلاح الدين من القاهرة وقد أوشكت على التمام، ولكن صلاح الدين لم يتمكن من أن يتخذها موقع سكناه فترك لأخيه العادل ابن بكر بإتمامها. أما الأهمية الأثرية لهذا النص التاريخي فتتركز كذلك في أنها تقدم أمثلة استعمال خط النسخ على الآثار من المستحدثات الفنية التي أدخلها صلاح الدين في ميدان الفنون وجاء استحداثه مؤذناً بزوال عصر الخط الكوفي المزهر المجدل الذي شاع في العمارات والتحف الفاطمية في القاهرة المعز⁽²⁶⁾. ومن المعالم المعمارية التي ترجع إلى عصر صلاح الدين في قلعة القاهرة (بئر يوسف) تقع في المساحة الجنوبية من القلعة حيث الملحقات، وتقع الآن في الجهة الجنوبية الشرقية من جامع الناصر محمد وعمق هذه البئر 89 متراً تقريباً وتنسب للأساطير الشعبية هذه البئر إلى سيدنا يوسف وليس هناك أساس علمي وتُعرف هذه البئر أيضاً باسم (الحلزون)⁽²⁷⁾.

مصادر مياه القلعة:

كانت مياه النيل العذبة تصل إلى القلعة في عهد صلاح الدين وخلفائه من الأيوبيين بواسطة قناة على ظهر سور صلاح الدين الممتد من الفسطاط إلى القلعة وما زالت بعض بقاياها موجودة إلى اليوم. فلما كثرت مبانيها بساكنيها أنشأ الناصر محمد بن قلاوون في سنة 710هـ/711-1312م أربع سواق على النيل تنقل الماء إلى السور ثم من السور إلى القلعة ولما أتم الناصر محمد هذا العمل غرس الميدان تحت القلعة بالأشجار وملأ السواقي أراد تقوية المياه وذلك في سنة 741هـ/1340، فأمر بعمل سواق عند ساحل النيل اتصلت بها قناطر امتدت واتصلت بالقناطر القديمة (صلاح الدين) كي تتجمع المياه في مستودعين وتكون قوية تغذي مرافق القلعة والميدان معاً⁽²⁸⁾. وقد عني بهذه القناطر حكام مصر باعتبارها جزءاً مهماً مكملاً للقلعة فأصلحها الملك الظاهر برقوق، كما أصلحها السلطان قايتاي سنة 885هـ/1480م وما زال اسمه منقوشاً على قنطرة منها بالركن القبلي الشرقي المتجه إلى الفسطاط عند قرافة السيدة نفيسة⁽²⁹⁾. وفي عام 912هـ/1506م أمر السلطان قانصوه الغوري بإبطال المجرى القديم عند درب الخولي، وشرع في بناء مأخذ وهي ست سواقي على النيل عند فم الخليج، ترفع الماء إلى أعلاه وتصبه في أحواض، أحكم جريان الماء فيها واندفاعها إلى مجراها على ظهر القناطر التي أنشأها والتي امتدت حتى تلاقت بالقرب من مشهد السيدة نفيسة ببقايا قناطر الناصر محمد، ثم بسور صلاح الدين القديم ونقش اسمه عليها وقد اشتهرت الأعمال فيها سنة 914هـ/1508م، واحتفل بإدارتها وجريان الماء فيها إلى أن وصل إلى الميدان تحت القلعة، كما صعد بواسطة سواقي أخرى تملأ صهاريجها، وظلت تؤدي عملها إلى القرن التاسع عشر⁽³⁰⁾.

أعمال صلاح الدين والعادل في القلعة:

يعزى إلى صلاح الدين بناء حائط السور بأبراجه النصف الدائرية، ويبدأ هذا السور من الجانب الشرقي لبرج المقطم ويمتد نحو الجنوب والشرق والشمال حتى ينعطف ويقف لدى المكان الذي يشغله الآن المتحف الحربي ويُنسب إليه أيضاً البابان الخلفيان والجزء الداخلي من باب القرافة وباب المدرج وكذلك حائط السور الذي يمتد جنوبه بما في ذلك الجزء الخلفي من البرج النصف الدائري الكائن بين الباب الأخير والباب الأوسط أي أن صلاح الدين بنى هذا السور كاملاً على قدر ما سمحت له الظروف المحيطة به إذ إنه استدعى لفلسطين في الحادي عشر من شهر مايو سنة 1182م في ظروف عصيبة خلال الحروب الصليبية فغادر القاهرة وسورها وخاض هنالك حروباً أدت في نهايتها إلى انتصاره وأخذ بيت المقدس في شعبان سنة 853هـ/أكتوبر 1187م⁽³¹⁾.

ولما خلفه أخوه العادل كانت الأمور قد استقرت قليلاً ووقفت الحروب مؤقتاً، فانتهاز العادل هذه الفرصة واستطاع بما لديه من الثروة وما له من النفوذ وبما تحت تصرفه من موارد الممتلكات الأيوبية أن يعيد تحصين المواقع الحربية المهمة في دولته الوسيعة، وما تزال قلاع حلب ودمشق وبصرى والقاهرة وأطلال حصن جبل طابور شاهدة على جهوده الكبيرة⁽³²⁾.
ويُنسب إلى الملك العادل الأبراج الثلاثة الكبيرة الكائنة بالجانب القبلي وهي: برج الصفة، وبرج قربلان، وبرج العلوة، والزيادة التي أضيفت لباب القرافة، والجزء الخارجي ببرج الرملية، وبرج الحداد، والجزء الداخلي ببرج الصحراء، والبرج الكبير الذي لم يتبق منه سوى قاعدته، والبرجان الكبيران المربعان في الركن الشمالي الغربي من السور، وقد ختمت أعمال العادل سنة 604هـ/1206م-1207، ثم استأنفها ابنه الملك الكامل وكان أول من سكن القلعة من الأيوبيين⁽³³⁾.

القلعة في عهد السلطان الكامل (604-635هـ/1207-1238م):

قال ابن عبد الظاهر: «والملك الكامل هو الذي اهتم بعمارتها وعمارة أبراجها البرج الأحمر وغيره فاكتملت في سنة 603هـ وتحول إليها من دار الوزارة». وقد بنى الكامل في القلعة إيواناً، وباباً للقصور السلطانية سماه باب السر، وباباً يصل لحصن القلعة أو الجزء الشمالي منها بالجزء الجنوبي وهو المدينة السلطانية ويسمى هذا الباب باب القلعة، وكذلك الاصطبلات السلطانية، وبعض الأبراج، وأبراج الحمام، وخزانة الكتب، ولعله شيد كذلك مسجداً أو مقراً للوزير يسمى قاعة الصاحب، وفي القرن الخامس عشر لم يكن باقياً من هذه المنشآت إلا الشيء القليل⁽³⁴⁾.

ومع أن السلطان الكامل هو الذي نقل لأول مرة مقر الحكم والإدارة إلى القلعة فإن سيادة العنصر العسكري في البلاد لم تتم في عهده وإنما في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي عظم نفوذ المماليك في عهده وشيد لهم قلعة الروضة فسموا المماليك البحرية ولكنهم رجعوا إلى قلعة الجبل عندما استقرت في أيديهم مقاليد الحكم، ولم تلبث العمائر أن قامت على أنقاض المقابر التي كانت تفصل هذه القلعة عن القاهرة⁽³⁵⁾. ومن منشآت السلطان الكامل في القلعة - الإسطبل العثماني - الذي كان ملحقاً بالقصر، ولم يذكر أحد المؤرخين المسلمين تاريخ إنشائه ونراهم متفقين على ذكره بين منشآت عهد السلطان بيبرس. ومن أعمال الكامل أيضاً الميدان السلطاني تحت القلعة ومن منشآته قاعة الصحاب - أي قاعة الوزير - وكان أول من شغلها صفي الدين بن شكر وزير الكامل. وقد كان موجوداً في أيام السلطان بيبرس جامع تلقى فيه الخطبة، ولا يبعد أن يكون الكامل هو المشيد له، وشيد مكان هذا الجامع جامع محمد بن قلاوون⁽³⁶⁾. ومنشئ أبراج الحمام الملك الكامل، وقد ذكر ابن عبد الظاهر في كتابه «تمايم الحمام» أن أبراج الحمام قد بلغ عددها 687 ألف و900 طائر كان يُستخدم الحمام في نقل الرسائل ومما يذكر في هذا السياق أنه كانت هناك مراكز حمام في سائر نواحي المملكة في مصر والشام بين أسوان والفرات⁽³⁷⁾.

خزانة الكتب:

وهذا عمل آخر للملك الكامل - خزانة الكتب - التي دمرها حريق سنة 691هـ/1292م، وكانت في الأصل تؤلف مكتبة القاضي الفاضل ثم آلت إلى ابنه الأشرف أحمد، لما أمر الكامل بوضع اليد على داره ونقل مكتبته إلى القلعة، وقد كان ذلك في يوم الأحد الموافق لليوم الخامس من جمادي الأول سنة 626هـ، ثم نُقلت المجلدات النفيسة في اليوم السادس والعشرين وكانت تتألف من ثمانية وستين ألف مجلد، وبعد أيام حملت الخزائن الخشبية في تسعة وأربعين حملاً، وقيل أنه كان من جملة الكتب المستولى عليها كتاب الأيك والغصون لأبي العلاء المعري في ستين مجلداً، وقد جمعها القاضي الفاضل في مكتبات الفاطميين⁽³⁸⁾.

وفيما يلي ملخص لأعمال الكامل في قلعة الجبل:

1. الإيوان.
2. باب السر المؤدي للقصور السلطانية.
3. باب يصل بين قلعة الجبل (المدينة العسكرية) والقلعة (المدينة السلطانية) واسمه باب القلعة.
4. الاسطبلات السلطانية.
5. الأبراج.
6. أبراج الحمام.
7. خزانة الكتب.
8. قاعة الصاحب (الوزير).
9. الجامع.

القاعة الصالحية: عقب وفاة الملك الكامل سنة 1238م إلى انتهاء حكم الأيوبيين في مصر سنة 1250م لم يشيد أحد من سلاطين هذه الأسرة في القلعة ما يستحق التنويه، ونكتفي بذكر القاعة الصالحية التي أمر بإنشائها الملك الصالح نجم الدين أيوب (1240م-1249م) وظلت سكن الملوك إلى أن احترقت في 6 ذي الحجة سنة 684هـ. ولكن الملك عز الدين أيبك بعد أن استقر بالقلعة قد أهمل إيوان الكامل واتخذ المدرسة الصالحية مقراً للحكم والنظر في الشكاوي، وقد تنسب إليه قاعة الأعمدة⁽³⁹⁾.

القلعة في عهد المماليك:

بعد زوال ملك الأيوبيين أقام الملك المعز (نجم الدين أيبك) بالقلعة، وقد أصبحت القلعة منذ ذلك الحين مقراً دائماً للسلطنة، ولم يقيم المعز أي منشآت جديدة بالقلعة بل أنه يبدو ترك الجلوس في إيوان الملك الكامل، ومن المعروف أنه كان يجلس للنظر في المظالم بالمدرسة الصالحية وبصحبه نواب دار العدل⁽⁴⁰⁾.

هذا ويذكر ابن إياس أيضاً عن شجرة الأدر: «وكذلك تُنسب إليها نوبة⁽⁴¹⁾ خاتون التي تدور في القلعة بعد العشاء، وقد جاء ذكر هذه النوبة أيضاً على لسان غيره من المؤرخين بقوله: (نوبة خاتون هي قفل تقليدي جرى العرف على إقامته كل مساء بقلعة الجبل، حيث يجتمع هناك عدد كبير من الطبالين والزمارين وكان يترأس هذه النوبة أحد ممالك والي القلعة وهو بلباسه الرسمي الكامل، كما كان يمسك بيده عصا مذهبة وأمامه يقف أحد حملة المشاعل وبيده مشعل صغير يلعب به في خفة ورشاقة على أنغام الطبول والزمور)⁽⁴²⁾.

والمقريزي يقول: «أنه في عهد الناصر محمد بن قلاوون أقيمت على باب ذويلهليلية تُدق كل مساء عقب صلاة العصر وكلمة (الحليلة) التي ذكرها المقريزي يترجمها فان برشم ترجم بكلمة (روزيه Rouzee) في كتابه (وصف مصر) هذه الكلمة بأنها نوع من أنواع الطبول الضخمة فالمقريزي في وصفه للباب المدرج يقول: (ومن خارجه تُدق الحليلة قبل المغرب)⁽⁴³⁾. يقول ابن إياس، بما لا يدع مجالاً للشك بأن الحليلة عبارة عن (آلة) شبيهة بالطبول وتُدق كل مساء عند حلول وقت النوبة، غير أن عبارة الجوهري يفهم منها أن الحليلة اسم تُعرف به إحدى الأبنية وقياساً على ذلك فلنذكر أن كلمة (طبلخانة) تعني مجموعة الطبول التي يُدق عليها، كما تعني الدار التي يقيم بها الضاربون على الطبول، فالحليلة نوع من الطبول ويبدو أن هذه الكلمة معبرة للنشأة وأصلها لا بد أن يكون مستمداً من التقاليد الحربية لسلاطين المماليك⁽⁴⁴⁾.

وشجرة الدر هي التي دفعها حقدًا على زوجها الملك المعز - الذي يدين لها بعرش السلطنة - إلى التآمر على قتله في الحمام بالقلعة بعد أن عرفت أنه ينوي الزواج عليها، وقد نالت بدورها جزاء ما اقترفت يداها، فقام بتعذيبها ممالك زوجها إلى أن لفظت أنفاسها الأخيرة، ثم أُلقيت في خندق القلعة حيث ظلت بضعة أيام نهباً للكلاب، وبعد شجر الدر والملك المعز جاء الملك المنصور ثاني سلاطين المماليك الذي لم يترك عهده أي أثر في تاريخ السلطنة المملوكية، وكذلك السلطان الثالث الملك المظفر (قطز) لقصر عهده وانشغاله بمحاربة المغول في سوريا⁽⁴⁵⁾.

القلعة في عهد الظاهر بيبرس: - هو رابع السلاطين المماليك وأعظمهم شهرة، هو الذي أدار شؤون دولته وقاد الجيوش الظافرة ضد المغول والصليبيين والروم في أرجاء آسيا الصغرى والشام وأعالى الفرات والنوبة، وهذا يدل على أنه أحد أفراد ذلك الطراز النادر من سلاطين مصر بل ملوك العالم أجمع.

عمر بقلعة الجبل دار الذهب وبرحبة الجبارج⁽⁴⁶⁾ وهي قبة عظيمة محمولة على اثني عشر عموداً من الرخام الملون وصور فيها سائر حاشيته وأمرائه، وعمر بالقلعة أيضاً طبقتين مطليتين على رحبة الجامع⁽⁴⁷⁾، وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة وأخرج رواشن⁽⁴⁸⁾، وبنى عليه قبة وزخرف سقفها⁽⁴⁹⁾.

وأنشأ جواره طباقاً للماليك، وأنشأ تجاه برجية بباب القلعة داراً كبيرة لولده الملك السعيد، وكان في موضعها حفير وعقد عليه ستة عشر عقداً، لأنه كان يكره سكن الأمير بالقاهرة مخافة من حواشيه على الرعية. ويرى كازانوف أن دار الذهب والقاعة الظاهرية والدار الجديدة اسماً على مستوى واحد، وأنه لم يرد بالتفصيل شيء عن كل واحدة منها في كتب المؤرخين المعاصرين، وهناك برج أمر بتشيدده الظاهر في الزاوية المجاورة لباب القلعة، وهذه القلعة التي عرف بها الباب الذي تسمى بها، ثم هدمها الملك المنصور قلاوون ثم جدد باب القلعة على ما كان عليه في أيام المقرئ⁽¹⁾. وشيد أيضاً دار العدل القديمة التي بناها بيبرس ومكانها اليوم إلى اليمين الداخلي إلى القلعة ويشغلها ميدان سارية العلم وقد بُنيت هذه الدار (دار العدل) في سنة 661هـ وصار السلطان يجلس بها لعرض العساكر في يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، وقد بدأت بالحضور في سنة 662هـ 1264م -م فوقف إليها ناصر الدين محمد بن أبي نصر وقد أخذ له بستان في أيام المعز أبيك وهو بادي المقطعين، وأخرج كتاباً مثبتاً وأخرج من ديوان الجيش ما يشهد بأن البستان ليس من حقوق الديوان، فأمر برده عليه فتسلمه واحضرت مرافعته في ورقة مختومة وضعها خادم أسود فأملاه القاضي شمس الدين شيخ الحنابلة تضمنت أنه يبغض السلطان ويتمنى أن تزول دولته لأنه لم يجعل للحنابلة مدرساً في المدرسة التي أنشأها بخط بين القصرين ولم يول قاضياً حنبلياً وذكر عنه أمور فادحة، فبعث السلطان الورقة إلى الشيخ مخضر، وحلف أنه ما جرى منه

شيء وأن هذا الخادم طرده فاختلف على ما قال، فقبل السلطان عذره وقال: ولو شتمتني أنت في حل وأمر بضرب الخادم مائة عصا⁽⁵⁰⁾. وغلّت الأسعار بمصر حتى بلغ إردب القمح نحو مائة درهم وانعدم الخبز فنادى السلطان الفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة ونزل في يوم الخميس سابغ ربيع الآخر منها، وجلس بدار العدل ونظر في أمر السعر وأبطل التسعير، وكتب مرسوماً إلى الأمراء ببيع خمسمائة إردب في كل يوم ما بين مائتين إلى ما دونهما وأن يكون البيع للضعفاء والأرامل فقط دون من غيرهم وأمر بكتابة أسماء الفقراء⁽⁵¹⁾؛ وقال والله لو كان عندي غلة تكفي هؤلاء لفرقتها، ولما انتهى إحضار الفقراء أخذ منهم لنفسه ألوفاً وجعل باسم ابنه الملك السعيد ألوفاً، وأمر ديوان الجيش فوزع باقيهم على كل أمير من الفقراء، بعدد رجاله. وما برحت دار العدالة باقية إلى أن استحدث السلطان الملك المنصور قلاوون الإيوان فهجرت فظلت مهجورة إلى أن هدمها قلاوون في عام 722هـ/1322م وقام على بقايا الطبلخانة⁽⁵²⁾.

باب الدرفيل:

هو باب سارية أو المدرج الذي أصبح على أيامه باسم باب الدرفيل، وهو اسم لأحد قادة جيوش بيبرس، وهو الأمير حسام الدين لاشين الأيدمرى، وكان يشغل منصب الدوادر وقد وافته المنية في سنة 672هـ/1273-1974م. وهناك رأي آخر يقول إن باب الدرفيل هو باب آخر لا يتصل بباب سارية أو المدرج. وفي الفترة القصيرة التي تربع فيها على العرش السلطان بركة خان بيبرس - ذكر برج الرفرف وإن كان المقريري يعزو بناءه إلى الملك الأشرف خليل بن قلاوون⁽⁵³⁾.

القلعة في أيام السلطان المنصور قلاوون 679هـ-1279م:

كان أول ما شيده قلاوون في القلعة - القبة - التي أقامها في سنة 685هـ/1286م وإلى قلاوون يعزى بناء (دار البلدية) في سنة 687هـ/1288م وقد قطنها الأمير حسام الدين طرنتايومن بعده من نواب السلطنة وقد أنشأ قلاوون أشتاتاً من الأبنية لسكن مماليكه بالقلعة كما هيأ برجاً على مقربة من باب السر.

شبَّ حريق هائل في عام 684هـ/1285م ودمر القاعة الصالحية، وفي أيام خلافة ابنه الخليل 689هـ/1290م اندلع حريق آخر وعمر الخليل بن قلاوون برج الرفوف، ويقول المقريري عنه أنه: قد جعله عالياً يشرف على الجيزة كلها، وبيضة وصور فيه أرجاء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها، وكان له مجلس يجلس فيه السلطان واستمر جلوس الملوك به حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة 712هـ/1312م⁽⁵⁴⁾.

القلعة أيام الناصر محمد بن قلاوون:

انفرد الناصر بين سلاطين المماليك بطول مدة حكمه، فقد استمرت أيام سلطنته الثالثة وحدها اثنين وثلاثين سنة تقريباً، كما امتاز هو عن معظم هؤلاء السلاطين بحب عميق للبلد الذي ولد تحت سمائه وترعرع في أحضانه،

ذلك الحب الذي انعكس بأحلى صور فيما قام به من تعمير البلاد، وقد سار على نهجه الناس في عصره، «وكأنما نوذي في الناس ألا يبقى أحد حتى يعمّر، وذلك أن الناس على دين ملكهم». كما يقول المقرئ في سلوكه والواقع أن منذ قدوم الناصر من الكرك في سلطنته الثالثة إلى أن مات وهو في حركة تعمير متواصلة للبلاد، لا يكاد ينتهي من مشروع حتى يبدأ مشروعاً آخر، وقد كانت كلها مشروعات حيوية عظيمة الفائدة للبلاد، قصد بها منفعة الناس عامة والفلاحين خاصة أي أنه يهدف إلى زيادة الدخل القومي للبلاد⁽⁵⁵⁾.

والمنشآت التي أقيمت لمصلحته الخاصة لا تكاد تتعدى ثلاثة هي: القاعات السبع التي بناها لأجل جواريه داخل القلعة في المكان الذي يشغله اليوم قصر الجوهرة، القاعات السبع التي أنشأها خارج قلعة الجبل في المنطقة المعروفة اليوم بقلعة الكباش قرب مسجد ابن طولون، وقد خصصها لبناته لينزلن فيها للفرجة على مواكب السلطان في اتجاهها إلى الميدان الكبير، والآبار العشرة التي أمر بحفرها وجعل عمق كل منها نحو أربعين ذراعاً (أي ما يقارب من عشرين متراً)، وأمر بتركيب السواقي عليها حتى يرتفع الماء من النيل إلى القناطر ويجري عليها إلى القلعة حتى تزيد بذلك كمية المياه في داخل القلعة، وهذا المشروع الأخير لم تقتصر فائدته على شخص الناصر وأسرته لأن القلعة كانت يومئذ مقر الحكم وكانت فيها دواوين الدولة وقصور الأمراء⁽⁵⁶⁾. نجده قد عمر خارج سور القاهرة الفاطمي خمسة أحياء مستحدثة فازدهرت عاصمة ملكه وامتدت مساحتها، ويلاحظ هوايته للفنون الإسلامية حيث أن غالبية معروضات المتاحف الفنية في أوروبا وأمريكا والشرق من مخلفات عصر الناصر محمد وأمراء دولته وكبار رجالته⁽⁵⁷⁾. ومنشآت الناصر محمد في القلعة تناولها المؤرخ كازانوف في كتاب تاريخ القلعة بالتقسيم إلى ثلاثة أقسام:

1 / المنشآت التي ما زالت باقية إلى اليوم وهي:

أ. الجامع.

ب. البرج.

ج. الكتابة المنقوشة على باب السارية.

2 / المنشآت التي كانت باقية أيام الحملة الفرنسية هي:

أ. الإيوان.

ب. القصر الأبلق.

ج. الأسطة السلطانية.

3/ المنشآت التي أتى وصفها في كتب المؤرخين؛ شهاب الدين والقلقشندي والمقريزي⁽⁵⁸⁾:-

- أ. القصور الجوانية .
- ب. باب القلعة.
- ج. السبع قاعات.
- د. دار النيابة.
- هـ. باب النحاس.
- و. الطباق - ثكنات الجند.
- ز. الطبلخانة.
- ح. الحوش.
- ط. الاسطبلات.
- ي. الميدان.
- ك. قناطر مياه القلعة.

القلعة في أعقاب عصر الملك ناصر بن قلاوون:

ففي أيام خلفاء محمد بن قلاوون - الأبناء والأحفاد - شيد بعضهم طائفة من القاعات والقصور الصغيرة، كان منها قاعة الدهيشة والبيسرية.

قاعة الدهيشة:

عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن محمد بن قلاوون في سنة 745هـ، وذلك أنه بلغه عن الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماة أنه عمر بحماة دهيشة لم يبني مثلها فقد قصد مضاهاته، وبعث الأمير أقبغا المهندس لكشف حماة وكتب لنائب حلب ونائب دمشق بعمل ألفي حجر أبيض وألفي حجر أحمر من حلب ودمشق، وحشرت الجمال لحملها حتى وصلت إلى قلعة الجبل، واستدعي الرخام من سائر الأمراء وجميع الكُتّاب، ورسم بإحضار الصنّاع للعمل، وقد بلغ مصروفها خمسمائة ألف درهم، وعمل لها من الفرش والبسط والآلات. ولم يستطع أحد بعد من تفسير كلمة دهيشة فقد تكون (حماماً) أو ما يشبه المدرسة أو الربع⁽⁵⁹⁾.

قاعة البيسرية:

وشيد السلطان الملك الناصر حسن، أحد أبناء الملك محمد بن قلاوون، الذي اشتهر مسجده الرائع قبالة القلعة - قاعة البيسرية - ويقول عن هذه القاعة المقريري: كان ابتداء بنائها في أول يوم من شعبان سنة 761هـ، ونهاية عمارتها في الثامن من ذي الحجة، وعمل لهذا القاعة من الفرش والبسط ما لا تدخل قيمة تحت حصر، فمن ذلك تسعة وأربعون ثرياً بسرم وقود القنابل، جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة مئتا ألف وعشرون درهم، وكلها مطلية بالذهب، وجاء ارتفاع بناء هذه القاعة طولاً في السماء ثمانية وثمانين ذراعاً، وعمل للسلطان لها برجاً يبيت فيه من العاج والأبنوس مطعم يجلس بين يديه وأكتافه وباب يدخل منه وفيه مقرنص قطعة واحدة، يكاد يذهل الناظر إليها بشبابيك ذهب خالص وطرقات ذهب مصنوع وشرافات ذهب مصوغ صرف فيه ثمانية وثلاثون ألف مثقال من الذهب، ويصدر إيوان هذه القاعة شباك نهايته باب زويلة يطل على جنيّة بديعة الشكل⁽⁶⁰⁾.

القلعة في عهد السلاطين الجراكسة ١٣٨٢-١٥١٧م:

جرى ملوك أسرة الجراكسة على السكن في أبراج القلعة، وتركوا جزيرة الروضة حيث عاش معظم المماليك البحرية، وأول سلاطين الجراكسة السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق (784هـ/1382م)، ومن أعماله أنه جدد عمارة القناة التي تحمل مياه النيل إلى قلعة الجبل، وجدد عمارة الميدان من تحت القلعة بعد ما أضناه الخراب، بل وزاره ووزع فيه القرط وغرس به النخيل، وعمر صهرجياً يملأ بالمياه ومكتباً لتعليم أولاد المسلمين القرآن الكريم، وجعل عليه وقفاً كما عمر أيضاً بالقلعة طاحوناً وسبيلاً تجاه باب الضيافة قبالة

القلعة، وابتاع بسطاً لدار العدل سنة 787هـ / 1385م⁽⁶¹⁾. وأمر ببناء حائط بين الدرفيل وسور القلعة، وأن أقام حائط آخر في جوار باب الدرفيل إلى الجبل، وسد باب الدرفيل وباب سارية (الباب المدرج) تحت دار الضيافة. وهناك كتابة منقوشة تعزز أعمال التحصين التي سلفت، وهي بادية في جدار القلعة الذي يعزى إلى الخديوي؛ أمر تجديده⁽⁶²⁾.

القلعة في أيام العثمانيين 1517م - 1798م

بعد قيام السلطان سليم الأول بقياد حملة إلى مصر سلم مقاليد الحكم إلى الأمير خير بك الذي خان سيده السلطان الغوري وانضم إلى العثمانيين، وما أن تسلم زمام الأمر حتى صعد إلى القلعة في موكب فخيم مخترقاً الصليبة بالفجر، واستولى عليها، تحدوه الرغبة في إصلاح مبانيها، فأرسل في طلب البنائين والنجارين والمبطلين ليصلحوا ما أفسده العثمانيون⁽⁶³⁾.

دأب خير بك على إصلاح القلعة بينما كان العثمانيون دائمي السطو على دور الأتربة، فينزعون أبوابها وسقوفها ونوافذها ويحملونها على الجمل لبيعها في الأسواق بأبخس الأثمان، بل أكثر من ذلك كان جنودهم ينزعون أخشاب طباق القلعة ويستخدمونها في إيقاد النار لطهو طعامهم. وكان الأمير خير بك قد أمر قائد جنود الانكشارية بالصعود إلى القلعة وإحضار مكاحلهم وبنداقهم معهم فلمّا وصلوا إلى ثكناتهم امرؤا بإدخال تلك المكاحل والأسلحة في الزردخانه كما أمرهم بالإقامة في طباق القلعة ولا ينزلوا إطلاقاً إلى الميدان⁽⁶⁴⁾.

وفي يوم 27 ذي القعدة عام 926هـ / 20 ديسمبر 1520م أخذ خير بك مفاتيح الأمكنة التي في القلعة وسلمها لجماعة من الأتراك وطرد البوابين والغلمان، كما أبطل الطهارة وأقام جماعة من الترك لوضعهم وأبطل المقرئين الذين كانوا يتلون في القلعة والمؤذنين كذلك⁽⁶⁵⁾.

مسجد السارية (سليمان باشا) :

وكان هذا المسجد الذي أنشأه بالقلعة الوالي سليمان باشا 935هـ / 1528م على طراز مساجد الأستانة، استنبط طرازه من بعض الكنائس البيزنطية تعلوه قبة كبيرة مكسوة بالقاشاني، قبالتها صحن كبير مكشوف تحيط به أرصفة ذوات قباب صغيرة كسيت بالقاشاني، وفي داخل المسجد كتابة تاريخية عن إنشاء هذا الجامع نصها: «قد بنى وعمر الجناح العالي مملوك سلطان السلاطين سليمان سلطان بن سليم خان من آل عثمان - أدام الله دولته إلى يوم الدين - هو أمير الأمراء المصريين سليمان باشا - اللهم أجعله من الفائزين - مسجداً لوجه الله المعين طلباً لمرضاة رب العالمين، ليعبدوا فيه الله، فاركعوا لله مع الراكعين»⁽⁶⁶⁾.

مسجد أحمد كتحدا:

وقد شيد مسجد آخر بالقلعة في العهد العثماني وقد بناه الوالي أحمد كتحدا 1109هـ/1698م، وعلى أحد جدره كتابة باللغة التركية يستدل منها على اسم منشئه وتاريخ انشاء المسجد، وقد بين على خريطة القاهرة التي وضعها رجال الحملة الفرنسية في عام 1798م باسم المسجد الغربي. وأيضاً نهض الوالي إسماعيل باشا التركي 1111هـ-1116هـ بإصلاحات شتى في مباني القلعة، لا سيما في زاويتها الجنوبية الغربية حيث سكن الباشوات، وكذلك رمم قاعة الغوري التي بالبستان، وبنى صهريجا بداخل القلعة⁽⁶⁷⁾.

القلعة في أيام محمد علي وخلفائه 1805م-1936م:

مرت أربعة أعوام بين جلاء الفرنسيين وتولي محمد علي لمصر، لم تنعم البلاد خلالها باستتباب الأمن وأسباب السلام، وتشاء الظروف أن ينتقل محمد علي إلى القلعة ويتخذها موقعاً له، حين شبت في القاهرة فتنة الجند الأرناؤوط، ومنذ ذلك اليوم بدأ النشاط يسري في كل ركن من أركانها، وقد أصلح أسوارها، وأحيا أبراجها وأبوابها، وشيد فيها ثكن الجند ودواوين الحكم، ومصانة الذخيرة، ومدارس الجيش، وقصوراً للسكن، كما أمر ببناء مسجد⁽⁶⁸⁾.

ومن منشآت محمد علي في القلعة:

1. دار الضرب.
2. الدفترخانة (المحفوظات).
3. قصر الجوهرة.
4. قصر الحرم.
5. دار الصناعة⁽⁶⁹⁾.

الخاتمة :

بذل صلاح الدين جهوداً جبارة وكبيرة في محاربة الصليبيين، والتي كانت مليئة بالانتصارات الحاسمة، ومن قبلها استطاع القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية التي عمرت كثيراً، وتولى الوزارة في مصر بعد وفاة عمه شيركوه الذي لم يجلس سوى شهرين على كرسي الوزارة⁽⁷⁰⁾. وأراد صلاح أن يجعل مصر مقراً لأسرته، فقام ببناء القلعة التي على جبل المقطم والتي كانت تحت إشراف بهاء الدين قراقوش، والتي بذل فيها أموال طائلة وكان العمال أسرى الفرنجة ولكن صلاح الدين لم يجلس في القلعة، وتوفي وقام الكامل بإكمال البناء في القلعة وكان أول من جلس فيها هو الكامل. وحدثت تحسينات كثيرة في القلعة في عهد الأيوبيين والمماليك والأتراك

والعثمانيين وكان لمحمد علي باشا دور كبير فيها وكانت من أهم منشأته مسجده الفخم⁽⁷¹⁾.

النتائج:

1. تعتبر قلعة صلاح الدين من أضخم القلاع الحربية التي شُيدت في القرون الوسطى.
2. قام ببنائها بهاء الدين قراقوش، أشهر من عرفهم التاريخ الإسلامي في فترة الحروب الصليبية.
3. أسوار هذه القلعة الشامخة بها كثير من أحداث تاريخ مصر.
4. في العصر الأيوبي أصبحت القلعة مقراً للأسرة والحكم.
5. ازدادت أهمية القلعة في العصر الأيوبي والملوكي والعثماني حتى عهد محمد علي الذي قام فيها بإصلاحات كثيرة.
6. تمثل معلماً من معالم تاريخ العالم الإسلامي مثلها في ذلك قلعة حلب.

التوصيات:

1. ضرورة الاهتمام بالمناطق الأثرية والمحافظة عليها.
2. على الأجيال القادمة دراسة الشخصيات التاريخية للاستفادة من أعمالها العمرانية
3. معرفة مدى الدقة والجمال في العمارة التي برع المسلمون في تشيدها مثل ما وجد في القلاع والمساجد وغيرها من العمارة الإسلامية.

المصادر والمراجع

- (1) المقرئزي تقي الدين احمد بن علي (ت 845هـ)، السلوك لمعرفة الملوك - تحقيق محمد مصطفى زيادة - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة 4391م - 8591م ، ص1.
- (2) عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلع إسلامية معاصرة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، 0691م، ص5.
- (3) سعاد ماهر، القاهرة القديمة وأحيائها، مكتبة النهضة الوطنية، القاهرة، 2691م، ص43.
- (4) بول كازانوف، ترجمة أحمد دراج، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للمكتبات، القاهرة سنة 4931هـ-4791م، ص72-82.
- (5) بول كازانوف، نقلًا عن ابن خلكان: سيرة صلاح الدين مجموعة (، Histories , crosiades, 111,P.399)
- (6) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ط4، القاهرة، 1891م.
- (7) أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج5، القاهرة، 7691م، ص061.
- (8) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، القاهرة، 5531هـ/6391م، ص45.
- (9) ابو الفداء: اسماعيل بن علي بن عماد الدين 237هـ-2321م، المختصر في اخبار البشر، القسطنطينية 6821هـ-9681م، ج3، ص26.
- (10) نظير السعداوي، التاريخ العربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة، القاهرة، 7591م، ص59، وأحمد عبد الجواد الدمي: صلاح الدين الأيوبي، ط1، مؤسسة الخانجي، مصر 7691م، ص16-26.
- (*) كريكلان: برج نصف مستدير، يعرف ببرج الطرفة ومنه يمتد سور إلى برج المطر، نظير السعداوي، المرجع السابق، ص59.
- (11) صالح مجدي، ميادين الحصون والقلع، مرجع سابق، ص02.
- (12) أحمد عبد الجواد الدمي، مرجع سابق، ص26، 36، 46.
- (13) نظير السعداوي، المرجع السابق، ص79.
- (14) ابو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي 566هـ-8621م، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، دار الأندلس الخضراء (جدة)، ط2، 0241، ج2، ص73.
- (15) القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الانشاء (ت128هـ-81241م)، نسخة مصورة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، عن المطبعة الأميرية، بلا تاريخ، ج3، ص863-963.
- (16) المقرئزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار - طبعة بولاق - القاهرة 0721هـ - 3581م ج3، ص033، وعبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص56-66.
- (17) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص2، 399، Hist,Sc,et,milit,V,llp:399
- (18) أبو شامة، مصدر سابق، ج2، ص73.
- (19) نظير السعداوي، مرجع سابق، ص301.
- (20) حسن الباشا وآخرون، القاهرة تاريخها فنونها وآثارها، د. ط، د. م، ص974-084.

- (21) المقرئزي، الخطط، ج3، مصدر سابق، ص502.
- (22) المقرئزي، المصدر نفسه، ص132.
- (23) نظير السعداوي، مرجع سابق، ص301.
- (24) حسن الباشا وآخرون، مرجع سابق، ص701.
- (25) أبو شامة، مصدر سابق، ج2، ص73.
- (26) السيوطي، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة - تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم القاهرة1881م، ج1، ص13.
- (27) (27) حسن الباشا وآخرون، مرجع سابق، ص184، 284، 384.
- (28) نظير السعداوي، المرجع السابق، ص901.
- (29) المرجع نفسه، ص301.
- (30) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص4-14.
- (31) صالح مجدي، ميادين الحصون والقلاع، مرجع سابق، ص91.
- (32) المرجع نفسه ص91.
- (33) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص14-24.
- (34) نظير السعداوي، مرجع سابق، ص301.
- (35) أبو شامة، مصدر سابق، ج2، ص93.
- (36) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص8-9.
- (37) نظير السعداوي، المرجع السابق، ص401.
- (38) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص9-01.
- (39) المرجع نفسه، ص01-11.
- (40) أبو شامة، مصدر سابق، ج2، ص34.
- (41) 41(*) النوبة: بفتح النون الموسيقى العسكرية، ولا تزال تُضرب بالجزائر بعد العشاء، (بول كازانوف، مرجع سابق، ص99).
- (42) المرجع نفسه، ص89، 99، 001.
- (43) المرجع نفسه، ص001.
- (44) أبو شامة، مصدر سابق، ج2، ص54.
- (45) بول كازانوف، مرجع سابق، ص001-101.
- (46) الجبارج: الجُبرج بالضم من طير الماء جمع جبارجوجباريج.
- (47) الجامع الذي كان موجوداً بالقلعة في ذلك العهد وقد هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدخله في جامعته الذي أنشأه عام 817هـ وهذا الجامع لا يزال موجوداً.
- (48) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص31.
- (49) 49(3) المرجع نفسه، ص51.
- (50) ابن واصل، أبوعبد الله بن محمد بن سالم بن نصرالله المازني التميمي الشافعي الحموي، ت796هـ: شفاء القلوب ومفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق، جمال الدين الشيال وحسن

- محمد ربيع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 3591-7791م، ص 691
- (51) عبد الرحمن زكي، سابق، ص 41-51.
- (52) المقرئزي، الخطط، ج 3، مصدر سابق، ص 702.
- (53) سعيد عبد الفتاح عاشور، الناصر صلاح الدين، أعلام العرب، ص 531.
- (54) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص 51، 61، 71.
- (55) المرجع نفسه، ص 51، 61، 71.
- (56) محمد عبد العزيز مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د. م، د. ت، ص 203-303.
- (57) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص 02.
- (58) المرجع نفسه، ص 12.
- (59) المقرئزي، المصدر السابق، ص 212.
- (60) زكي محمد حسن، مرجع سابق، ص 79.
- (61) ابن إياس محمد أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور (ت 329هـ) عاصر سقوط دولة المماليك، تحقيق خليل إبراهيم دار الفكر سنة 2991م، ص 072.
- (62) لمقرئزي، الخطط، مصدر سابق، ج 2، ص 602.
- (63) العيني، بدر الدين محمود، ت 558هـ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط مصور، تحقيق محمد أمين، ص 422.
- (64) زكي محمد حسن، مرجع سابق، ص 79.
- (65) العيني، المصدر السابق، ص 102.
- (66) عبد الرحمن زكي، مرجع سابق، ص 95، 16.
- (67) القلقشندي، مصدر سابق، ص 072.
- (68) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 63.
- (69) حسن عبد الوهاب، مرجع سابق، ص 53.
- (70) أحمد باشا مبارك، الخطط التوفيقية، ج 5، ص 41.
- (71) سعيد عاشور، مرجع سابق، ص 97.

المواصفة السودانية للمكتبات الجامعية (دراسة تحليلية)

أ. مشارك - قسم المكتبات والمعلومات - جامعة النيلين

د. عبد الباقي يونس إسماعيل

المستخلص:

تهدف الدراسة إلى التعرف على عناصر مواصفة المكتبات الجامعية السودانية، والصعوبات التي تعوق تطبيقها في المكتبات الجامعية السودانية، فضلاً عن مساعدة المكتبات الجامعية السودانية للارتقاء بخدماتها وفقاً لمعايير ومؤشرات قياس معتمدة. وتتمثل أهمية الدراسة في أنها تساهم في التعرف على الإنتاج الفكري السوداني في مجال معايير المكتبات الجامعية السودانية وهي من الدراسات القليلة إن لم نقل النادرة في هذا المجال. وقد استخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي في التعرف على عناصر المواصفة السودانية للمكتبات الجامعية. كما استخدمت الاستبيان للتعرف على مدى تطبيقها في المكتبات الجامعية السودانية فضلاً عن المقابلة والملاحظة. توصلت الدراسة إلى أن عناصر المواصفة السودانية تمثلت في المبنى، الأثاث، الأجهزة، والموازنة والعاملين وكذلك بناء وتنمية المجموعات وتنظيمها وخدماتها. أما أبرز الصعوبات فقد تمثلت في ضعف الميزانيات وعدم وجود برنامج إعلامي للترويج للمواصفات السودانية. المكتبات الجامعية معايير المكتبات الجامعية المواصفات السودانية.

Abstract

The study aims to identifying the elements of the standard of the Sudanese university libraries and the difficulties that hinder its application, as well as help the Sudanese university libraries to upgrade their services. The importance of the study is represented in identifying the standards of Sudanese university libraries, and it is one of the few studies, if not rare, in this field. The study used the descriptive and analytical method. The questionnaire was also used to identify the extent of its application in Sudanese university libraries, as well as the interview and observation. The study found that the elements of the Sudanese standard were the building, furniture, equipment, budget and workers, as well as building and developing groups, their organization and services. The most prominent difficulties were weak budgets and the absence of an information program to promote Sudanese specifications.

University Libraries Sudanese standards

مقدمة:

المكتبة الجامعية هي مؤسسة علمية ثقافية تربوية اجتماعية تهدف إلى تجميع مصادر المعلومات وتنميتها وتنظيمها واسترجاعها وإتاحتها للمستفيدين، وذلك للمساهمة في تحقيق أهداف الجامعة التي تتمثل في البحث العلمي وتأهيل القوى البشرية وحماية التراث الإنساني.

لذلك تسعى المكتبات السودانية لتحقيق جودة الأداء في مختلف أنشطتها وخدماتها من خلال تطبيق المعايير ومؤشرات الأداء المعتمدة، مما يعني أن تطبيق المعايير لم يعد خياراً بل أصبح ضرورة حتمية في سبيل سعيها للاعتماد الأكاديمي الذي يمنحها مكانة متقدمة في تصنيف المؤسسات الأكاديمية. وتأتي هذه الدراسة للتعرف على عناصر الموصفة السودانية للمكتبات الجامعية وإمكانية تطبيقها في المكتبات الجامعية السودانية، من خلال مكتبة جامعة القرآن الكريم وهي تمثل نموذجاً للمكتبات الجامعية التي أنشئت حديثاً ومكتبة جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا وهي مكتبة قديمة فضلاً عن مساعدتها للارتقاء بخدماتها وأنشطتها وفقاً لمعايير ومؤشرات قياس معتمدة.

مشكلة الدراسة:

المعايير هي مجموعة من القواعد والاشتراطات الموضوعية التي يتم وضعها من قبل الجمعيات المهنية أو هيئات الاعتماد أو من مؤسسات حكومية من أجل قياس وتقويم خدمات المعلومات وذلك لتحقيق مستوى من الجودة تمكن المكتبات الجامعية من المساهمة الفعالة في تحقيق أهداف الجامعة.

لذلك قامت اللجنة الفنية للمكتبات والأرشيف التابعة للهيئة السودانية للمواصفات والمقاييس بإعداد موصفة المكتبات الجامعية لمساعدتها في الارتقاء بأنشطتها وخدماتها وفقاً لمعايير ومؤشرات قياس معتمدة، إلا أن الباحث لاحظ ضعف إلمام وتطبيق المكتبات الجامعية السودانية لهذه الموصفة، وتتمثل مشكلة الدراسة في الأسئلة الآتية:

1. ما هي عناصر موصفة المكتبات الجامعية السودانية؟
2. ما هي الصعوبات التي تعوق تطبيقها في مكتبات جامعة القرآن وجامعة السودان؟

مصطلحات الدراسة المواصفات

بيان دقيق بالاحتياجات الخاصة الواجب الوفاء بها أو الخصائص الأساسية التي يسأل عنها العميل سواء في خدمة أو سلعة ما أو نظام أو عمل.

المقاييس:

هي مقارنة ممارسات منظمة ما وأدائها مع ممارسات منظمة أخرى وأدائها وهي تهدف إلى تحديد المعايير أو أفضل الممارسات من أجل تطبيقها عند قياس الأداء وتحسينه، وتهدف عملية القياس إلى تحقيق الجودة من خلال تحديد: ماذا نفعل الآن؟ - كيف نؤدي هذا العمل؟ - كيف يؤديه الآخرون؟ كيف تؤدي هذا العمل وفق المقاييس؟ وما الذي يمكن تحسينه؟ وكيف؟

الدراسات السابقة:

دراسة **الخالدة، الخياط** ⁽¹⁾ تناولت تقييم تطبيق معايير الجودة في كليات جامعة البلقاء والكشف عن الفروق بين توقعات المستخدمين لتقديم الخدمة والخدمة المقدمة فعلياً من حيث التخطيط، العينة، والمعدات والتسهيلات المادية، واستخدمت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وقد توصلت الدراسة إلى أن أكثر الخدمات المتوقعة من قبل المستخدمين هي حفظ المراجع، أما أقل الخدمات المتوقعة هي المعلومات التي تهم المستخدمين. وفي دراسة **البداعبه، العوض، الحجي** ⁽²⁾ حيث هدفت إلى التعرف على مدى تطبيق معايير ضبط الجودة في المكتبات الأكاديمية بجامعة السلطان قابوس وذلك استناداً على معايير مكتبات التعليم العالي ومؤشرات (دوبي Dube) والصعوبات التي تحد من تطبيق تلك المعايير، استخدمت الاستبيان والمقابلة وتوصلت إلى أن هنالك تطبيق عالي إلى متوسط لمعايير ضبط الجودة في المكتبات الأكاديمية بالجامعة مع وجود صعوبات إدارية ومالية وتقنية ولغوية. وفي دراسة **فتحية** ⁽³⁾ هدفت الدراسة إلى الكشف عن معايير بناء وتجهيز المكتبات الجامعية من حيث التخطيط وموقع المكتبة وشكل المبنى وتقسيمات المبنى ومساحات وحدات المكتبة فضلاً عن الهدوء والإضاءة والتكييف والأثاث والأمن وحماية الوثائق. وتوصلت الدراسة إلى أن المكتبة الجامعية تعتبر إحدى المؤسسات الثقافية لذلك يجب تجهيزها عن طريق اختيار المبنى وتزويده بالأثاثات والأجهزة. وفي دراسة **الحناوي** ⁽⁴⁾ حيث هدفت إلى التعرف على مفهوم إدارة الجودة الشاملة وتطبيقها بالمكتبات الجامعية مع بناء أداة قياس للتعرف على متطلبات تطبيق إدارة الجودة الشاملة في المكتبات الجامعية فضلاً عن التوصل لدليل لتطبيق إدارة الجودة الشاملة، وتوصلت الدراسة إلى أن تطبيق إدارة الجودة الشاملة

أصبح ضرورة لمواجهة التحديات. وفي دراسة⁽⁵⁾ Taylor تناولت الدراسة إمكانية المكتبة الجامعية في الوصول إلى المعايير المطلوبة لأداء مهامها المتمثلة في دعم التدريس والبحث العلمي ويجب أن يتم تجميع المعايير بالتشاور مع أعضاء هيئة التدريس والباحثين كما يمكن جمعها من خلال المنظمات التي تصدر المعايير.

وفي دراسة فضل كليب⁽⁶⁾ هدفت الدراسة إلى بيان مدى تطابق المكتبات الجامعية للمعايير الأردنية الصادرة عن وزارة التعليم والبحث العلمي من وجهة نظر مديري المكتبات ورؤساء الأقسام فضلاً عن لفت نظر أصحاب القرار في الجامعات الأردنية إلى أهمية مطابقة المكتبات للمعايير فيما يتعلق بواقع المقتنيات والخدمات والنشاطات. وتوصلت إلى أن المكتبات الجامعية تطبق المعايير المعتمدة من وزارة التعليم العالي. وفي دراسة يسرا⁽⁷⁾ هدفت الدراسة إلى التعرف على واقع تطبيق الجودة الشاملة في المكتبات الجامعية السودانية واستخدمت المنهج الوصفي التحليلي، ودراسة الحالة وتوصلت الدراسة إلى عدم جودة الخدمات المقدمة للمستفيدين بسبب ضعف القوى العاملة والميزانية.

المكتبة الجامعية

المكتبة الجامعية هي مؤسسة علمية ثقافية تربوية اجتماعية تهدف إلى تجميع مصادر المعلومات وتنميتها وتنظيمها واسترجاعها وتقديمها إلى المستفيدين. حيث تعمل على المساهمة في تحقيق أهداف الجامعة التي تتمثل في البحث العلمي وحماية التراث والفكر الإنساني وتعليم وإعداد قوى بشرية مؤهلة، وذلك من خلال:

1. توفير مجموعات حديثة ومتوازنة وشاملة من مصادر المعلومات.
2. تنظيم مصادر المعلومات من خلال القيام بعمليات الفهرسة والتصنيف والتكشيف والاستخلاص.
3. تقديم خدمات المعلومات لمجتمع المستفيدين (الطلاب، أعضاء هيئة التدريس، الباحثين).

تدريب المستفيدين على حسن استخدام المكتبة ومصادر وخدماتها.⁽⁸⁾

المعايير:

تأتي أهمية المعايير من خلال دور الجامعات في تأهيل أفراد تتوفر فيهم المهارات المطلوبة لسوق العمل، فضلاً عن اللحاق بركب الجامعات المتقدمة في التصنيفات الدولية للجامعات على المستوى الدولي. والمعايير هي مجموعة محددة مسبقاً من القواعد والشروط أو المتطلبات المتعلقة بتعريف المصطلحات. والمعايير هي مجموعة من القواعد والاشتراطات التي تضعها الجمعيات المهنية والهيئات والمؤسسات الحكومية حيث يتم في السودان أن يقوم

المختصون بوضع المعايير تحت إشراف الهيئة السودانية للمواصفات والمعايير وذلك من أجل قياس وتقييم خدمات المكتبات ومجموعاتها والأنشطة والبرامج التي تتوفر على تقديمها. ويعرف دليل السياسات الصادر عن جمعية المكتبات الأمريكية ALA المعايير بأنها «تلك السياسات التي تعرف القيم والأسس المتعلقة بأداء المكتبة، والتي تكون ذات طابع شمولي يغطي نطاق واسع من الأنشطة والبرامج والخدمات التي تقدم في المكتبة وتحدد المؤشرات الكمية والكيفية لكل منها، وتلك تمكن من صوغ الغايات والأهداف التي يطمح إلى تحقيقها على مستوى المهنة والتخصص»⁽⁹⁾ ويعد المعيار خاصية لها خصائص عامة ومجردة تطبق على محتويات مختلفة، أما المؤشر فهو علامة يمكن ملاحظتها داخل المعيار سواء كمية أو نوعية.

فئات المعايير:

قسمت اللجنة التي وضعت المعيار العربي الموحد للمكتبات الجامعية تحت مظلة الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات (2013) المعايير إلى فئتين هما⁽¹⁰⁾:

1. معايير موحدة شاملة تغطي معظم جوانب العمل في المكتبات الجامعية، كالإدارة - وتنمية المجموعات والخدمات والمباني والعاملين وغيرها.
 2. معايير موحدة جزئية وهي عبارة عن الخطوط الإرشادية Guide lines والممارسات الفضلى best practices التي تركز على برنامج محدد أو خدمة بعينها.
- وهناك بعض التجارب الأجنبية في مجال المعايير منها:⁽¹¹⁾
- 1/ معايير جمعية مكتبات الكليات والمكتبات البحثية، فقد تم تشكيل لجنة مشتركة من جميعة مكتبات الكليات والبحوث وجمعية مكتبات البحوث وصدرت أول معايير للمكتبات الجامعية في أمريكا 1979م بعنوان

Standards for University Libraries

قد ركزت هذه المعايير على الخدمات إلى جانب المقتنيات، وحددت بعض المعايير الكمية والنوعية، وقد تمت مراجعتها وصدرت معايير جديدة 1989م وشملت تحديد الأهداف والأغراض والعوامل التي ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار عند تحديد الأهداف وتشمل [الميزانية ومصادر التمويل - والموارد البشرية - الإدارة - المجموعات - المبنى - الخدمات - التعاون] وكذلك قياس الإنجاز ومعايير التقييم. كما صدرت معايير أخرى في 2011م وشملت تسعة مؤشرات منها الكفاءة المؤسسية والقيم المهنية والدور التعليمي والاكتشاف والمجموعات والمساحة والإدارة والعاملون والعلاقات الخارجية.

2/ معايير الجمعية الفلبينية للمكتبات الأكاديمية والبحثية وقد صدرت في عام 2000م شملت ستة محاور رئيسية منها الإدارة والدعم المادي والمجموعات والعاملون والخدمات والتسهيلات المادية. وصدرت معايير أخرى في 2010م شملت الرؤية والرسالة والأهداف والإدارة والموارد البشرية والموارد المالية والمجموعات والخدمات والتسهيلات والروابط والمشاركة.

أما المعايير الجزئية فقد قام الاتحاد الدولي لجمعيات المكتبات ومؤسساتها (إفلا) من خلال قسم التزويد وتنمية المجموعات التابع للاتحاد بإصدار خطوط إرشادية تلقي نظرة على سياسة تنمية المكتبات وتتضمن العناصر الآتية:

دواعي وجود سياسة مكتبية لتنمية المكتبات.

الاختيار - التخطيط - العلاقات العامة - التعاون وتشارك المصادر.

عناصر سياسة تنمية المكتبات - تمهيد - عناصر عامة (المصادر - اللغات الأشكال - مصادر التمويل - السياسة) عناصر خاصة. - طرق تقييم المجموعات. - مؤشرات عمق المجموعات. - رموز اللغات. - تطبيق السياسات.

أما بالنسبة للمعايير العربية فقد كان هنالك معيار اتحاد الجامعات العربية للمكتبات الجامعية موزعاً ما بين المتطلبات العامة والموارد المالية والبشرية والتجهيزات المتوفرة، وقد اعتبر المعيار كل ما يتعلق بالمكتبة أحد العناصر اللازمة لاتمام الاعتماد مثل: (12)

1. محتويات المكتبة.
2. المؤشرات الكمية المتعلقة بالمكتبة والأجهزة التقنية.
3. أي مجلات محكمة تصدر من المؤسسة عن طريق المكتبة.
4. توفير موارد مادية تساهم في تدعيم المكتبة.
5. توفير المستلزمات التجهيزية للمكتبات المحوسبة.
6. توفير الموارد البشرية كل في تخصصه للعمل في المكتبة.
7. توفير تدريب مستمر على الجودة.
8. توفير المكتبات الحديثة المزودة بمصادر معلومات حديثة مرتبطة بشبكات المعلومات المحلية والعالمية.
9. توفير الأثاث المناسب.

تطبيق المعايير في المكتبات الجامعية:

هناك عناصر تعد بمثابة ضمانات لنجاح تطبيق المعايير في المكتبات الجامعية منها (13)

1. توفير كافة المتطلبات والإجراءات التي تضمن الالتزام بهذه المعايير بشكل فعلي.
2. تحديد واختيار مؤشرات قياس وتقويم الأداء التي تتلاءم مع رؤية ورسالة وأهداف الجامعة التي تتبعها المكتبة من جهة وضوابط تطبيق هذه المعايير من جهة أخرى.

3. تطبيق مرشحات تقويم أداء سواء إضافية أو أكثر تفصيلاً.
4. الخروج بنواتج out comes بناء على تلك المؤشرات تكون قابلة للقياس الكمي والكيفي وتتمحور حول تلبية احتياجات مجتمع المستفيدين.
5. تحليل ومقارنة البيانات والإحصائيات الخاصة بمختلف الأنشطة والبرامج والخدمات.

المواصفة السودانية للمكتبة الجامعية:

اشتملت على⁽¹⁴⁾

1. **المجال** حيث حددت المواصفة أنها تهتم بمطلوبات الجودة بالمكتبات الجامعية من حيث المباني ومكوناتها والأثاث والأجهزة والموازنة، العاملون ثم أنشطة المكتبة (بناء وتنمية المجموعات وتنظيمها وخدمات المعلومات).
2. **التعريفات** وهي المصطلحات المرتبطة بالمكتبة الجامعية مثل (المباني، الأثاث، الأجهزة، الموازنة، العاملون، اقتناء المجموعات، تنظيم المجموعات، الخدمات).
3. **عناصر المواصفة**⁽¹⁵⁾

المبنى:

1. يجب أن تشترك جميع الجهات بالجامعة في وضع خطة مبنى الجامعة (إدارة الجامعة، المستفيدون - المتخصصون في المكتبات الشئون الهندسية).
2. أن يراعي المبنى التغييرات والتطورات التي تحدث في المستقبل.
3. يجب توفير أماكن للخدمات العامة مثل (كافيتريا، حمامات، استراحات، مصليات، مسارج، مواقف انتظار السيارات).
4. يجب توزيع مساحة المكتبة بصورة تتناسب ومطلوبات الخدمة بها.
5. أن يكون مبنى المكتبة يطابق في مواصفاته لمبنى الجامعة من حيث (الحد الأقصى للارتفاع الداخلي، النوافذ، التوصيلات الكهربائية، مواد البناء).
6. في حالة عدم وجود مبنى للمكتبة بالجامعة يجب تخصيص جزء من مبنى الجامعة ليكون مكتبة على أن تتوفر فيه معايير المساحة والإضاءة والتهوية والتبريد.
7. يمكن توسيع مبنى موجود بإضافة أجزاء أو مكاتب مع تطبيق معايير المساحة والإضاءة والتهوية والتبريد.

موقع المكتبة:

1. حددت المواصفة موقع المبنى بأن يكون متوسطاً لمباني الجامعة مما يسهل الوصول إليه، وأن يقبل التعديل والتطورات المستقبلية.
2. أن يكون اقتصادياً في بنائه وبعيداً عن الضوضاء مع توفير التهوية والإضاءة الطبيعية.
3. أن يكون المبنى مؤمناً وملائماً لطبيعة المجموعات والعاملين والمستفيدين ويتيح الوصول إلى المقتنيات بسهولة ويسر.

4. أن تتقارب مكوناته بعضها البعض وأن لا تتعدى المساحة المشاعة 25% من جملة مساحة المكتبة.

مكونات المبنى:

يتكون مبنى المكتبة من:

1. الأقسام الإدارية (عميد المكتبة ونائبه، السكرتارية، المكتب التنفيذي).
2. الأقسام الفنية (بناء المجموعات، وتنظيم المجموعات، خدمات المستفيدين، التجليد والصيانة، الإعلام الإلكتروني، ضبط الجودة، التطوير، التدريب التسويقي، صيانة الأجهزة، المخزن).
3. قاعات الخدمات المباشرة (المطالعة، المراجع، الدوريات، المصادر الإلكترونية، المحاضرات، المؤتمرات، التدريب والتعليم المستمر، المواد التعليمية، المتحف).
4. المكتبات الفرعية ومكتبات الأقسام.

المساحة:

1. يجب أن تستوعب مساحة المكتبة الجامعية (10%) من مجموعة المستفيدين، وأن تكون مساحة القارئ (3.72) متر مربع.
2. أن تخصص (200) متر مربع لمناطق القراءة.

التهوية والإضاءة:

1. أن يوزع الهواء في جميع أرجاء المبنى بدرجة كثافة مناسبة.
2. يجب وجود جهاز تنقية الهواء من ثاني أكسيد الكربون.
3. يجب استخدام النوافذ التي يمكن فتحها وإغلاقها بإحكام.
4. يجب تجديد الهواء مع تثبيت ضغطه الداخلي عند درجة أقل من درجة ضغط الهواء الخارجي.
5. يجب المواءمة والمزج بين الإضاءة الطبيعية والصناعية بصورة توفر رؤية مريحة للمستفيدين.
6. مفاتيح الإنارة يجب أن تكون في أماكن لا يصل إليها إلا موظفو المكتبة.
7. أن تكون السلالم والممرات مضيئة حتى لا تشكل تهديداً أمنياً.
8. تم في المواصفة تحديد مستوى الإضاءة الصناعية حسب الوحدات الوظيفية للمكتبة .
9. أن تكون درجة الحرارة ما بين (20-22) درجة والرطوبة ما بين (40-45) أما في منطقة المجموعات تكون بين (45% - 55%).
10. مدى الضوضاء المسموح به (20 - 35) ديسيبل أما الإنذار (85) ديسيبل والخطر (90) ديسيبل.

الأثاثات:

1. أن تصنع الأجزاء التي تلامس المستخدم بطريقة آمنة وأن تكون المواد المستخدمة في التنجيد سهلة الفصل بغرض الصيانة.

2. توفير أرفف مفتوحة بحيث يسع الرف 10-25 مجلد بحجم 60 × 60 سم.
3. طاولات غرف الدراسة الجماعية بحجم 80 × 160 سم وتوسع من 4 - 8 أشخاص.
4. ضرورة وجود المقاعد الثابتة في قاعات المؤتمرات والاجتماعات.
5. أن تكون طاولات القراءة مستطيلة الشكل بحجم 90 × 150 سم.
6. أن تتوفر مقاعد تستوعب ما بين 10% - 25% من المستفيدين الذين تخدمهم المكتبة.
7. أن تتوفر كراسي استرخاء بمنطقة الدوريات بنسبة 25%.
8. أن توفر المقاعد الجلوس السليم للمستفيد من حيث الجلوس العرضي وحيث الأرجل ومسند الظهر.
9. أن تتوفر في المكتبة عربية الكتب وحوامل المجلات والصحف والأطالس والخرائط والدوريات، ومساند الرفوف والسلم المعدني والسبورة الضوئية وذلك للأغراض التعليمية.

الأجهزة:

1. يجب توفير جهاز حاسوب لكل موظف يتطلب عمله ذلك بملحقاته مع اعتماد نظام حوسبة متكامل لإدارة المكتبة.
2. يجب توفير أجهزة الجرد الآلي بتنظيم الأرفف والترقيم الإلكتروني.
3. يجب توفير أجهزة التأمين والمراقبة (بطاقات ممغنطة، بوابات التزويد، مكتشفات كسر الزجاج، أجهزة الإنذار والإطفاء بما يتناسب ومقتنيات المكتبة).
4. وجود أجهزة اتصال.
5. يجب توفير جهاز حاسوب طرفي لكل مستفيد.
6. توفير أجهزة الإعارة الذاتية وأجهزة لذوي الاحتياجات الخاصة.
7. أجهزة سمعية بصرية، شاشات، أجهزة التخزين الآلي.
8. توفير أجهزة ترجمة ومحادثة وتسهيل الكتابة وبرمجيات التعرف الضوئي التي تحول النص إلى وثائق سمعية.
9. أن تتوفر الخوادم وأجهزة الشبكة الداخلية والخارجية والطابعات والمساحات الضوئية وماكينات التصوير بمواصفات معيارية.

الموازنة:

1. يجب أن تكون موازنة المكتبة الجامعية من 5% - 10% من موازنة الجامعة السنوية.
2. أن تشمل الموازنة الإيرادات المتاحة فضلاً عن تقديرات النفقات اللازمة لتنفيذ الأنشطة المختلفة.
3. تتمثل أوجه صرف الموازنة في اقتناء أوعية المعلومات وأدوات الضبط

الببليوجرافي والاشتراك في خدمة الإنترنت وقواعد المعلومات وشراء الأجهزة وملحقاتها والأدوات المكتبية، وأجهزة المواد السمعية البصرية وآلات التصوير وأجهزة العرض وغيرها من المستلزمات فضلاً عن تأهيل وتدريب العاملين.

العاملون:

يتحدد عدد العاملين بالمكتبة الجامعية على احتياجات الخدمة الفعلية وعدد المستفيدين فضلاً عن ساعات المكتبة وطبيعة مواردها وحجمها كما تحدد المهام والمؤهلات المطلوبة لكل وظيفة حسب مطلوبات المكتبة وتضم المكتبة الفئات الآتية:

أ. المهنيين، وهم المتخصصون في علوم المكتبات والمعلومات ومنهم عميد المكتبة، نائب عميد المكتبة، رؤساء الأقسام الوظيفية (بناء وتنمية المجموعات، المعالجة الفنية، خدمات المستفيدين). أمناء المكتبات الفرعية، مساعدو أمناء المكتبات، ملازمو المكتبات.

ب. غير المهنيين، وهم فنيو الحاسوب والاتصالات والمناولون، المحاسبون، السكرتاريا، الإداريون.

يجب أن تكون نسبة المهنيين في المكتبة في حدود 60% من عدد العاملين فضلاً عن أن يكون هناك ستة عاملين لكل (1000) ألف مستفيد

ج. مهام العاملين.

1. عميد المكتبات، يقوم بالتخطيط الإداري والمهني للمكتبة وإعداد الموازنة واختيار الموظفين وتحديد المهام والمسؤوليات المنوطة بهم ومتابعة تنفيذ مهامهم، وإدارة أقسام المكتبة فضلاً عن تحديد الواجبات والمسؤوليات المنوطة بكل وحدة.
2. نائب عميد المكتبات، مساعدة عميد المكتبات في مهامه.
3. رؤساء الأقسام، إدارة الأقسام وإعداد التقارير الإدارية وتقديم الاقتراحات والسياسات لتطوير العمل.
4. أمين المكتبة الفرعية، إدارة المكتبة الفرعية.

الأنشطة:

1. بناء المجموعات عند بناء وتنمية مجموعات المكتبة الجامعية يجب تحديد أدوات الاختبار (قوائم الناشرين، الببليوجرافيا وغيرها) ولغات المصادر وهذه تعتمد بصورة أساسية على لغة التدريس في الجامعة فضلاً عن حداثة المصادر وصحتها، أشكالها، وتكلفتها، وعدد نسخ العنوان الواحد.
2. يجب إشراك مجتمع المستفيدين في عملية اختيار المصادر والتي يجب أن تعكس احتياجات المستفيدين.
3. يجب وضع سياسة تراعي أهداف المكتبة في ما يخص الإهداء والإيداع والتبادل مع المؤسسات الأخرى.
4. حددت المواصفة الحد الأدنى لإنشاء مكتبة جامعية أن يكون عدد المصادر

- حوالي خمسة عشر ألف عنوان تمثل المراجع الأساسية 5% منها.
5. أن تكون الزيادة السنوية في 2% لمصادر المعلومات الورقية و1% لمصادر المعلومات الإلكترونية.
6. أن يتم الجرد السنوي للمكتبة مع وجود سجل ورقي أو إلكتروني بمصادر المعلومات التالفة والمفقودة وكيفية التعامل معها ومصادر المعلومات المتأخرة وإبلاغ مسؤولي التوريد.
7. ضرورة وجود سياسة مكتوبة وموثقة ومعتمدة لاستبعاد مصادر المعلومات كما يمكن استغلال إمكانات التصوير المصغر والحفظ الإلكتروني في الاحتفاظ بنسخ من المصادر المستبعدة.
8. أن تكون هنالك سياسة لتحديد مصادر المعلومات التي تتطلب تجليد وصيانة مع اتباع الطرق العلمية في التخزين.

تنظيم المجموعات:

وهي تضم العمليات الفنية المتمثلة في الفهرسة والتصنيف والتكشيف والاستخلاص.

يجب إعداد سياسة لتنظيم المجموعات يتم فيها تحديد أدوات الضبط الببليوجرافي المستخدمة في الإعداد الفني فضلاً عن تحديد مدى زمني لا يزيد عن ثلاثين يوماً كحد أعلى لإعداد التسجيلات الببليوجرافية وإتاحتها للاستخدام.

1. يجب توفير أدوات العمل الببليوجرافية والاستنادية لكل العاملين.
2. اعتماد نظام تصنيف وأحدث قوائم رؤوس الموضوعات والقوائم الاستنادية.
3. اعتماد واستخدام التقنيين الدولي للوصف الببليوجرافي مع متابعة التطورات الحديثة في المجال.
4. يجب إنتاج الأدوات الاستراتيجية مثل الفهارس والكشافات وأدلة المستخلصات.
5. وجود قواعد البيانات.
6. اعتماد نظام آلي تتوفر فيه النظم الفرعية للمجموعات والفهرسة وضبط الدوريات والإعارة وإدارة المجموعات الإلكترونية بما يحقق أهداف المكتبة.

خدمات المستفيدين:

1. يجب وضع سياسة معتمدة للخدمات تحدد شروط ووسائل تقديمها.
2. يجب تحديد مجتمع المستفيدين.
3. يجب تحديد أنواع خدمات المستفيدين التي تقدمها المكتبة مع تشجيع استخدام المصادر المتاحة على الإنترنت.
4. ضرورة وجود موقع إلكتروني للمكتبة يساهم في عرض خدمات المكتبة.
5. يجب وضع لوائح لخدمة الإعارة توضح عدد الكتب المستعارة من وحدة الإعارة وغرامات التأخير والفقدان والإتلاف.

6. يجب تحديد فئات مستحقي الإعارة مع عدم إعارة الأدلة والموسوعات ودوائر المعارف والتقارير والأطالس والخرائط والرسائل الجامعية والمخطوطات وغيرها من أوعية المعلومات المرجعية والكتب ذات النسخة الواحدة والمتعددة الأجزاء.
7. للمكتبة الحق في استرجاع الكتب المعارة متى ما رأت ذلك.
8. يجوز للمكتبة التي تقدم خدمات الاطلاع الداخلي والتصوير والتي قد تكون مقابل رسم أو مجاناً، كما يمنع تصوير الكتاب أو الدورية بأكملها.
9. أن تقوم المكتبة بتدريب المستفيدين وذلك للاستفادة من خدماتها والرد على الاستفسارات.
10. أن تقدم المكتبة خدمات البحث في قواعد المعلومات المتاحة من خلال الإنترنت أو الأقراص المدمجة أو الاتصال المباشر.
11. تقديم خدمة الإحاطة الجارية والبحث الانتقائي للمعلومات فضلاً عن خدمات الإعارة بين المكتبات.
12. تقديم خدمات إعداد الببليوجرافيات والكشافات والمستخلصات وتسويق خدمات المعلومات والرقمنة.

اشتراطات السلامة:

1. تصميم مخارج الطوارئ بحيث تفتح من الداخل إلى الخارج مع تزويد الممرات بطفايات الحريق وخرائط مياه الإطفاء.
2. وجود إشارات ترشد إلى أبواب الخروج عند حالة الطوارئ.
3. توفير نقاط لوضع النفايات ومصدر دائم نظيف لمياه الشرب.
4. تدريب العاملين بصورة عامة وأفراد الأمن والسلامة بصفة خاصة على استخدام أجهزة مقاومة الحريق.
5. إلمام العاملين بكل وسائل الاتصال بوحدة الأمن والسلامة.
6. توفير أنظمة إطفاء تناسب طبيعة الأثاث والأجهزة.

- تلك هي عناصر المواصفة السودانية للمكتبات الجامعية ومن خلالها يمكن ملاحظة الآتي :
1. عرفت المواصفة مصطلحات مقومات خدمات المعلومات بالمكتبات والتي تتمثل في المباني والأثاث والأجهزة فضلاً عن الموازنة والعاملين وكذلك الأنشطة وهي اقتناء المعلومات وتنظيمها وخدماتها.
 2. بالنسبة لمبنى المكتبة أوضحت المواصفة أن المبنى يتم بمشاركة بين جميع الجهات في المكتبة هي إدارة الجامعة، وأمناء المكتبات، فضلاً عن الشؤون الهندسية وهو يشمل مبنى إدارة الجامعة والعمليات الفنية (المعالجة الفنية، بناء المجموعات، خدمات المستفيدين والتجليد والصيانة، بالإضافة إلى قاعات الإطلاع والمراجع والدوريات وكذلك أماكن الخدمات مثل الكافيتريات والحمامات والاستراحات والمصليات والمسرح.

3. ويلاحظ أن المبنى قد خلا من تحديد منطقة المدخل مع أهميتها لأنها تجمع بين وظيفة حصر وتسجيل بيانات المستفيدين عند الدخول للمكتبة وكذلك الرد على استفساراتهم السريعة، وهي المكان الذي يجب أن تتوفر فيه مقاعد للانتظار فضلاً عن أجهزة حواسيب للبحث السريع وأيضاً أماكن لعرض مقتنيات المكتبة الجديدة (الكتب والدوريات).

أما موقع مبني المكتبة فقد حدد في المواصفة أن يكون وسط مباني الجامعة ويسهل الوصول إليه بعيداً عن الضوضاء على أن تقتارب مكوناته إلا أنه يجب الفصل بين أماكن الحركة مثل مناطق الإعارة وخدمات المستفيدين وبين قاعات القراءة ذات الطبيعة الهادئة.

كما تم تحديد مساحة المبنى بحيث تستوعب 10% من المستفيدين وبالتالي بالنظر إلى مواصفات المبنى التي تم تحديدها في المواصفة من حيث مكوناته وموقعه ومساحته

3 / العاملون بالمكتبات الجامعية هم المهنيون المتخصصون في علوم المكتبات والمعلومات وغير المهنيين هم فنيي الحاسوب والاتصالات والكتبة، ويجب أن تكون نسبة المهنيين إلى غير المهنيين (3 : 2) حيث حددت المواصفة نسبتهن، كما حددت تسمياتهم بالنسبة لتسميات وظائف العاملين في المكتبات الجامعية نلاحظ الآتي:

- حددت المواصفة المسؤول الأول للمكتبة بعميد المكتبات أما في بعض قوانين الجامعات في السودان أطلق على المسؤول الأول اسم أمين المكتبة.
- في المكتبات الجامعية التي تستخدم مسمى عميد المكتبات نجدها تستخدم مسمى (أمين مكتبة) ومساعد أمين مكتبة لبقية المتخصصين، أما في المكتبات التي تستخدم مسمى أمين مكتبة نجدها تستخدم مسمى (مساعد أمين مكتبة) لبقية المتخصصين

وهنا يبرز عدم توحيد تسميات الوظائف في المكتبات الجامعية السودانية لذلك يجب حسم الأمر عن طريق اعتماد مسمى المواصفة وهو عميد المكتبات وذلك حتى نستخدم مسمى واحد لكل المتخصصين، فضلاً عن أن مسمى عميد يجعل أمين مكتبة الجامعة في مصاف عمداء الكليات وهو ما يتيح للمكتبة وضع أفضل.

حددت المواصفة عدد العاملين بناءً على عدد المستفيدين ولكن يجب إدخال عوامل أخرى يتم بناءً عليها تحديد عدد العاملين منها حجم المجموعات ونوعية الخدمات التي تقدمها المكتبة.

4 / حددت المواصفة اختيار أوعية المعلومات بتحديد أدوات الاختيار ولغات المصادر وحدثتها مع اشتراك المستفيدين في عملية الاختيار إلا أننا نرى تحديد سياسة لاختيار أوعية المعلومات تعتمد على البرامج الدراسية وخطط البحث العلمي في الجامعة وتحقيق رؤية ورسالة وأهداف الجامعة وحجم الميزانيات المرصودة ومساحة المبنى.

أما في ما يخص جرد المجموعات يجب تحديد مدة زمنية لإجراء الجرد وهي غالباً ما تكون ما بين سنة إلى ثلاث سنوات.

5/ تناولت الموصفة خدمات المعلومات في المكتبة الجامعية التقليدية والحديثة التي تتمثل في البحث في قواعد المعلومات وخدمات الإنترنت إلا أن هناك الآن الخدمات الرقمية وهي الرد على الاستفسارات عبر قنوات الاتصال، الإذاعة الإلكترونية مع وجود سياسات لتسويق خدمات المعلومات بالمكتبة، وكذلك الموقع الإلكتروني للمكتبة من خلال الإنترنت والذي يشمل شعار المكتبة ومعلومات الاتصال بالمكتبة وصفحة توثيقية بالمكتبة لتشمل روابط ورسالة وأهداف المكتبة وساعات العمل وطرق التواصل ومجموعات المكتبة وأنشطتها وأخبارها وكيفية البحث في الفهارس والسياسات الخاصة بالمجموعات والمعالجة الفنية والخدمات وغيرها.

تطبيق الموصفة في المكتبات الجامعية السودانية:

مكتبة جامعة القرآن الكريم :-

تسعى المكتبة إلى مساندة العملية التعليمية والبحث العلمي من خلال تقديم خدمات المعلومات وتيسير الوصول إليها وتتكون من المكتبة المركزية وهي تسع حوالى (500) مستفيد ومكتبة مركز الطالبات وتسع (220) مستفيد ومكتبة المدينة الجامعية وتسع (180) مستفيد مع عدد من المكتبات الفرعية وتشمل أقسام التزويد والإجراءات الفنية والخدمات والرسائل الجامعية وقسم التجليد ويتكون الهيكل الإداري من عميد المكتبات ونائبة بالإضافة إلى الأقسام الوظيفية.⁽¹⁶⁾

مكتبة جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا:-

في عام 2004 تطورت المكتبة إلى عمادة شؤون المكتبات وتتمثل أهدافها في بناء وتنظيم المجموعات وتقديم خدمات المعلومات وهي تتكون من عدد من المكتبات الفرعية موزعة في الكليات وتضم أقساماً إدارية عميد المكتبات ونائبه وأقساماً وظيفية وهي قسم التزويد والفهرسة والتصنيف وخدمات القراء وقسم إدارة قواعد البيانات ووحدة التجليد.⁽¹⁷⁾

مبنى المكتبة :-

مبنى المكتبة يجب أن تشترك فيه كل الجهات في الجامعة (إدارة الجامعة وأمناء المكتبة والشؤون الهندسية) فضلاً عن توفر أماكن الخدمات.

جدول رقم (1) يوضح مدى ملاءمة مبنى المكتبات الجامعية لمعايير الموصفة

1/ مبنى المكتبة	%		%		%
هل اشتركت كل الجمعيات بالجامعة في وضع خطة المبنى	نعم	لا	×	لا أدري	%
هل تتوفر أماكن للخدمات العامة	نعم	لا		أحياناً	×
ما هي طبيعة مبنى المكتبة					

1/ مبنى المكتبة	%		%		%	
هل يتوسط مباني الجامعة	نعم		لا		أحياناً	×
هل يتوفر فيه :- الأمن	نعم	×	لا		أحياناً	
ملائم لطبيعة المجموعات	نعم	×	لا		أحياناً	
ملائم للعاملين والمستفيدين	نعم	×	لا		أحياناً	
الأقسام الإدارية	نعم	×	لا		أحياناً	
الأقسام الفنية	نعم	×	لا		أحياناً	
قاعات الخدمات المباشرة	نعم		لا		أحياناً	×
هل تستوعب المساحة 01% من مجموعة المستفيدين	نعم		لا	×	أحياناً	

ومن خلال الجدول أعلا نلاحظ أن مباني المكتبات الجامعية في السودان والتي شملتها الدراسة لم تشترك الجهات المعنية في خطة وضع المبنى أما بالنسبة لأماكن الخدمات فتتوفر فيها بعض الخدمات مثل الحمامات والمصليات أما بالنسبة لبقية أماكن الخدمات مثل الكافتيريا والاستراحات والمساح ومواقف انتظار السيارات فهي أماكن خدمات تتشارك فيها المكتبة مع بقية وحدات الجامعة الأخرى وليس لديها أماكن خدمات خاصة بها. ويعود السبب في ذلك إلى أن مباني المكتبات الجامعية التي شملتها الدراسة هي عبارة عن مبان خصصت للمكتبة وليست مبان تم تخطيطها لتكون مكتبة. أما موقع مبنى المكتبة ففي بعض الجامعات كان متوسطاً لمباني الجامعة وفي بعضها الآخر لم يكن كذلك كما أمن الذين استطلعهم الدراسة أن المبنى آمن لحد ما وأنه ملائم لطبيعة المجموعات والمستفيدين والعاملين. ويرى الباحث أن هذا الأمر نسبي لحد ما خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن المباني غير مخصصة للمكتبة وإنما تم تحويلها لتكون مكتبة. تتكون مباني المكتبات الجامعية التي استطلعها الدراسة من أقسام إدارية (العميد أو أمين المكتبة ونائبه والسكرتاريا وغيرها) وكذلك الأقسام الفنية (بناء وتنمية المجموعات والمعالجة الفنية وخدمات المستفيدين).

أما قاعات الخدمات المباشرة فنجد أن قاعات المطالعة والمصادر الإلكترونية هي أكثر القاعات توفراً في المكتبات عينة الدراسة، أما قاعات المحاضرات والمؤتمرات والتدريب والمواد التعليمية والمتحف فهي غير متوفرة في المكتبات فضلاً عن أنه لا تتوفر معايير المساحة في المكتبات الجامعية وهي سعة (10%) من مجموع المستفيدين.

ونلاحظ أن معظم مباني المكتبات الجامعية السودانية بعيدة عن مواصفات المبنى الذي حددته المواصفة حيث إن كل المباني هي عبارة عن مبان تم تحديدها لتكون مكتبة وليست أصلاً أنشئت مكتبة عليه يجب تحديد مساحة مبنى المكتبة بناء على حجم المقتنيات وعدد المستفيدين والعاملين ونوعية الخدمات التي يجب أن تقدمها المكتبة.

الأثاثات:-

في ما يخص الأثاث ومدى توافره بالمكتبات الجامعية لعينة الدراسة.

جدول رقم (2) يوضح مدى توفر الأثاث بالمكتبات الجامعية

5 / الأثاثات					
%		%		%	
	أحياناً		لا	×	نعم
	أحياناً		لا	×	نعم
	أحياناً		لا	×	نعم
	أحياناً		لا	×	نعم
	أحياناً	×	لا		نعم

نلاحظ أن هنالك وجوداً للرفوف والطاولات والمقاعد وعربات الكتب فضلاً عن غياب حوامل المجلات. ويلاحظ أن هناك عدم تناسب في أثاثات المكتبة وعدد المستفيدين وكما ذكرت في المبنى أن المكتبات الجامعية عبارة عن مبان محددة فضلاً عن ضعف الميزانية.

الأجهزة:-

جدول رقم (3) يوضح مدى توفر الأجهزة بالمكتبات الجامعية

6 / الأجهزة					
%		%		%	
	أحياناً		لا	×	نعم
	أحياناً	×	لا		نعم
	أحياناً	×	لا		نعم
	أحياناً	×	لا		نعم
×	أحياناً		لا		نعم

من خلال هذا الجدول نلاحظ توفر أجهزة الحاسوب في المكتبات عينة الدراسة حيث توجد أجهزة خاصة بالموظفين والأخرى للمستفيدين من خلال المكتبة الإلكترونية. ولكنها لا تتناسب مع أعداد المستفيدين لذلك نجد أن هنالك وجوداً لأجهزة الحاسوب وملحقاتها كالمطابعات وأجهزة التلفون كأدوات اتصال إلا أن أجهزة الجرد الآلي والترقيم الإلكتروني والبطاقات المغنطة والبوابات الإلكترونية وأجهزة الإعارة الذاتية وأجهزة ذوي الاحتياجات الخاصة فضلاً عن أجهزة المواد السمعية البصرية وشاشات العرض جميعها لا تتوفر في المكتبات الجامعية.

الموازنة

في ما يخص الموازنة فقد أوضح أمناء المكتبات ⁽¹⁸⁾ أن هناك ميزانية تخصص للمكتبة من قبل إدارة الجامعة دون تحديد نسبة معينة حيث حددت المواصفة 5 - 10 % من ميزانية الجامعة حيث نجد أن إدارات الجامعات لا تلتزم بالنسبة المخصصة وهي 5-10% من ميزانية المؤسسة حيث ترتبط الميزانية في المكتبة بمواقيت قيام معارض الكتب وتخصص نسبة من ميزانية الجامعة لشراء أوعية المعلومات حيث يخصص الجانب الأكبر منها للكتب أما رواتب العاملين بالمكتبة فهي لا تحسب ضمن ميزانية المكتبة وإنما ضمن ميزانية الجامعة. أما الاشتراك في قواعد البيانات وشراء الأجهزة فهو يتم خارج الموازنة. العاملون تتوفر جميع فئات العاملين في المكتبات الجامعية باستثناء فنيي الحاسوب فيتم الاستعانة بإدارة تقنيات المعلومات وكذلك جميع المكتبات الجامعية عينة الدراسة لها سياسة لتنمية المجموعات وتنظيمها وتقديم خدمات المستفيدين ⁽¹⁹⁾ أوضح أيضاً أمناء المكتبات أن هناك غياباً لاشتراطات السلامة من حيث مخارج الطوارئ وتدريب العاملين على استخدام أجهزة مقاومة الحريق مع توفر وسائل إطفاء الحرائق.

صعوبات تطبيق المواصفة

- عدم الإعلام عن المواصفة السودانية للمكتبات الجامعية فضلاً عن عدم نشرها مما يعني أن كثيراً من العاملين في المكتبات الجامعية السودانية لم يكن لديهم علماً بالمواصفة.
- كثير من المكتبات الجامعية السودانية لم تكن مشاريع مكتبات وإنما مبان حورت لتكون مكتبة لذلك من الصعب جداً أن يسعى العاملون في المكتبات للحصول على المواصفة والعمل على تطبيقها لأن المكتبات أصلاً هي مكتبات قائمة بالفعل، خاصة فيما يخص مقومات المكتبة التي تتمثل في المبنى والأجهزة والأثاث وغيرها.
- ضعف الميزانية في معظم المكتبات الجامعية الأمر الذي يجعل القائمين على أمر المكتبة عاجزين عن تغيير واقع المكتبة وفقاً للمعايير العلمية المعروفة، وبالتالي نجدهم لا يسعون للحصول على المواصفة أو التعرف عليها.
- اللجنة الفنية للمكتبات والأرشيف والتي تعمل تحت إدارة الهيئة السودانية للمواصفات والمقاييس ليس لديها برنامج إعلامي للترويج للمواصفات التي تعدها وذلك بسبب سياسات الهيئة التي تمنع نشر مواصفاتها فقط يتم إتاحتها على أساس تجاري.

الخاتمة

- تناولت الدراسة التعرف على مواصفة المكتبة الجامعية السودانية وصعوبات تطبيقها في المكتبات الجامعية السودانية، وتوصلت الدراسة للآتي:
1. تم تحديد مجال المواصفة بحيث تناولت متطلبات الجودة بالمكتبة الجامعية من حيث مقومات الخدمة والأنشطة والوظائف التي تقوم بها المكتبة.
 2. تناولت المواصفة مبنى المكتبة الجامعية ومواصفاته، وموقع المكتبة ومكوناته، فضلاً عن مساحته، وكذلك التهوية والإضاءة والضوضاء.
 3. حددت المواصفة مواصفات الأثاث (المقاعد، الطاولات، أرفف الكتب) وأجهزة الحاسوب والمواد السمعية والبصرية ووسائط التخزين وأجهزة الجرد الآلي والترقيم الإلكتروني، مع بيان الأجهزة الخاصة بالعاملين وكذلك بالمستفيدين، فضلاً عن الأجهزة المشتركة بين المستفيدين والعاملين.
 4. تناولت المواصفة موازنة المكتبة ونسبتها إلى ميزانية الجامعة وأوجه صرفها، وكذلك العاملين وتقسيماتهم ومسمياتهم.
 5. حددت أنشطة المكتبة الجامعية التي تتمثل في بناء تنمية المجموعات وكيفية اختيارها وأدوات الاختيار المستخدمة وطرق الحصول عليها وتنظيم أوعية المعلومات (الفهرسة والتصنيف والتكشيف والاستخلاص) وأدوات الضبط الببليوجرافي المستخدمة وكذلك خدمات المعلومات التي يجب أن تقدمها المكتبة الجامعية وطرق تقديمها واشترطات السلامة.
 6. أما أبرز الصعوبات فقد تمثلت في المبنى من حيث أن كثيراً من مباني المكتبات الجامعية هي مبان تم تحويلها لتكون مكتبة، وبالتالي من الصعب تطبيق المواصفة فيما يخص المبنى من حيث الموقع والمساحة ومكوناته.
 7. أيضاً من حيث الأجهزة نجد أن المكتبات الجامعية تتوفر بها أجهزة الحواسيب وملحقاتها مع غياب تام لأجهزة الجرد الآلي والترقيم الإلكتروني والبوابات الإلكترونية وأجهزة ذوي الاحتياجات الخاصة كل ذلك بسبب ضعف الميزانيات.
 8. قوانين الجامعات في السودان بعضها يستخدم مسمى عميد المكتبات وأخرى تستخدم مسمى أمين مكتبة للمسؤول الأول في المكتبة ولكل مبرراته رغم أن المواصفة حددت مسمى عميد المكتبات. كما تم تحديد عدد العاملين بناءً على عدد المستفيدين مع إهمال تام لعدد من العوامل المهمة منها حجم المجموعات ونوعية الخدمات.
 9. عدم وجود برنامج إعلامي للترويج للمواصفات السودانية التي تعدها اللجنة الفنية بسبب سياسة الهيئة السودانية للمواصفات والمقاييس.

وبناءً على نتائج الدراسة فقد أوصت بالآتي:

- أن تعمل الهيئة السودانية للمواصفات والمقاييس بالتعاون مع الجمعية السودانية للمكتبات والمعلومات على نشر المواصفة والترويج لها في الجامعات السودانية.
- أن تتبنى وزارة التعليم العالي ممثلة في الوحدة المسؤولة عن ضبط الجودة والاعتماد في مؤسسات التعليم العالي هذه المواصفة.
- أن تعمل اللجنة الفنية للمكتبات والأرشيف التابعة للهيئة السودانية للمواصفات والقياس على المراجعة الدورية للمواصفة واتباع سياسة إعلامية للترويج لها.

المصادر والمراجع

- (1) محمود عبد الخوالدة. تقييم مدى تطبيق معايير إدارة الجودة الشاملة في المكتبات الجامعية / محمود عبد الله، ماجد محمد الخياط، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات التربوية والنفسية، مج21، ع1، (2013) ص 501-533.
- (2) شيماء بنت سعود البداعية / معايير ضبط الجودة في المكتبات الأكاديمية / شيماء بنت سعود، علي بن سيف العوض، خلفات بن زهران الحجي.
- (3) Journal of information studies & technology (dist.) volume 2018. Issue 24 - 1 ص
- (4) , <http://do1.orh/10.5229/just> متاح على
- (5) فتحية قاسم. معايير بناء وتجهيز المكتبات الجامعية / فتحية قاسم؛ ربيحي قاسم، مجلة التراث، جامعة زيان عاشور بالجلق، مج19 سبتمبر 2015. ص 171-185.
- (6) حسن أحمد الحناوي. تطوير مكتبات الجامعات المصرية في ضوء معايير إدارة الجودة الشاملة، /إشراف غادة عبد المنعم، أماني زكريا الرمادي، الإسكندرية، المؤلف 2008. (رسالة دكتوراه). - ص 286
- (7) Taylor., D. Standards Collection develop in an academic library “collection Building vol. 18 No. pp148-152(1999) <https://dor.org>
- (8) فضل جميل كليب. مدى مطابقة المكتبات الجامعية في الأردن / فضل كليب، دجانة صبري. - مجلة الزرقاء للبحوث والدوريات الإنسانية، مج16، ع1. (2016). - ص 14 - 27
- (9) يسرا حبيب حسن (2016) واقع تطبيق الجودة الشاملة في المكتبات السودانية رسالة ماجستير /إشراف عمر حسن عبد الرحمن. - ص 170
- (10) <http://khartoumspace.uotk.edu/handle/123656789> متاح على

- (11) أحمد بدر. المكتبات الجامعية / أحمد بدر، محمد فتحي عبد الهادي، القاهرة: دار غريب، 2001. - ص 31
- (12) - 9 / عبد الله حسين متولى. حتمية الاعتماد على المعايير في المكتبات الجامعية. ص 1 <http://blog.naseej.com> متاح على
- (13) - 10 / شريف كامل شاهين، أسامة السيد محمود، يسرية عبد الحليم زايد. المعيار العربي الموحد للمكتبات الجامعية. جدة: الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، 2013. - ص 15
- (14) - 11 / المرجع السابق نفسه، ص 16 - 29
- (15) - 12 / المرجع السابق نفسه، ص 41
- (16) - 13 / عبدالله حسين، مرجع سبق ذكره، ص 1
- (17) 14 / السودان، الهيئة السودانية للمواصفات والمقاييس. المواصفة السودانية للمكتبات الجامعية. الخرطوم: اللجنة الفنية للإرشاف. 2015. - ص 2
- (18) - 15 / المرجع السابق نفسه، ص 20 3
- (19) - 16 / يوسف حسن حسين. اثر الادارة الاستراتيجية على أداء المكتبات الجامعية بولاية الخرطوم / اشرف ابوبكر الصديق. الخرطوم : جامعة الخرطوم، 2015 (رسالة دكتوراة). - ص 150- 154
- (20) - 17 / جامعة السودان. عمادة شؤون المكتبات. دليل مكتبات جامعة السودان. الخرطوم : جامعة السودان ، 2014. - ص 8- 10
- (21) - 18 / مقابلة مع يوسف حسن. رئيس قسم الدوريات بمكتبة جامعة القرآن الكريم، مارس 2021
- (22) - 19 / مقابلة مع نجاة أحمد محمد. عميد مكتبات جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، مارس 2021
- (23) - 20 / نجاة وليم. معايير جودة الأداء في مكتبات مؤسسات التعليم العالي بالسودان، المؤتمر الخامس والعشرون للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات بعنوان معايير جودة الأداء في المكتبات

ومراكز المعلومات والأرشيف، تونس: الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات 2014. - ص 1_38

(24) <http://search:mandumah.com> متاح على

(25) الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات. مؤشرات اعلم لقياس أداء المكتبات، مجموعه من المؤلفين.

جده 1435. - ص 157 - 234

المجتمع والاقتصاد في الحجاز في العهد العثماني الثاني (1256-1334هـ / 1840-1916م)

طالبة دكتوراه - جامعة الملك عبدالعزيز كلية الآداب
والعلوم الإنسانية-قسم تاريخ حديث

أ. سماح علي عبد الله العماري

المستخلص:

تُلقي هذه الدراسة الضوء على المجتمع والاقتصاد في ولاية الحجاز خلال العهد العثماني الثاني -1256 1334هـ / 1840-1916م، وتهدف الدراسة إلى رصد الأوضاع الاقتصادية في ولاية الحجاز، عن طريق استعراض الأنشطة الاقتصادية التي مارسها المجتمع الحجازي خلال فترة الدراسة، وتنبع أهمية الدراسة من المكانة الدينية والاستراتيجية التي حظيت بها الحجاز، وذلك لاحتضانه المقدسات الإسلامية مكة المكرمة والمدينة المنورة، ولارتباطه بطرق التجارة العالمية، البرية والبحرية، والتي كان لها تأثير كبير على الوضع والنشاط الاقتصادي لسكان الحجاز. اتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي. وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج من أهمها: لم تكن ممارسة الأنشطة الاقتصادية حكراً على الحجازيين، بل شارك فيها الوافدون العرب مثل الحضارمة و المصريين وغيرهم وكذلك الأجانب كالهنود و الأتراك وغيرهما. تُعد تجارة إعادة التصدير (الترانزيت) هي عماد النشاط التجاري في جدة، ويعود ذلك إلى توسط موقعه على طرق التجارة العالمية مما جعله محطة التقاء تجارية ما بين الشرق والغرب. ساعدت الوكالات التجارية ومكاتب النقل والشحن على سهولة حركة التجارة من وإلى الحجاز، إلا أنها من وجهة نظرنا ساهمت في تطلع التجار المحليين بالدول الخارجية ذات السطوة الاقتصادية للاستفادة من امتيازاتهم الاقتصادية والتسهيلات التي حصلوا عليها، ولعل هذا الأمر ساعد على عدم وجود وحدة وطنية بين هؤلاء تساهم في خلق الدافع إلى النهوض باقتصاد المنطقة وبالتالي اقتصاد الدولة ككل. اختص سكان البادية بعدد من الأنشطة كالرعي والجمالة واشتغل القليل منهم بالزراعة، إلى جانب ممارسة التجارة مع سكان المدن وقوافل الحجاج. وتوصي الدراسة بضرورة إجراء دراسات خاصة للوكالات التجارية وآثارها الإيجابية والسلبية على التجارة والتجار في ولاية الحجاز.

Abstract

This study sheds light on the society and economy in the Hejaz Province during the second Ottoman era 1256-1334 AH / 1840-1916 AD, and the study aims to monitor the economic conditions in the Hijaz State, by reviewing the economic activities that the Hijaz community practiced during the study period, and the importance of the study stems from the position. The religious and strategic interests of the Hijaz, due to its embrace of the Islamic holy sites of Mecca and Medina, and for its connection with international trade routes, land and sea, which had a great impact on the economic conditions of the state of Hijaz. The study followed the historical, descriptive, and analytical approach, and the study reached several results, the most important of which are: The practice of economic activities was not restricted to the Hijazis, but rather Arab expatriates such as Hadarms, Egyptians and others participated in it, as well as foreigners such as Indians, Turks and others. The re-export trade (transit) is the mainstay of it. Commercial activity in Jeddah, due to its mediating location on international trade routes, making it a commercial meeting Station between East and West. Commercial agencies and transport and freight offices helped facilitate the movement of trade to and from the Hejaz, but from our point of view they contributed to the aspiration of local merchants in foreign countries with economic power to benefit from their economic privileges and the facilities they obtained, and perhaps this matter helped in the absence of national unity among those who contribute In creating the impetus for

the advancement of the region's economy and thus the country's economy as a whole. The inhabitants of the Bedouins specialized in a number of activities such as herding and camels, and a few of them worked in agriculture, in addition to practicing trade with city dwellers and pilgrims' caravans. The study recommends the necessity of conducting special studies for commercial agencies and their positive and negative effects on trade and commerce in the state of Hijaz.

المقدمة:

تعد ولاية الحجاز من أهم أقاليم شبة الجزيرة العربية المطلة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، فهي تقع في الشمال الغربي من شبة الجزيرة العربية، و تمتد من معان شمالاً مروراً برأس خليج العقبة إلى نقطة بين الليث والقنفذة جنوباً، ويحدها غرباً البحر الاحمر⁽¹⁾. أما حدودها الشرقية فتصل إلى تربة والخرمة في نجد، وتمتد الولاية بين خطي عرض 20 و30 شمالاً⁽²⁾ ويبلغ طول أرض الحجاز حوالي 700 ميل (1126 كم)، وعرضها 250 ميلاً تقريباً (400 كم)⁽³⁾. وسمي حجازاً، لأنه فصل وحجز بين تهامة ونجد، وقيل بين اليمن والشمال .

تنقسم الأراضي الحجازية بشكل عام من حيث التضاريس إلى قسمين : الأول عبارة عن سلسلة من الجبال التي تمتد بموازاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر تمر خلالها بعض الأودية التي احتضنت القرى والمدن . أما القسم الثاني عبارة عن منطقة ساحلية تسمى تهامة بين جبال السروات والبحر الأحمر بعرض متفاوت يضيق من الشمال ويتسع من الجنوب إلا أنه لا يزيد عن خمسة وعشرين كم⁽⁴⁾.

ترجع أهمية الحجاز في المقام الأول إلى مركزه الديني، حيث يضم الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، اللتين تعدان مهوى أفئدة المسلمين، وقد جعلت هذه المكانة العظيمة للحجاز أهمية في المشهد التاريخي والسياسي العربي والإسلامي وحرصت مختلف القوى الإسلامية على أن يكون لها شرف حمايته ورعايته⁽⁵⁾، إضافة إلى ذلك كان لموقعه الجغرافي أهمية اقتصادية باعتباره مركزاً لتجارة القوافل البرية، التي تنطلق من جدة إلى مكة المكرمة ومنها إلى بلاد نجد، بخلاف القوافل التي تتجه إلى بلاد عسير واليمن جنوباً، والأخرى التي تتجه إلى الشمال باتجاه الطريق السلطاني، الذي يربط

بين جدة والمدينة المنورة، ومنها شمالاً إلى بلاد الشام . وفي موازاته شريان آخر كان له أهميته في حركة التجارة العالمية هو طريق البحر الأحمر⁽⁶⁾ . وتضم الحجاز عدة مدن تأتي على رأسها المدن المقدسة كما ذكرنا (مكة المكرمة، والمدينة المنورة)، وجدة، والطائف، وينبع البحر . وأشهر موانئ الحجاز من الشمال: جدة، وينبع البحر، والليث، والوجه، وضباء، المويلح، والقضيمة⁽⁷⁾ .

يتألف المجتمع الحجازي من مكونين أساسيين: البدو (سكان البادية)، والحضر (سكان المدن)⁽⁸⁾ . ويتألف البدو من قبائل و عشائر رحل يسكنون الخيام⁽⁹⁾، ويشكلون ثلثي سكان الحجاز⁽¹⁰⁾ . ومن قبائل الحجاز : مطير، بنو سليم، عتيبة، بنو الحارث، البقوم، سبيع، بنو مالك، ثقيف، قريش، هذيل، حرب، وجهينة، وبلي، الحويطات، بنو عطية، عنزة، الشرارات، بنو سعد، عدوان⁽¹¹⁾ . أما سكان المدن، فيتألفون من خليط من أهل الحجاز العرب ومنهم الأشراف وأعداد من المقيمين العرب المسلمين من المصريين والشاميين والحضارمة واليمنيين وأجناس غير عربية تشمل الهنود والأتراك والأفارقة والأفغان وسكان آسيا الصغرى⁽¹²⁾ الذين استقروا لأسباب دينية أو تجارية أو علمية وخاصة في مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة⁽¹³⁾ . وقد دخلت الحجاز سلمياً تحت الحكم العثماني عام 920 هـ / 1516م عندما أرسل الشريف بركات ابنه أبا نمي إلى القاهرة ليهنيئ السلطان سليم الأول -بانتصاره على المماليك - ومعه مفاتيح الكعبة المشرفة، في دلالة على قبول الحجاز للحكم العثماني⁽¹⁴⁾ ، مما أضفى على الدولة العثمانية زعامة دينية في العالم الإسلامي⁽¹⁵⁾ .

وقد أقر السلطان الأشراف على إدارة شؤون الحجاز وتمتعوا بامتيازات وصلاحيات عديدة منها : تنظيم الحج، والإشراف على سلامة قوافل الحج، الاعفاء من الضرائب⁽¹⁶⁾، توزيع أموال الصرة العثمانية⁽¹⁷⁾ ، والفصل في النزاعات بين القبائل، وغيرها من الصلاحيات، ولذلك تمتع الاقليم باستقلال شبه ذاتي تحت حكم الأشراف وكان وجود العثمانيين اسماً واكتفى السلاطين بذكر أسمائهم في خطب الجمعة وإبداء الولاء لهم، وانحصرت مظاهر الحكم العثماني موظف برتبة سنجق بك⁽¹⁸⁾ في مدينة جدة يتقاسم واردات جمرك الميناء مع أمير مكة، بالإضافة إلى إشرافه على الحاميات العسكرية العثمانية في جدة والمدينة المنورة، وكذلك الاهتمام بشؤون الحرم المكي⁽¹⁹⁾ .

استمر الحكم العثماني في الحجاز حتى عام 1218هـ / 1803م عندما سيطرت الدولة السعودية الاولى على الحجاز.كانت السيطرة السعودية، مصدر تهديد للدولة العثمانية ومكانتها في العالم الإسلامي، ولذلك حرصت الدولة

العثمانية على استعادة تلك المكانة، والقضاء على الدولة السعودية الاولى فكلفت والي مصر محمد علي باشا بذلك⁽²⁰⁾. استطاع محمد علي باشا أن يقضي على الدولة السعودية الاولى في عام 1233 هـ / 1818 م وأسس له سلطة داخل الحجاز عرفت في تاريخ المنطقة بالفترة المصرية امتدت حتى عام 1256 هـ / 1840 م⁽²¹⁾. بعد أن فرضت الدول الأوروبية على محمد علي معاهدة لندن التي جردته من كل ممتلكاته خارج إقليم مصر، وأجبرته على إعادة بلاد الشام و الحجاز و اليمن إلى السلطة العثمانية⁽²²⁾.

عادت الحجاز إلى تبعيتها للسلطة العثمانية المباشرة ولكن لم تعد له استقلاليتها التي تمتع بها خلال العهد العثماني الأول، إذ عينت الدولة أحد الباشوات الاتراك والياً لتقليص صلاحيات شريف مكة، وأعطته بعض الصلاحيات منها الاشراف على ولاية الحبش ومشيخة الحرم المكي⁽²³⁾، وجعلت مقره جدة في بداية الأمر، للحد من التصادم بشرافة مكة المكرمة إضافة إلى مكانة جدة كميناء استراتيجياً وتجارياً مهماً على البحر الأحمر⁽²⁴⁾، وبذلك بدا عهد جديد في العلاقة بين الأمير و الوالي من خلال قيام السلطان بتحديد صلاحيات كل منهما وخلق نوع من التوازن بين سلطتيهما، وإن كان على نحو غير دقيق، مما أدى إلى حدوث كثير من المشاحنات بين الاثنین انعكست على شؤون الاقليم واستقراره ومعاش سكانه⁽²⁵⁾.

ووفقاً لقانون الولايات الصادر عام 1864 م والهادف إلى تنظيم إدارة الولايات العثمانية فقد تحول الحجاز من إيالة إلى ولاية تتكون من :

أ. ولاية الحجاز، ويأتي والي الحجاز على رأس الجهاز الاداري، ويعين بفرمان سلطاني، ويساعده عدد من الموظفين الإداريين.

ب. إمارة مكة المكرمة وهي العاصمة الادارية للولاية، ومقر الشريف، وتلحق بها ناحية الطائف .

ج. متصرفية (لواء) المدينة المنورة: ويسمى القائم المتصرف عليها محافظ المدينة المنورة، وتلحق بها ناحية خيبر، أما الأقضية التابعة لها فهي :

1. ينبع البخر وتتبعها ناحية أملج.
2. الوجه وتتبعه النواحي ضبا وعلا وعقبة .
3. سوار قبة .
- د. متصرفية جدة: ويسمى القائم عليها قائم مقام (26) الوالي، وتلحق بها ناحية رابغ، وقضاء الليث.

وكان لكل قائممقامية مجلس يتكون من القائم مقام، ونائب الشرع الشريف، وأمور المالية، إضافة إلى بعض الاهالي الذين يختارهم شريف مكة

المكرمة⁽²⁷⁾. وهكذا فقدت الشرافة في الحجاز بعض نفوذها التقليدي الذي اعتادت عليه إبان العهد العثماني الأول، وخفت هيمنة الاشراف على البلاد، خاصة بعد افتتاح قناة السويس عام 1869م التي عززت من نفوذ الدولة العثمانية في الولاية بشكل أكبر⁽²⁸⁾. وبعد هذا التطواف عن ولاية الحجاز، نشير إلى أن أهمية الحجاز الدينية وموقعه الجغرافي على خطوط التجارة العالمية لم تكون السبب في جذب أنظار القوى الإسلامية -والأوربية في وقت لاحق - نحوه فقط بل انعكست على الوضع والنشاط الاقتصادي لسكانه، إذ كان للدين خاصة أهمية كبرى كمحرك أساسي للنشاط الاقتصادي في ولاية الحجاز⁽²⁹⁾.

الأوضاع الاقتصادية في ولاية الحجاز:

كان لموقع الحجاز على البحر الأحمر واتصاله ببلاد الشام شمالاً واليمن جنوباً برّاً، وبمصر برّاً وبحراً، وتجارته مع إفريقيا والهند، أثره العظيم في النشاط التجاري داخل شبة الجزيرة العربية وخارجها، وبهذا أصبحت مدن الحجاز محطات تجارية،⁽³⁰⁾ ومما زاد النشاط التجاري فيها موسم الحج السنوي الذي يعتبر الحدث الرئيسي في الحجاز⁽³¹⁾.

الحج :

لم يقتصر موسم الحج على النواحي الدينية فحسب، بل كان سوقاً كبيرة يفد إليه كثير من التجار من شتى البلدان، مستفيدين من إعفائهم من الرسوم الجمركية لبضائعهم⁽³²⁾، فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان أهل المغرب يحضرون معهم الطرابيش الحمراء، والمعاطف الصوفية، كما كان الأتراك والأوربيون يحضرون معهم الأحذية، والصنادل، والأدوات المعدنية، والأكياس الحريرية⁽³³⁾. أيضاً كان هناك عدد من الحجاج الأثرياء ينفقون كثيراً من أموالهم على الفقراء والمحتاجين والعاملين على شؤون الحج⁽³⁴⁾.

وقد تعددت في موسم الحج الأنشطة التجارية، وتوافرت كثير من فرص العمل مثل تأجير البيوت⁽³⁵⁾، وازدهرت بعض المهن كالطوافة، وهي خدمة تقدم للحاج منذ وصوله إلى مكة المكرمة وحتى مغادرته لها وتشمل إرشاده إلى أداء مناسك الحج بشكل صحيح، و تأجير الجمال، والسكن، وإحضار الذبائح إلى منى وغيرها من الخدمات. وقد حدد للمطوف مبلغ من المال مقابل خدماته على كل حاج من قبل الإدارة المحلية، بعد حصوله على تصريح لمزاولة المهنة من قبل أمير مكة، وكان يتم بيع التصاريح بمبالغ باهظة، في العهد العثماني الثاني، وأضحى ذلك يتكرّر في العام الواحد عدة مرّات لكسب المزيد من المال⁽³⁶⁾، ونظراً لأهمية هذه المهنة

من الناحية التجارية، فقد جمع الشريف عون الرفيق من المطوفين عام 1904م 2,668 جنيهاً إسترلينياً⁽³⁷⁾.

كذلك من المهن التي ازدهرت في موسم الحج مهنة الجمالة، التي احتكرها البدو نتيجة سيطرت قبائلهم على طرق المواصلات التي تمر بها قوافل الحجاج⁽³⁸⁾، وقد كانت هذه القوافل مصدراً رئيسياً للدخل لهؤلاء البدو من خلال الاعطيات، وفرصة للتجارة بين الطرفين، إلى جانب نقلهم للحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة⁽³⁹⁾. وكان للجمالة هيئة المخرجين تتولى مسؤولية تأمين الجمال والجمالة وتتبعهم جماعة أخرى تعرف بالمقومين وهم من يتولون تقدير حمولة الجمل من عفش الحجاج وركوبهم⁽⁴⁰⁾. وكانت أجرة الجمل تقدر في كل عام في بداية موسم الحج على حسب الوضع السائد، وعدد الحجاج، وطمع الأمير والوالي⁽⁴¹⁾. ففي عام ١٨٩٠م كانت أجرة نقل الحاج من جدة إلى مكة خمسين قرشاً، إلا أن الحاج كان يدفع ١٠٠ قرش، خمسون منها تقسم بين المطوف ورئيس الجمالة والشريف، والباقي للجمال. ويلاحظ أن أجرة نقل الحجاج بالجمال كانت تزداد بازدياد الحجاج فقد بلغت 12 ريالاً وفي بعض الأحيان بلغت 30 ريالاً⁽⁴²⁾. ونتيجة لذلك اعترضت القنصلية البريطانية في جدة عام 1896م وأرسلت لوالي الحجاز أحمد راتب باشا تطلب تخفيض أجور النقل للحجاج، ولكن الوالي رفض ذلك⁽⁴³⁾.

أيضاً من المهن التي انتعشت خلال موسم الحج الصرافة. وقد كان سبب نشوء هذه المهنة عدم وجود بنوك في ولاية الحجاز عامة وجدة خاصة. وكانت مهمة الصرافين تقوم على بيع وشراء العملات الأجنبية والمحلية⁽⁴⁴⁾، وخاصة في موسم الحج، حيث يصل الحجاج إلى ميناء جدة وهم يحملون عملات بلادهم الأصلية التي يحتاجون إلى تبديلها بالعملات المحلية المستخدمة في التداول التجاري في أسواق جدة والحجاز عامة⁽⁴⁵⁾. ولذلك لم يكن سعر صرف العملات ثابتاً، وكان سعر الصرف يرتفع بعودة الحجاج إلى أوطانهم وما ينتج عن ذلك من ندرة العملات الأجنبية⁽⁴⁶⁾. ويعد موسم الحج مورداً مهماً للنشاط التجاري الداخلي في ولاية الحجاز، وذلك من خلال ما ينفقه الحجاج من أموال طائلة مدة إقامتهم في الأماكن المقدسة من مأكّل وإقامة وضرائب - كالحجر الصحي⁽⁴⁷⁾، وبما يعودون به لأهلهم من هدايا وغيرها، ولهذا ترتفع الأسعار في موسم الحج، مما يساعد على تحقيق أرباح وفيرة للتجار⁽⁴⁸⁾. ولذلك ارتبط اقتصاد الحجاز في صعوده وهبوطه بزيادة أو انخفاض ثروة الحجاج وأعدادهم⁽⁴⁹⁾، وقد انعكس ذلك ليس على التجارة الداخلية فحسب بل على

التجارة الخارجية (الواردات والصادرات وإعادة التصدير - الترانزيت -) لولاية الحجاز ، وهذا ما سنوضحه لاحقاً⁽⁵⁰⁾ .

التجارة:

تُعد جدة المركز التجاري الرئيس للحجاز الذي تُوفر عن طريقها معظم احتياجاتها، ولاتقتصر أهمية جدة على أنها بوابة مكة المكرمة و الحجاز الجنوبي، بل هي بوابة لعبور السلع بين مصر والهند والجزيرة العربية ومنهم إلى بلاد الشام و دول أوروبا، وهذا ما جعلها من أهم موانئ البحر الأحمر . لم تكن غالبية العاملين في التجارة من الحجازيين، وإنما خليط من الاتراك والجاويين والهنود والعرب سواء كانوا مصريين أو حضارمة، وكان الهنود، والحضارمة أكثر التجار عدداً وتأثيراً⁽⁵¹⁾ . وقد اعتاد معظم سكان جدة على ممارسة جميع أنواع التجارة والتبادل التجاري والنقل البحري، ومهروا فيه وقد عرفوا بالجد والاجتهاد، وهذا ما جعل ميناء جدة يكتسب شهرة دولية، حيث كان ملاذاً للسفن العابرة للبحر الأحمر⁽⁵²⁾ .

يأتي ميناء ينبع في المرتبة الثانية بعد ميناء جدة، فهو البوابة البحرية للمدينة المنورة وبوابة الحجاز الأوسط⁽⁵³⁾ ، فقد كان قسم من معونات الدولة العثمانية سواء الواردة من إسطنبول أم من مصر، ترسل بحراً من السويس إليه، وكانت أهم واردته الغلال المخصصة للمدينة، أو مواد البناء المرسله للحرم النبوي الشريف ، ولذلك كان لتجار المدينة وكلاء في ينبع من عرب جهينة⁽⁵⁴⁾ ، الذين مهروا في التجارة واستقر البعض منهم في القاهرة، والسويس، والقصير، وربما بدا هؤلاء كوكلاء تجارة، ثم أصبح لهم الريادة في هذا النشاط بين ينبع ومصر⁽⁵⁵⁾ .

أما ميناء رابغ الذي يقع شمال جدة، فقد اشتهر بحركته التجارية الداخلية التي ربطت بينه وبين مينائي جدة وينبع⁽⁵⁶⁾ .

ومن الجدير بالذكر أنه ساعد ظهور الوكالات الخارجية والبيوت التجارية الكبيرة، ومكاتب النقل، والشحن على سهولة حركة التجارة وظهرت وكالات كثيرة في الحجاز، كالوكالات الهندية، والمصرية، والمغربية ،و الحضرمية .

صادرات و واردت ولاية الحجاز :

كانت المواد الغذائية من أهم واردات الحجاز، لأن إنتاج منطقة الحجاز من تلك المواد لا يفي بمتطلبات السكان .

من أهم الواردات إلى جدة البن، إضافة للمنتجات الهندية التي سيأتي ذكرها لاحقاً، حيث يرتبط استيرادها بالحركة التجارية في مصر، وقد تأثرت تجارة جدة بظهور تجارة البن الهندي وتصديره من غرب الهند مباشرة إلى

الموانئ العثمانية، بعد أن كانت جدة تعتمد اعتماد شبه كلي علو تجارة البن اليمني وتصديره إلى مناطق آسيا الصغرى و سوريا . لم تكن زراعة البن خارج الجزيرة العربية المؤثر الوحيد في تراجع تجارة البن اليمني، فقد أثرت الأحداث السياسية في اليمن، ومحاولة العثمانيين إعادة حكمهم المباشر إليها، سلبياً في إنتاج البن وبيعه، بل إنخفاض تصدير البن من جدة وإليها كان مرده إلى بيعه مباشرة إلى المستثمرين العثمانيين في الموانئ اليمنية، ونتيجة لذلك أصبح أغلب البن الوارد إلى الحجاز يأتي من الهند، والقليل من اليمن، إضافة إلى البن الوارد من مصر والذي كان مصدره السودان عن طريق الحبشة من منطقة هرر (57) .

يوضح جدول رقم 1 أهم المناطق الرئيسية التي كانت الحجاز تتلقى منها واردتها (58) :

المنطقة	البضائع
الهند، كلكتا، بومباي، سورات	السكر، الأرز، الفلفل، الأخشاب، التوابل، الحرير، الزيت، الشاي، العطور، القماش الكشميري، البخور، القطن، الأسرة الخشبية، التخف، الملابس الهندية، جوز الهند، التمر الهندي
شرق آسيا ، جاوه، سيلان، ينانج، الصين	السكر النباتي، البخور، المسك، الصواري، القرفة .
العراق، البصرة، بغداد	القمح، الشعير، الرطب، الشالات الحريرية، السجاد
مصر	القطن والملبوسات القطنية ، القمح، الكحل، الأرز، الصابون المصري والسوري، البن، الزعفران، الزجاج، الحديد، النحاس، الفضيات، البورسلين الأوربي
الساحل العربي القصير، اليمن، مسقط وعمان، ينبع، حضرموت، بقية الساحل، سواحل البحر الأحمر،	الشعير، الرقيق، الفحم النباتي، الأذرة الرفيعة، الرطب، الأغطية والجلود، الصمغ والتوباكو، اللآتي، عرق اللؤلؤ، المرجان الأحمر، الخشب، عطر الورد، نبات السنا، البن، اللبان، الذخن، اليسر

المنطقة	البضائع
فارس والخليج العربي	الرطب، السجاد العجمي، بذور القمح، السيوف، اللؤلؤ
أفريقيا، الساحل النوبي، السودان والساحل الأفريقي	الزبد، الصمغ، الشحوم النباتية، الرقيق والزباد، والبن، وريش النعام، العاج، القطن، شمع عسل النحل
أوروبا	السكر الأبيض، الذهب، المرسلين، الكتان، الكبريت، الطحين
تركيا	الصابون، التبوك، عطر الورد، السجائر، الفلفل، المنسوجات القطنية
بريطانيا	الزئبق، الرصاص، القطن، الشاي، الخردوات، الأصباغ، الكبريت الخام، النحاس، حجر الشب، الصودا، الفحم، الملابس، خيوط الغزل، ونثرات أخرى
أمريكا	البترول
بلاد الشام	الحرير المصنع، التبوك، المرحان الأحمر، والعنبر
روسيا	البترول

يقدم الجدول السابق تفصيلاً عن المناطق والبضائع التي كانت ترد إلى الحجاز، والتي يمكن تقسيمها كالتالي:

1. المنطقة الشرقية، وتشمل الهند، وجزر جاوه، وسومطره، والصين.
2. المنطقة الغربية، والسويس بما فيها المناطق الأوربية والتي ترد بضائعها عن طريق السويس.
3. منطقة الخليج العربي، والعراق، وبلاد فارس (إيران حالياً).
4. منطقة إفريقيا مثل سواكن، مصوع، تاجورة، زنجبار، بربرة، زيلع، القصير.
5. شبه الجزيرة العربية والمناطق الداخلة فيها وتشمل: اليمن، حضرموت، مسقط، ينبع، مناطق داخل الحجاز⁽⁵⁹⁾.

أما أهم البضائع التي كانت تأتي للحجاز من خلال الجدول فكانت الأرز، السكر، والحبوب (القمح-الذرة)، والتوابل، وترد غالبيتها من الهند ثم من السويس. في حين كانت أهم المنسوجات القطنية ترد من بريطانيا مباشرة، أو عن طريق الهند أو بلاد الشام أو اسطنبول، أما المنسوجات الحريرية كانت

من الهند⁽⁶⁰⁾. كذلك كانت التمور، والسجاد، والرقيق، والبن، تأتي من البصرة، وفارس، وزنجبار، واليمن.

ومن الجدير بالذكر أن نلاحظ من خلال الجدول التالي أن هناك علاقة طردية بين تدفق الحجاج وقيمة حجم التجارة وقيمة الواردات إلى ولاية الحجاز بين عام 1890-1910م. ففي عام 1891م، كان عدد الحجاج 46,953 نسمة، وحجم التجارة 45,500 جنهياً إسترلينياً، والواردات بلغت 430,190 جنهياً إسترلينياً وهي أقل حجم للتجارة والواردات في السنوات المبينة في الجدول، بينما في عام 1905م بلغ عدد الحجاج 66,500 نسمة، وبلغ حجم التجارة 2,206,656 جنهياً إسترلينياً، والواردات 2,267,316 جنهياً إسترلينياً وهي أعلى حجم للتجارة والواردات في السنوات الواردة في الجدول⁽⁶¹⁾.

. جدول رقم 2 علاقة أعداد الحجاج بحجم التجارة وحجم الواردات

السنة	عدد الحجاج	حجم التجارة	حجم الواردات
1890	47,369	495,500	462,350
1891	46,953	478,640	430,190
1893	92,625	714,239	701,370
1897	35,349	624,232	644,982
1901	51,490	831,125	792,584
1903	34,039	955,764	935,794
1905	66,500	2,206,656	2,267,316
1906	69,486	1,791,036	1,719,186
1907	102,817	2,006,278	1,969,388
1910	90,051	2,022,175	1,956,175

أما صادرات الحجاز فكانت تمثل عنصراً مهماً من عناصر التجارة ولكن لم تكن صادرات الحجاز تعتمد اعتماداً كلياً على إنتاجه المحلي، وإنما كان اعتمادها على إعادة التصدير (الترانزيت أو تجارة العبور) للمنتجات الواردة إليه من المناطق الأخرى، خاصة وأن ميناء جدة مركز تجميع للبضائع التجارية التي يُعاد تصديرها إلى السويس وإسطنبول وأوروبا، لذلك شكلت تجارة إعادة التصدير عنصراً مهماً في تجارة جدة⁽⁶²⁾. وقد ذكر القنصل البريطاني بجدة ستانلي في تقريره عام 1869م: أن خمس البضائع الواردة إلى ميناء جدة تُرسل بطريق البحر إلى كل من السويس والحبشة والحديد وسواكن ومصوع، أما ما يتبقى فإنه يُرسل عن طريق البر إلى أنحاء الجزيرة العربية حيث

منافذ التوزيع⁽⁶³⁾ . ومن الجدير بالذكر أن السلطات العثمانية كانت تتدخل في تنظيم تجارة التصدير، إذ كانت تمنع إعادة تصدير أي نوع من السلع التي من الممكن الاحتياج إليها في الأماكن المقدسة، خاصة إذا كان شح تلك السلع قد يتسبب في أي نوع من الأزمات لدى سكان الحجاز وخاصة في موسم الحج⁽⁶⁴⁾ . وإلى جانب إعادة التصدير، انحصرت صادرات الحجاز في العطور، المراهم المكينة، السواك، الزبيب، اللوز، اللؤلؤ، الحناء، الجلود، الجمال، الصمغ، شمع النحل، الصدف⁽⁶⁵⁾ .

تُعتبر تجارة تصدير الجلود من أهم صادرات الحجاز المحلية، والتي تأتي كنتيجة طبيعية بعد تقديم شعيرة الهدي والأضاحي في أثناء موسم الحج كل عام، إضافة إلى حاجة السكان إلى اللحوم في طعامهم، فكانت الجلود بعد دباغتها تُرسل من بنادر الحجاز إلى جدة، ومنها إلى الشواطئ المقابلة على البحر الأحمر، كالسويس ومضوع وسواكن، وقد شهدت تجارة الجلود والمذبوغات عام 1839م تطوراً ملحوظاً، إذ ارتفعت الصادرات بما يزيد عن الضعف عما كان يُصدر من قبل، ويعود ذلك إلى ازدياد عدد الحجاج في ذلك الموسم، كما حدث بعد ذلك في السنوات ما بين 1900 - 1910 م، إذ نشطت تجارة الجلود بسبب زيادة أعداد الحجاج وتنامي تلك الزيادة⁽⁶⁶⁾ . وهنا نشير إلى أن موسم الحج لعب دوره البارز أيضاً في مجال إعادة التصدير من خلال ما ينقله الحجاج معهم من سلع وهدايا إلى بلدانهم⁽⁶⁷⁾ ، ومع ذلك فإن تجارة التصدير وإعادة التصدير شهدت هبوطاً ملحوظاً بين عامي 1879-1890م، ففي عام 1880م انخفضت الصادرات لتبلغ 324 ليرة عثمانية مقارنةً بالواردات في نفس العام والتي بلغت 1,867 ليرة عثمانية ليكون الإجمالي 2,192 ليرة عثمانية. بعكس تجارة الواردات التي استمرت في تطورها حتى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي، إلا أنه وبسبب ظروف الحرب العالمية الأولى، ودخول أغلب الدول المصدرة في الحرب، نزلت قيمة الواردات، بل والصادرات، كما يوضح الجدول الآتي :

جدول رقم 3 الصادرات والواردات إلى أقرب 1000 ليرة عثمانية⁽⁶⁸⁾

السنة	الصادرات	الواردات
1855	422	703
1857	469	906
1860	610	1,079
1869	1,000	1,700
1876	618	2,020
1880	324	1,867
1883	73	912
1885	130	739
1897	21	709
1900	35	828
1903	25	1,081
1905	43	2,494
1908	57	2,297
1912	55	745

وخلاصة القول إن التجارة لم تكن ثابتة منذ عام 1855 - 1912م، فتلاحظ زيادة ملحوظة في الواردات مع تذبذب واضح في الصادرات التي انخفضت بشدة بعد عام 1883 م، وظلت متدنية حتى عام 1903م، ثم عاودت الارتفاع مجدداً بعد عام 1903 م استجابة لمؤثرات سياسية واقتصادية⁽⁶⁹⁾؛ كان من أهمها الاضطرابات السياسية التي أثرت في أعداد الحجاج كالنزاعات بين والي الحجاز وأمير مكة، فرض الحجر الصحي على جدة من الأقطار الرئيسية للحجاج، واضطراب أوضاع الحجاز الأمنية، والصراعات حول منع تجارة الرقيق، وافتتاح قناة السويس عام 1869 م⁽⁷⁰⁾، أضف إلى ذلك الحروب التي أوقفت حركة الملاحة التجارية في البحر الأحمر، ومنها الحرب بين القوات المصرية والبريطانية في ثمانينات القرن التاسع عشر، والحرب العثمانية - الإيطالية، وحصار إيطاليا للبحر الأحمر عام 1911-1912 م، ودخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى بجانب دول الوسط عام 1914م⁽⁷¹⁾.

النقل البحري :

كانت حركة الملاحة وهوية السفن التي تصل إلى ميناء جدة تنقسم إلى قسمين :

- سفن تعمل في نقل البضائع.

- سفن تعمل في نقل الحجاج⁽⁷²⁾.

كان أهم تغيير في النقل البحري تمثل في استخدام السفن البخارية بعد عام ١٨٤٠م، والتي كانت تملكها الدول الأوروبية أو شركاته، مما نتج عنه التدهور في عدد السفن الشراعية المملوكة لرجال الاعمال في منطقة البحر الأحمر، وزيادة عدد السفن البخارية خاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩م، إذ كان باستطاعة تلك السفن التوجه إلى أصغر الموانئ وبذلك انحسر دور جدة كمركز تجاري لتوزيع السلع ونقلها من سفينة إلى أخرى، إلى جانب ذلك كانت تلك السفن البخارية لا تحتاج للتوقف في موانئ الوسط للتزود بالفحم، إذ كانت تتوقف فقط في عدن والسويس لذلك الغرض. ولذلك استحوذت هذه السفن على شحنات البضائع و الركاب، عوضاً عن السفن الشراعية التي مازالت ترسو على الساحل⁽⁷³⁾. ومع حلول عام 1882م، كانت جدة قد تلاشت تماماً من على خارطة مراكز إعادة التصدير. وأصبحت المسافنة على رصيف مينائها عبئاً ثقيلاً على الرأسمالية الحديثة التي بحثت عن تخفيض تكلفة النقل، ناهيك عن أن محور الدولة العثمانية و أمير مكة كان قد تضعضع نظراً لخسارة السلطنة العثمانية أراضيها في مصر مع الاحتلال البريطاني، ودخولها مراحل الوهن⁽⁷⁴⁾. لكن الواقع الجديد أفسح المجال أمام تجار جدة إلى التكيف مع قوانين عصرهم الناشئة، مسلّحين بإرث التجارة الهندية.

خسر ميناء جدة وجهه الاستراتيجي، لكنه أبقى على وجهه التجاري متوهجاً، جرّاء ازدهار حركة الملاحة ، وأفسح مجال النمو التجاري، وتوفير السيولة الكبرى في يد تجار جدة، واتساع شبكة الاتصال مع تأسيس النظام البرقي والبريد المنتظم/ التلغراف في الحجاز منذ عام 1882م، وتطور أنظمة التأمين، إلى ظهور قطاع خدمي جديد في جدة هو قطاع نقل مسافري البحار والحجاج (الترانزيت البشري) مع الهند وسنغافورة وجاوه وزنجبار وبقيّة موانئ المحيط. وصعدت بيوت محلية من جدة استثمرت في نقل ركّاب أعالي البحار منذ

عام ١٨٨٣م انطلاقة من قاعدة جدة، مثل حسن جوهر وعمر السقاف وعمر نصيف، وبيت باناجه ثم بيت عرب وأخيراً بيت زينل، إلى جانب أجنب كالخواجه أوزوالد وفان دير شايس الهولندي وبيت جيلاتي هنكي البريطانية⁽⁷⁵⁾.

- وبناءً على ذلك كان هناك خمسة أنواع من الشحنات التي تصل إلى ميناء جدة وهي :
- شحنات السفن المحلية إلى جدة، ومنها إلى الموانئ الأخرى على البحر الأحمر والخليج العربي .
- شحنات السفن الكبيرة، والتي تحمل شحنات تجارية من موانئ الهند وجاوه، وهي في الغالب سفن تتبع شركات أوروبية .
- شحنات السفن التي تصل من أوروبا، وكانت بريطانيا تملك العدد الأكبر من هذه السفن والبواخر .
- شحنات السفن التابعة للشركات التجارية الأخرى، التي كان بعضها يخص مصر، وهي الشركة المجيدية و العزيزية وتقوم برحلات منتظمة بين جدة والسويس، أو ينبع وميناء القصير .

-شحنات البواخر العثمانية التي ترجع ملكية بواخرها إلى شركة إيداري ي ماكهاوس، وكذلك شركة لويد النمساوية التي تعمل بين إسطنبول والحديدة مروراً بجدة، وكان للدولة العثمانية أسهم فيها أيضاً، إذ استأجر العثمانيون سفناً نمساوية لنقل الحبوب من البصرة إلى الحجاز بأجور منخفضة⁽⁷⁶⁾ .

يوضح الجدول التالي عوائد السفن البخارية والشراعية في ميناء جدة بين أعوام -1878 1884م، ويلاحظ أن السفن البريطانية تختل مرتبة الصدارة، وكانت كمية الاطنان التي نقلتها كبيرة جداً مقارنة بالسفن المصرية والعثمانية ويعود ذلك إلى أن غالبية السفن البريطانية كانت سفن بخارية، في الوقت الذي كانت فيه السفن العثمانية و المصرية أغلبها مراكب شراعية، وهذه بالطبع محدودة الحمولة بطيئة الحركة، تلت السفن البريطانية السفن المصرية في حين احتلت السفن العثمانية المرتبة الثالثة ، و نلاحظ إذا ما قارنا أن عدد الاطنان التي نقلتها السفن العثمانية كان كبيراً نسبياً بالمقارنة مع عدد السفن ، وذلك يدل على أن السفن العثمانية كانت ذا سعة أكبر من السفن المصرية. كذلك يُلاحظ بروز السفن النمساوية والتي كانت جميعها سفن بخارية، وأن كمية الاطنان التي نقلتها في العام الواحد يقارب الكمية التي كانت تنقلها السفن العثمانية⁽⁷⁷⁾ .

جداول رقم 4 عوائد السفن البخارية والشرعية التي وصلت ميناء جدة خلال الفترة من عام 1878 – 1884م

السنة	بريطانية			مصرية			عثمانية			نفساوية			إيطالية			روسية زنجارية وأخرى			المسجلة إجمالاً
	بخارية	شرعية	مجموع الأطنان	بخارية	شرعية	مجموع الأطنان	بخارية	شرعية	مجموع الأطنان	بخارية	شرعية	مجموع الأطنان	بخارية	شرعية	مجموع الأطنان	بخارية	شرعية	مجموع الأطنان	
1878م	124	7	132990	35	45	28558	-	958	35993	29	-	33493	10	-	9941	2	8	4558	245533
1879م	116	8	125478	80	46	50137	1	1100	45038	26	-	34476	11	-	7719	7	2	5785	268583
1880م	132	7	147505	116	59	78998	5	1005	45133	34	-	42357	25	-	17031	16	1	10813	341837
1881م	128	7	153056	69	53	46559	4	969	40786	27	-	33538	13	-	9376	10	4	7229	290444
1882م	92	8	106568	43	60	27688	1	937	36010	25	-	27716	-	-	-	13	2	12836	210795
1883م	59	2	68568	67	48	42113	3	772	33158	16	-	17228	-	-	-	32	2	47282	298346
1884م	78	75	105751	57	74	41869	3	946	34035	26	-	42244	1	-	1818	54	-	97742	393261

الزراعة :

كان انطباع الزائرين عن الحجاز أنه صحراء جرداء، وجبال ممتدة، وفقر منتشر بين البدو، وسكان المدن . وكان لجفاف المناطق الداخلية، وندرة الامطار، وقلة الابار، وعدم وجود أنهار، وارتفاع درجات الحرارة في بعض المناطق الأثر في عدم وجود زراعة في بعض المناطق وليس جميعها، إلا أن هذا الامر ظل مجهول من قبل بعض الحجاج، أو التجار، أو الزائرين الاجانب لعدم رؤيتهم لها ⁽⁷⁸⁾.

والواقع تعتبر الزراعة إحدى الحرف التي مارسها الحجازيون، حيث كانت تشكل العمل الأساسي لسكان المدن الزراعية⁽⁷⁹⁾ مثل الطائف، والمدينة المنورة وينبع⁽⁸⁰⁾، ولكن الإنتاج الزراعي تميز بقلته، إذ مورس في نطاق ضيق لا يتناسب مع مساحة الاقليم وعدد سكانه وزواره من الحجاج والتجار وغيرهم، ورغم قلة الإنتاج الزراعي، إلا أن ما يزرع في الواحات المتفرقة في الحجاز كان يمثل دخلاً اقتصادياً مهماً، ولكنه ليس المصدر الاساسي للدخل⁽⁸¹⁾.

وكما أشرنا سابقاً أن تضاريس المنطقة، ومناخها، وقلة الامطار ساهم في قلة - وانعدام - الانتاج الزراعي في بعض المناطق، إلا أن هناك عوامل غير طبيعية ساهمت في ذلك، منها قلة الأيدي العاملة، انشغال كثير من البدو بالرعي مما ساهم بدوره على قلة الانتاج الزراعي في الاقليم . كذلك كان الهدف من الانتاج الزراعي في الحجاز هو الاستهلاك المحلي فقط، فلم يفكر المزارع في تصدير إنتاجه إلى الخارج . أيضا ساهمت صعوبة المواصلات بين المناطق الحجازية بسبب التضاريس الوعرة الجبلية، وبدائية وسائل النقل بين المناطق، إلى جانب عدم استقرار الوضع الامني بين مدن، مما جعل نقل الانتاج الزراعي بين المدن خطير، وساعد على عدم تفكير المزارع الحجازي بذلك ⁽⁸²⁾.

تعتبر الأودية من أهم المناطق الخصبة في إقليم الحجاز، نظراً لوجود التربة الخصبة وكميات الطمي التي تجرفها السيول من الحواري البركانية المحيطة بها . وقد قامت على هذه الأودية الزراعية معظم المراكز السكنية في الحجاز، ويطلق على هذه المناطق الواحات الزراعية التي اعتمدت على مياه الآبار والعيون والأمطار لسقي الأراضي⁽⁸³⁾، ومن هذه الواحات خيبر، وتيماء، والعلا، وينبع، وكانت أكثر المناطق إنتاجاً⁽⁸⁴⁾ هي مدينة الطائف حيث يوجد بها عدة أودية تمتاز بخصوبة التربة ووفرة المياه و الانتاج الزراعي، ومن هذه الأودية : وادي لج، ولقيم، والجفيف وغيرها من الاودية، بالإضافة إلى الزراعة على سفوح الجبال . ومن أهم المحاصيل : العنب، الرمان، البرتقال، الليمون⁽⁸⁵⁾، البطيخ، العنب، التفاح، الموز، التين الشوكي، البطاطا، الفول،

الطماطم، بالإضافة إلى الحبوب مثل القمح، والذرة، والدخن، والشعير، والعدس، و الارز⁽⁸⁶⁾. إلى جانب الورد الذي يستفاد منه في إنتاج أفضل العطور التي تباع للحجاج في موسم الحج، وتعتبر الطائف المورد الرئيسي لمكة المكرمة وجدة من الخضروات والفواكه المختلفة⁽⁸⁷⁾. مما ساعد على تنشيط الحركة الاقتصادية داخل مكة المكرمة وخارجها، حيث عمل جزء من السكان في الزراعة، وجزء آخر في نقل هذه المحاصيل لأسواق مكة المكرمة، كما عمل عدداً آخر من السكان في الدلالة والبيع والشراء⁽⁸⁸⁾.

أما في ينبع النخيل والمدينة المنورة، تعد الزراعة من الحرف الرئيسية وكانت تمثل دخلاً مهماً خاصة زراعة النخيل⁽⁸⁹⁾، التي يوجد فيها أكثر من سبعين نوعاً منها، ومن أشهر النخيل " الحلوة" كان تمرها يصلح رطباً وتمرّاً ولايباع بل يقدم هدياً، أم تمر البيض والجادي وغيره يخزن فقط ويؤكل تمرّاً فقط. ويعتبر حصاد التمور في المدينة المنورة وعند أهل الحجاز بشكل عام عياداً لأنه هذا المحصول الغذائي الأساسي لسكان الحجاز نجا من أضرار الطبيعة ويستفاد منه أكلأً وبيعاً، خاصة وأن الحجاج كانوا عند زيارتهم للمدينة المنورة يشتررون منه كهدية مباركة من أرض النبوة إلى أهلهم.

وقد أدى كثرة أشجار النخيل ليس فقط لزيادة إنتاج التمور بل الاستفادة من جذوعها وجريدها في الفنون الحرفية⁽⁹⁰⁾. كذلك توفرت عدداً من المحاصيل الزراعية هناك من أبرزها القمح والشعير والرمان والموز والخوخ والبامية والطماطم والبصل والثوم والنعناع وغيرها من المحاصيل⁽⁹¹⁾.

أما في جدة ومكة المكرمة فكانت الزراعة محدودة وتتركز في بعض الأراضي الصالحة للزراعة، والتي كانت تمثل الظهير الزراعي لجدة، ونذكر منها تلك الأودية التي تقع في جهة الشمال مثل : وادي خليص، و وادي غران، ورابع، وقديد. وفي جهة الشرق : وادي فاطمة - اجمل وأخصب وديان الحجاز - و وادي هدى الشام، و وادي الليمون. وكان لإرتفاع درجات الحرارة والجفاف دوراً في محدودية الزراعة في هذه المناطق⁽⁹²⁾. ومن أبرز المنتجات الزراعية فيها: الموز، والقمح، والشعير، والجوز، والطماطم، والليمون، والبطيخ، والبامية، والعنب⁽⁹³⁾، إلى جانب الحناء التي يتم بيعها للحجاج عند عودتهم من أداء فريضة الحج⁽⁹⁴⁾.

كذلك من أبرز الواحات قرية الصفراء، وقرية الحمراء، وقرية المويلح. ومن أبرز منتجاتها الزراعية : النخيل، والدخن، و الموز، والبطيخ، والسدر، وزيت البلسان الذي يشتره الحجاج والمسافرين من قرية الحمراء⁽⁹⁵⁾.

ويمكن القول أنه على الرغم من وجود وكثرة الإنتاج الزراعي في ولاية الحجاز، إلا أن ذلك الإنتاج لم يكن كافياً للسكان، ففي عام ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م رفض والي الحجاز عثمان نوري باشا⁽⁹⁶⁾ طلباً للقنصل البريطاني في جدة بإرسال بعض المؤن والفاكهة والخضروات إلى سواكن بحجة ندرتها في الحجاز⁽⁹⁷⁾. وقد أدى نقص الإنتاج الزراعي إلى استيراد كميات من الحبوب والتمور من نجد والإحساء، وكذلك كانت الحبوب تُستورد من مصر والبصرة والهند. وكانت مصر ترسل كل عام مابين حنطة وقمح للحجاز ما مقداره ٢٠٠٠٠ أردب. وهذه الكمية تزيد وتنقص حسب الظروف الاقتصادية لمصر، أيضاً كانت الدولة العثمانية بالإضافة للصرة ترسل أموال نقدية لشراء الأرز، و تلزم الإدارة المصرية بإرسال صرة دار السعادة إلى الحجاز سنوياً، وكذلك كانت تونس تقدم مساعدات مالية للحجاز حيث ترسل سنوياً ٤٠٠٠ ليرة توزع على أهالي الحجاز في الحرمين الشريفين⁽⁹⁸⁾.

ويرجع بيزم التونسي سبب انحطاط الزراعة في الحجاز إلى اعتماد أغلب أهله على المرتبات والجريات التي تُخصصها الدولة العثمانية للأهالي والقبائل⁽⁹⁹⁾. ومن وجهة نظرنا نحن نرى أن هذا صحيح إذا أدى عدم وجود رؤية اقتصادية عثمانية إلى جعل الشعوب التي تحكمها شعوب مُستهلكة غير مبدعه في الإنتاج تعتمد على ما يتم استيراده فقط، خاصة وأنه لم يكن هناك أي محفزات ومميزات تحفز الشعوب على الإنتاج.

وقد انعكس عدم الاعتماد بشكل رئيسي على الزراعة في الحجاز كحرفة أساسية تكفي لسد حاجة من يمتنعها إلى انصراف أهلها للقيام بأعمال اقتصادية أخرى مثل الرعي، والتجارة، صيد الاسماك، وأعمال أخرى موسمية أخرى، كالحج الذي يعتبر الحدث الرئيسي في الحجاز كما أشرنا⁽¹⁰⁰⁾، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أدى إلى سيادة الأشراف، وأصحاب الوظائف المكتبية، وكبار المستوردين، ومطوفي الحجاج، وأولئك الذين يستلمون معاشات تقاعدية من الدولة العثمانية، إذ كان أصحاب هذه الفئات أغني من ملاك الأراضي الزراعية⁽¹⁰¹⁾.

أخيراً نحب أن نوضح أن أسعار السلع في الحجاز قد تأثرت بنجاح أو فشل المواسم الزراعية محلياً أو خارجياً، فعلى سبيل المثال أسفر تزامن فشل الموسم الزراعي في اليمن، والتدهور في محصول الأرز في الهند (1869-1899م) إلى زيادة أسعار الارز 20% في الحجاز، كذلك عند انخفاض عدد الحجاج لسوء المحاصيل الزراعية في الخارج، ارتفعت أسعار السلع في الحجاز بما لا يستطيع الحجازيين أنفسهم تحمله⁽¹⁰²⁾.

الرعي :

يعتبر الرعي أحد الأنشطة الرئيسية والمهمة التي مارسها البدو (سكان البادية) في ولاية الحجاز، وهو أساس الحياة القبلية في البادية، وبداية النشاط في استغلال موارد البيئة النباتية .

ونجد أن البدو هم أفضل من كيف الحياة البشرية طبقاً لبيئتهم الصحراوية، فنزلوا حيث يوجد المراعي والماء، ويمتاز البدو بالنشاط الدائم إذ يعمل جميع أفراد الأسرة بما فيهم صغار السن في مهنة الرعي.

وتختلف البيئة النباتية - المراعي- في ولاية الحجاز باختلاف الظروف التضاريسية والمناخية، حيث إن لكل بيئة تضاريسية نباتاً معيناً تتميز به، فالمناطق الجبلية المرتفعة التي تسمى السراة تنمو فيها أشجار العرعر، بينما الجبال الأقل ارتفاعاً تنمو فيها أشجار العتم، وهناك مناطق جبلية تنمو فيها أشجار السلم، والمنحدرات الجبلية تنمو فيها أشجار الأكاسيا، أما السواحل فتتنمو فيها أشجار الأكاسيا كذلك والسرح والحشائش مثل الثمام والضعة، أما السواحل القريبة من شاطئ البحر فتتنمو فيها نباتات البيئة المالحة مثل الرمرامية⁽¹⁰³⁾ . وتعتبر الأمطار من العوامل المؤثرة على نمو النباتات الرعوية في ولاية الحجاز . تسقط الأمطار بشكل غير منتظم ، حيث تسقط بشدة في بعض المناطق ثم تنقطع فجأة، وهذه الأمطار وخاصة التي تسقط في الأودية، تساعد على ظهور الأعشاب، وازدياد المراعي حول الأودية.

وقد أدى اختلاف سقوط الأمطار من منطقة إلى أخرى إلى اختلاف المراعي ومدى توافر الأعشاب فيها، مما ساعد على تنقل البدو من الأماكن قليلة الرعى إلى أماكن وجود المراعي الجيدة، وهذا الانتقال أدى إلى نشوب النزعات بين البدو، ولهذا كلما كانت المراعي متوفرة في كل ولاية الحجاز قلّت النزاعات بين البدو⁽¹⁰⁴⁾ .

وعلى هذا تقسم المراعي على أساس البيئات النباتية فثمة المراعي الجبلية التي تمتاز بارتفاع معدلات الأمطار واعتدال مناخه، ومراعي السهول والمنحدرات والأودية، ومراعي السهول الساحلية، وأمطارها أقل من أمطار المراعي الجبلية. وكل حيوان له بيئة رعوية يتكيف معها حسب تضاريس المنطقة الرعوية، فنجد الماعز تكثر في المراعي الجبلية، بينما تعيش الضأن والأبقار والجمال في الأراضي المنبسطة والأودية، ومن أبرز الحيوانات المتوفرة في ولاية الحجاز ويستفيد منها الإنسان بشكل يومي هي : الإبل، والبقر، والخيول، والبغال، والغنم، والماعز⁽¹⁰⁵⁾ . خلاصة القول اعتمد معظم البدو القاطنون في ولاية الحجاز على تربية الماشية من إبل وخيول وأغنام، فالإبل تربي من

أجل تأجيرها أو بيعها في موسم الحج، ومن أجل ذبحها، فمثلاً كان يُذبح من عشرة إلى خمسة عشرة جملاً يومياً في المدينة المنورة، أيضاً كان سكان المدن يستخدمون الإبل في رفع المياه من الآبار . أما الأغنام كانت تباع للحجاج في منى ليتم ذبحها كأضحية لهم، حيث كان يُذبح من سبعين إلى ثمانين خروفاً يومياً، و تُستهلك معظم تلك اللحوم في الوقت نفسه، في حين كان البعض منها يُجفف ويحفظ للغذاء مستقبلاً، ولكن الكثير منها يرمى في النفايات حيث كان يصعب تخزينه لفترة طويلة بسبب ارتفاع درجات الحرارة . كذلك كانت الخيول تستخدم لإعادة التصدير و في الحروب بين القبائل ويزود بها الجيش العثماني⁽¹⁰⁶⁾، أيضاً كان البدو يستفيدون من مواشهم في إنتاج الأقط والسمن والزبدة والجبن، والأصواف، ودباغة الجلود⁽¹⁰⁷⁾، وعطور الزهور التي كانوا يبيعونها لسكان المدن⁽¹⁰⁸⁾ .

أخيراً نود أن نُشير أن هناك علاقة طردية بين وفرة الأمطار وكثافة الغطاء النباتي وإزدياد المواشي في ولاية الحجاز، فعندما تقل الأمطار يحدث القحط والجفاف في المراعي مما يؤدي إلى موت كثير من المواشي فيؤثر ذلك سلباً على الوضع الإقتصادي للبدو من ناحية، ومن ناحية أخرى يؤدي إلى ارتفاع أسعار علف المواشي في المدن وطرق القوافل⁽¹⁰⁹⁾ .

وهكذا يتضح لنا أن أهل الحجاز مارسوا مهنة الزراعة والرعي . بيد أن هاتان المهنتين لم تكن تفي بحاجات السكان سواءً سكان المدن أو البدو ولذلك اتجه أهالي الحجاز لممارسة مجموعة من الفنون الحرفية و المهن .

الفنون الحرفية :

تُعتبر الصناعة الحديثة عنصراً مهماً في بقاء و تطور المجتمعات، يستطيع الإنسان من خلالها الاستفادة من المواد الخام التي في الطبيعة ويحولها إلى منتجات جديدة يستخدمها في حياته اليومية عن طريق أدوات ووسائل، وذلك خلال وقت قصير وبأقل جهد ممكن⁽¹¹⁰⁾ .

لم تكن الصناعة الحديثة معروفة في الحجاز، على الرغم من وجود بعض المعدات التي تعمل بالبخار، والتي كانت إما غير صالحة للخدمة، أو صغيرة للغاية . فعلى سبيل المثال في عام 1860م قام فرنسي بتشغيل طاحونة تعمل بالبخار في جدة لفترة قصيرة، كما قام موظف من إسطنبول بإدارة مشروع مماثل في عام 1890م ولكنه كان يعاني من المنافسة الشديدة للدقيق المستورد من بومباي . وفي عام 1900م قام أحد العثمانيين اليونان بتشغيل طاحونة تعمل بالبنزين لطحن الحبوب في جدة، كذلك تم إنشاء ستة طواحين هوائية لرفع المياه الجوفية في جدة إلا أنها توقفت عن العمل في عام ١٨٩٠م

. وفي عام 1909م تم إنشاء طاحونة واحدة تعمل بالبنزين في مكة المكرمة وتقوم بطحن طن ونصف من القمح يومياً. كما كان هناك أشكال أخرى من الماكينات الأوربية في الحجاز مثل : المطبعة الحكومية في مكة، ومصنع الثلج، ومحطة تنقية المياه في جدة . وبعد عام 1908م أنشأت محطة لتوليد الكهرباء، وإنارة الحرم النبوي، ومحطة سكة حديد الحجاز في المدينة المنورة، وكانت معظم المنشآت الصناعية تتركز في جدة، ولكن معظمها كان قصير الأجل ولم يعمر طويلاً.

وتعود أسباب فشل الصناعة الحديثة و ماكينات الطاقة إلى عدة أسباب منها:

- غياب أو قلة الموارد الطبيعية أو المعدنية والحيوانية فلم تكن هناك مصادر للحديد أو الفحم، أو النحاس، أو البترول، أو القطن، أو الكتان، وكان الصوف قليلاً . وفي القرن التاسع عشر الميلادي لم يكن الذهب موجوداً بكميات كبيرة في ولاية الحجاز، رغم أن الدولة العثمانية أرسلت في عام 1879م بعثة استكشافية إلى شرق المدينة المنورة للتنقيب عن المعادن والأحجار الكريمة، لكنها لم تعثر على شي ذي قيمة .

- النقص الشديد في العمالة المدربة، على الرغم من توفر أعداد هائلة من العمالة في ولاية الحجاز بفضل موسم الحج إلا أنهم كانوا غير مدربين . - قلة الأمان على الممتلكات الشخصية، فالثروة كانت عرضة للمصادرة من قبل أمير مكة، لذا كانت الأرباح الفائضة تُنفق على توسيع الشركات خارج ولاية الحجاز، وعلى مظاهر البذخ مثل: احتفالات الزواج، وشراء الذهب والمجوهرات التي يمكن نقلها عند الحاجة وإخفائها بسهولة .

- المنافسة الشديدة من قبل العالم الصناعي، أو البلاد التي كانت في طريقها أن تصبح دولاً صناعية مثل الهند⁽¹¹¹⁾. ومن جهة نظرنا كان ذلك بسبب عدم وجود رؤية عثمانية اقتصادية تخرجها من التبعية الاوربية، إذ لم يكن بوسع الحكومة العثمانية حماية اقتصادها نتيجة اقحامها في الصراعات السياسية التي تخبئ خلفها أهداف اقتصادية في المقام الأول .

لم يكن للصناعة الحديثة دور بارز في دعم اقتصاد ولاية الحجاز خلال فترة الدراسة، إلا أنه توفر عدد من الفنون الحرفية التي عادةً ماتكون ضرورية لسد احتياجات المجتمع المعيشية .

ومن المهم أن نُشير إلى أنه كان لنظرة الحجازيين أنفسهم للفنون الحرفية أثر سلبي على علو شأنها وتطورها، إذ كان هناك من ينظر لها بأنها نشاط اقتصادي غير مرغوب فيه وذلك لاعتماد غالبية الحجازيين -

سكان المدن - على التجارة والحج ، والبدو على الرعي، والقليل منهم على الزراعة والتجارة- ، وهناك من ترفع عن القيام بأنشطة حرفية مثل الخياطة والنجارة وغيرها⁽¹¹²⁾. وقد اعتمدت الفنون الحرفية في ولاية الحجاز على المهارة والجهد البشري، وعلى المواد الخام التي تتوفر في البيئة المحلية، ولذلك كانت ذا اكتفاء ذاتي يسد جزء من الاستهلاك المحلي في ولاية الحجاز .

و من أهم الفنون الحرفية في ولاية الحجاز النجارة والتي كثرت في مكة المكرمة وجدة والمدينة المنورة، وقد اعتمدت هذه الحرفة على الخشب المحلي والمستورد - كمادة أساسية، فالنجار يصنع الأبواب، والنوافذ، والسقوف، والصناديق الخشبية⁽¹¹³⁾، و الاقداح التي تستخدم للشرب، و المغزل الذي يستخدم لغزل الصوف عند البدو⁽¹¹⁴⁾ وكذلك الشقاف وهي عبارة عن محامل يركبها المسافرون بعد وضعها على الجمال على هيئة قبة⁽¹¹⁵⁾ وغيرها من المنتجات الخشبية .

ولأهمية الحجاز دينياً اهتم النجار الحجازي بعمارة المساجد فصنع لها أبواب وشبابيك مزخرفة ومنابر للخطباء . ومن أهم ما يميز النجار الحجازي الحس الفني في منتجاته، حيث يقوم بزخرفتها و تزيينها⁽¹¹⁶⁾ .

كذلك من أبرز الفنون الحرفية المنتجات الجلدية التي تعتمد على الجلود والتي كانت تتوفر في موسم الحج بسبب ذبح الأضاحي .وقد كان للبدو وخاصة المرأة دوراً مهماً في دبغ الجلود⁽¹¹⁷⁾، التي تقوم على اختيار الجلود الجيدة الخالية من العيوب، وتنظيفها من الصوف أو الوبر أو الشعر، ودبغها بأعشاب وعقاقير مختارة ومن ثم وتشكيلها حسب الاحتياجات⁽¹¹⁸⁾ .

ومن أبرزها لمنتجات الجلدية الحذاء الذي يصنع من جلد ملمع ثم يخاط بخيطين من الجلد الابيض، وكان أحسن أنواعها ما يسمى (أبو خرزين) وتكون الخياطة فيه مضاعفة عن الحذاء العادي⁽¹¹⁹⁾، ونظراً لجودة الاحذية المحلية فإنها أغلى ثمناً من الأحذية المستوردة من الهند. أيضاً من المنتجات الجلدية قرب الماء والحقائب والمنفاخ الجلدي الذي يستخدم لنفخ النار، والعبية التي تستخدم لحفظ المواد الغذائية وغيرها من المنتجات الجلدية⁽¹²⁰⁾ .

كذلك اشتهر الحجازيين -وخاصة أهل مكة المكرمة وجدة بالمنتجات الفخارية والتي يستخدمها سكان المدن أكثر من البدو الذين يمتازون بالتنقل الدائم⁽¹²¹⁾. ومن المنتجات الفخارية الأباريق والبرم وهي قدور لإعداد الطعام، و المبخرة والمصافية التي تستخدم لغسل الحبوب والاطعمة وتصفياتها من الماء، أيضاً الأزيار والقلل أو الشراب التي تستخدم لحفظ الماء وتبريده وتباع بكثرة في موسم الحج وغيرها⁽¹²²⁾ .

كذلك من الفنون الحرفية الحجازية المشهورة عمل السبح، التي

تصنع من مختلف الأشجار والخامات مثل شجر الصندل و شجر الحمر ونوى التمر⁽¹²³⁾، ومن اليسر - وهو نوع من المرجان لونه اسود وله لمعة يوجد في البحر الأحمر - وتُعد تلك السبح من أغلي الأنواع . وكانت السبح تتراوح في أحجامها ما بين 99 حبة للمسبحة الكبيرة و33 حبة للمسبحة الصغيرة وقد أطلق على صانعوها اسم السبحية⁽¹²⁴⁾. وقد راجت تجارة السبح في موسم الحج، فكان غالبية الحجاج لا يغادرون الحجاز إلا ومعهم بعض هذه السبح من جدة ومكة والمدينة ليقدموها كهدايا لأصدقائهم في بلادهم⁽¹²⁵⁾.

أيضاً يُعد بناء السفن من الحرف الرئيسية خاصة في مدينتي جدة وينبع البحر⁽¹²⁶⁾، وكان بناؤها يستعملون الأخشاب القوية - المحلية والمستوردة - بعد تنشيفها ودهنها⁽¹²⁷⁾، حيث تصنع سفن صغيرة للصيد أو سفن شراعية كبيرة للسفر أو سفن ذات مجاديف⁽¹²⁸⁾.

وقد برع أهل الحجاز في المنتجات المعدنية، التي تعتمد على بعض المعادن وهي: الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، فالحلي تُشكل من الذهب والفضة مثل: الخواتم، والأساور، والخلاخيل، والقلائد وغيرها من المجوهرات⁽¹²⁹⁾. وهنا نود أن نوضح الاختلاف بين عمل الصاغة والجوهرجية، فالصاغة هم الذين يقومون بعمل المجوهرات وتشكيلها، أما الجوهرجية هم الذين يعملون في تجارة المجوهرات بيعاً و شراءً⁽¹³⁰⁾.

كذلك من المنتجات المعدنية الأخرى أدوات القهوة من دلال ومحامس اللبن، وأدوات الزراعة مثل الفؤوس والمناجل وغيرها، كذلك أدوات الحرب من سيوف وخناجر وسكاكين وغيرها . إلى جانب إنتاج البارود المحلي، و الفحم الذي كان للقبائل بين ينبع البحر والمدينة المنورة دور كبير في إنتاجه⁽¹³¹⁾. ومن أشهر المنتجات الحرفية في الحجاز منتجات النخل مثل: الدبس، والمراوح، والقفف، والحبال⁽¹³²⁾، و البسط، والمكانس، وسجاجيد الصلاة وغيرها من المنتجات⁽¹³³⁾.

وتعد حرفة الغزل والنسيج من أقدم الحرف التي انتشرت بين البدو- وكان للمرأة البدوية دور مهم في إنتاج غالبية المنتجات الصوفية - خاصة وأن الأغنام والماعز والإبل مصدر اقتصادي أساسي لهم، ومن أهم المنتجات: المساند، والسجاد⁽¹³⁴⁾، والخيام، والمعاطف، والأكياس وغيرها من المنتجات الأخرى⁽¹³⁵⁾.

كذلك قام الحجازيين بإنتاج منتجات أخرى مثل العطور التي اشتهرت بها مدينة الطائف، والصابون، و الملح عن طريق تجفيفه في أحواض وبيعه، كذلك المنتجات الحجرية مثل الرحي اليدوية، والمهراس، وإنتاج النوره البلدي، حيث يتم حرق الأحجار وتكسيروها وتحويلها إلى بودرة بيضاء تسمى

نوره بلدي يطلّ بها جدران المنازل من الداخل والخارج⁽¹³⁶⁾

هذه بعض الفنون الحرفية التي كانت موجودة في ولاية الحجاز والتي كان يقوم بإنتاجها بعض الحجازيين سواء كانوا مواطنين أو ممن توطّن في ولاية الحجاز، إلا أن هذه المنتجات لم تكن تكفي الاستهلاك المحلي، فظهرت الحاجة للاستيراد الخارجي لبعض المنتجات لاسيما الملابس وغيرها .

المهن الأخرى :

كان لأهمية ولاية الحجاز الدينية والتجارية دور في ظهور عدد من المهن منها ماهو مرتبط بالحج، ومنها ماكان مرتبط بالتجارة، إضافة إلى ما ارتبط بالبيئة والسكان.

من أبرز المهن التي امتهنها الحجازيون والتي ارتبطت بموسم الحج هي مهنة الطواف، والجمالة والسقاية بماء زمزم والصرافة⁽¹³⁷⁾ .

من أبرز المهن التي ارتبط نشوئها بالتجارة المعادي وهي من المهن التي برع فيها سكان جدة لإرتباطهم بالبحر، وكان المعداويون يقومون بنقل الحجاج أو البضائع بمراكبهم الشراعية من السفن الكبيرة إلى الميناء لأن السفن الكبيرة لا تستطيع الرسو على رصيف الميناء لكثرة الشعب المرجانية. وكان المعداوية يتقاضون أجوراً عالية مقابل أعمالهم، وكان لهم شيخ يتم انتخابه من بين أفراد الطائفة وهو- كما يبدو- كان ممن يملكون أكبر عدد من السنايك⁽¹³⁸⁾. أيضاً من المهن التي زاولها أهل الحجاز مهنة المنادي الذي يقوم بالإعلان عن مواعيد وصول ومغادرة السفن في الأسواق، ليلتحق بها التجار والمسافرون⁽¹³⁹⁾.

كذلك من المهن التي كانت متداولة في الحجاز مهنة السقائين و السقائون الذين كانوا على نوعين منهم حاملو القرب المصنوعة من الجلد. أما الفئة الثانية فهم الذين يستخدمون الدواب كالحمير والجمال في نقل المياه⁽¹⁴⁰⁾. أما مهنة الحمالين فكانوا ينقسمون إلى قسمين الأول يعمل في نقل البضائع بين المدن، مثلاً بين جدة ومكة والطائف . والثاني يعمل في داخل المدن في السوق أو الميناء⁽¹⁴¹⁾ . وكان حمالو الميناء يسمون الفرضة وينقسمون إلى فئتين الأولى الكرانية الذين ينقلون البضائع من البواخر إلى السنايك الصغيرة. والثانية المنجلون وهؤلاء يقومون بنقل البضائع من السنايك إلى ساحات الميناء ولكلا الفئتين شيوخ⁽¹⁴²⁾ . أيضاً من المهن التي زاولها أهل الحجاز السمسرة وبالعامة الدلالة وأطلق على صاحبها السمسار أو الدلال، وهو الوسيط بين البائع والمشتري لإمضاء البيع ويأخذ على ذلك أجرة تكتب في عقد البيع، وكان بعضهم يختص بتاجر معين وأغلبهم يعمل مع كل التجار، واستخدمت كلمة

سمسار في أعمال بيع البن اليمني والاقمشة الهندية، وكان للدالين شيخ يطلق عليه أحياناً نقيب الدالين⁽¹⁴³⁾.

كذلك راحت مجموعة من المهن التي اشتغل بها أهل الحجاز كالحدادة، والخياطة والتطريز، والدباغة، و العطارة⁽¹⁴⁴⁾، والحانوتية، والمترجمين، وكتاب الخطابات، وعمال البناء⁽¹⁴⁵⁾، والجزاريين، والصيادين، والصاغة، والمؤذنين والائمة، والحلاقين، والصباغين وغيرها من المهن⁽¹⁴⁶⁾.

وخلاصة القول على الرغم من تعدد مجالات العمل في ولاية الحجاز كأعمال الحج و التجارة والزراعة والرعي و الفنون الحرفية والمهن، إلا أن الحالة الاقتصادية بقيت عند حد الكفاف لغالبية الحجازيين، بسبب ظروف البيئة، وعدم كفاية الجهود لتحسين الظروف الاقتصادية، واستغلال الموارد بشكل صحيح، واستمرار الأساليب الإدارية العقيمة، كان له أثر في ضعف اقتصاد الحجاز⁽¹⁴⁷⁾ إلى جانب عدم وجود نظام او سياسة اقتصادية عثمانية تساهم في تدعيم سياسة الاكتفاء الذاتي بوضع مميزات ودوافع تحفز لذلك .

الخاتمة

كانت لمكانة ولاية الحجاز الدينية وموقعها الجغرافي على طرق التجارة العالمية أثر كبير في النشاط الاقتصادي للولاية، إذ مثل الحج الحدث الأكبر الذي تشهده الولاية كل عام محركاً للنشاط الاقتصادي للسكان الحجاز، وللتجارة الداخلية والخارجية والتي كانت جدة ومينائها القلب النابض لهما. وإلى جانب مهنة التجارة التي اشتهر وبرع فيها أهل جدة تنوعت الأنشطة الاقتصادية الأخرى في الحجاز، فمارس بعض الحجازيين مهنة الزراعة، في بعض المدن والأودية نظراً لخصوبة تربتها ووفرة مياهها، في حين مارس بعضهم (البدو) مهنة الرعي نتيجة حياتهم القبلية . كذلك اشتهر الحجازيين بالفنون الحرفية التي اعتمدت على المهارة والجهد البشري من جانب، وعلى المواد الخام التي تتوفر في البيئة المحلية من جانب آخر ومن هذه الفنون عمل السبح، ومنتجات النخل وغيرها. أما المهن فقد عمل بعض الحجازيين في الطوافة والصرافة والمعادي والسمرة والخياطة والجزارة والبناء وغيرها من المهن .

النتائج:

1. يعتبر موسم الحج مصدراً أساسياً ومهماً لتدفق الموارد المالية المتعددة على ولاية الحجاز، وذلك عن طريق إنعاش حركة التجارة الداخلية والخارجية، إلى جانب ما يقدم للحجازيين بمختلف مستوياتهم من أشرف وسكان المدن والقبائل من معونات مالية وعينية من الدولة العثمانية وبعض المناطق كمصر تأتي مع قوافل الحج ، يضاف إلى ذلك المردود المادي الكبير الذي يُدر على أصحاب المهن التي ترتبط بالحج كالطوافة

- والجمالة والسقاية والصرافة، وكل ذلك ساعد إنعاش الوضع الاقتصادي لولاية الحجاز.
2. تركّز النشاط التجاري لولاية الحجاز في ميناء جدة باعتباره بوابة الحرمين والمركز التجاري للحجاز، الذي يوفر عن طريقه معظم احتياجات الولاية. أو الموانئ كما ينبع ورابع فكانت تمارس نشاطها التجاري على حسب موقعها.
3. تُعدّ تجارة إعادة التصدير (الترانزيت) هي عماد النشاط التجاري في جدة، ويعود ذلك إلى توسط موقعه على طرق التجارة العالمية مما جعله محطة التقاء تجارية مابين الشرق والغرب حيث تصل إليه المنتجات وتنقل منها براً إلى كافة مناطق شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام، وبحراً إلى الموانئ المصرية على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر ومنها إلى دول أوروبا، أدى إلا أن افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م سلب مقومات تجارة إعادة التصدير (الترانزيت) من ميناء جدة .
4. كان للتطور الكبير في مجال النقل البحري المتمثل في استخدام السفن البخارية أثر كبير في تراجع أهمية ميناء جدة باعتباره مركزاً مهماً لتزويد السفن بالفحم، كما أدى إلى قلة استخدام السفن الشراعية التي اشتهر بها ، إلا أن ذلك ساعد على ازدهار حركة الملاحة فيه، فظهر قطاع خدمي جديد هو قطاع نقل المسافرين والحجاج (الترانزيت البشري) مع الهند وسنغافورة و وجاوه وزنجبار وبقية موانئ المحيط، فأصبحت الخدمات البحرية رافداً من روافد الدخل التجاري لدى أهل جدة .
5. مارس أهل الحجاز مهنة الزراعة، إذ تركّز النشاط الزراعي في ولاية الحجاز بشكل عام في بعض المدن والأودية نظراً لخصوبة تربتها ووفرة مياهها، ومن أبرز المدن : الطائف والمدينة المنورة وينبع النخيل . أما أبرز الأودية وادي فاطمة و خليص والليمون وغيرها من الأودية ، إلا أن الإنتاج الزراعي لم يكن يفي بحاجات السكان الاستهلاكية، لذا كان يسد هذا النقص بالاستيراد من الخارج .أما الرعي يعتبر أحد الأنشطة الرئيسية التي مارسها البدو، وكان مصدر اقتصادي لهم.
6. تعددت الفنون الحرفية التي مارسها أهل الحجاز، ومن أبرز الفنون الحرفية المنتجات الجلدية، ومنتجات الغزل والنسيج، والمنتجات المعدنية، وغيرها . أما المهن فقد ارتبط بعضها منها بموسم الحج كالتوافة، والجمالة، والسقاية بماء زمزم، والصرافة، وارتبط بعضها بالتجارة، كالمعادي، والحمالين، والصرافة، والسمسرة، وارتبط البعض الآخر بالبيئة والسكان مثل السقاية، الصاغة، النجارة وغيرها.
7. لم تكن ممارسة الأنشطة الاقتصادية في الحجاز حكراً على الحجازيين، بل شارك فيها الوافدين العرب كالحضارم والمصريين وغيرهم وكذلك الأجانب كالهنود و الأتراك وغيرهم .
8. اختص سكان المدن بعدد من المهن كالتجارة والزراعة وبعض الفنون الحرفية كالنجارة، وغيرها من الفنون الحرفية، كذلك الطوافة والسقاية والمعادي وغيرها من المهن، في

حين اختص سكان البادية بعدد من الأنشطة كالرعي والجمالة واشتغل القليل منهم بالزراعة، إلى جانب ممارسة التجارة مع سكان المدن وقوافل الحجاج، وبعض الفنون الحرفية كالدباغة والغزل والنسيج .

9. ساعدت الوكالات التجارية ومكاتب النقل والشحن على سهولة حركة التجارة من وإلى الحجاز، إلا أنها من وجهة نظرنا ساهمت في تتطلع التجار المحليين بالدول الخارجية ذات السطوة الاقتصادية للاستفادة من امتيازاتهم الاقتصادية والتسهيلات التي حصلوا عليها فعلي سبيل المثال كان التجار الإنجليز يدفعون 8 ٪ فقط وأحياناً كانوا يدفعون هذه النسبة على شكل بضائع، بينما كان التجار المحليون يدفعون ضرائب أعلى من ذلك بل يدفعونها في أي ميناء تمر به بضائعهم، ولعل هذا الأمر ساعد على عدم وجود وحدة وطنية بين هؤلاء تساهم في خلق الدافع إلى النهوض باقتصاد المنطقة وبالتالي اقتصاد الدولة ككل .

التوصيات:

إجراء دراسات تتناول تاريخ الوكالات التجارية واثارها الإيجابية والسلبية على التجارة وأوضاع التجار في ولاية الحجاز.

المصادر والمراجع:

- (1) حمد محمد القحطاني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز (1297-1323 / 1880-1905 م)، (بيروت : الدار العربية للموسوعات، 2009 م)، ط2، 27-25.
- (2) عماد عبدالعزيز يوسف، الحجاز في العهد العثماني 1876-1918 م، (بغداد: بيت الوراق للنشر، 2011 م)، 30. أمل أحمد النتيقي، تأثير افتتاح قناة السويس على الحجاز (1286-1333 / 1869 - 1914 م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز : جدة ، ٢٠٢٠ م، ٦-٧.
- (3) أمل أحمد النتيقي، المرجع السابق، ٧.
- (4) داييل بن علي الخالدي، الإدارة العثمانية وأنظمتها في الحجاز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1293 - 1327 / 1876 - 1909 م)، (الرياض : دار الملك عبدالعزيز، 2014 م)، 27-26.
- (5) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 7.
- (6) مبارك محمد المعبد، النشاط التجاري لميناء جدة خلال الحكم العثماني 1256 هـ - 1840 م - 1335 هـ - 1916 م، (جدة: النادي الأدبي الثقافي، 1413 هـ)، 27-26.
- (7) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 27-28.
- (8) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 7.
- (9) صابرة مؤمن إسماعيل، جدة خلال الفترة 1286-1326 هـ / 1869-1908 م دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة، (الرياض: دار الملك عبد العزيز / 1418 هـ)، ٤٤ .
- (10) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 33.
- (11) شرف عبد المحسن البركاتي ، الرحلة اليمانية لصاحب الدولة أمير مكة الشريف حسن باشا مع جغرافية البلاد العربية وأسماء قبائلها، ط٢ (بيروت : المكتب الإسلامي، 1384)، 130.
- (12) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 33 .
- (13) السيد رجب، المدن الحجازية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981 م)، 89.
- (14) أحمد زيني دحلان ، تاريخ أشراف الحجاز خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، تحقيق محمد أمين توفيق ، (بيروت : دار الساقى ، 1993 م) ، 65. أحمد السباعي، تاريخ مكة، دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، (مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي، 1994 م)، ج2، 653.
- (15) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفتري عليها، (القاهرة : مكتبة آلاء نجلو المصرية، 1997 م)، ج1، 57.

- (16) تم اعفاء أهالي الحجاز من الضرائب ومن التجنيد الاجباري وكانت الدولة ترسل اعانات مالية تمثلت في الصرة العثمانية وغيرها من الاعانات المالية والعينية خاصة في أوقات الازمات .
- (17) الصرة : تعني كيس النقود وتطلع على الاموال ومختلف الهدايا التي كانت الدولة العثمانية ترسلها إلى أهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف والقبائل العربية القاطنة على طريق الحج، وكانت قافلة الصرة تخرج كل عام من إسطنبول في شهر رجب، باحتفال رسمي وتصل في بداية شهر ذي الحجة إلى مكة المكرمة . سهيل صابان، مخصصات القبائل العربية من واقع (الصرة) العثمانية لعام 1778م ، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، العدد 20، (1428-1429) .
- (18) سنجق : كلمة تركية معناها بالعربية العلم ،ثم أصبحت رتبة عسكرية، وتطلق على الحاكم الذي يحكم منطقة إدارية من الولاية . أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 54.
- (19) عبد الرحمن سعد العرابي، التمردات الاجتماعية في مكة المكرمة إبان فترة الحكم العثماني الثاني 1256-1334هـ/1840-1916م أسبابها وتأثيرها من خلال المصادر المحلية المعاصرة، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، المجلد: 18، العدد الأول(2010م)، 9-12.
- (20) عبدالفتاح حسن أبو عليه، تاريخ الدولة السعودية في أدوارها الثلاثة، (الرياض : دار المريخ للنشر، 2009م)، ٤٢-٤٤.
- (21) أحكم محمد علي سيطرته على الحجاز، حيث قام بتجريد أمير مكة المكرمة من السلطات المطلقة التي تمتع بها في العهد العثماني الأول، و عين حاكم يحكم الاقليم بلقب حاكم عام الحجاز وسر عسكر الحجاز وركز السلطة في يديه، كما قام بتعين حاكم إداري وعسكري كبير لكل مدينة يحمل لقب محافظ، بالإضافة إلى مجالس الشورى التي تتكون من كبار رجال الإدارة والمالية في كل مدينة فضلاً عن قاضي وبعض الموظفين الآخرين. عبد الرحمن سعد العرابي، التمردات الاجتماعية في مكة المكرمة، مرجع سابق، 14.
- (22) عبد الرحمن سعد العرابي ، التمردات الاجتماعية في مكة المكرمة ،مرجع سابق، 12-16.
- (23) مشيخة الحرم المكي : مصطلح إداري يطلق على والي مكة المكرمة رسمياً وفعلياً من قبل الإدارة العثمانية ، كان مركزه الإداري جدة ، وكان يتركز في يد احد السناجق أو الباشوات من قبل الإدارة العثمانية في مصر ، وكان صاحبه يُعزل و يُعين من مصر بفرمان يرسل إليها من استانبول ، وقد أصبح في الفترة الأخيرة من حكم الدولة العثمانية شيخ الحرم هو والي الحجاز . حمده عبد الله المصعبي ، السالنامة كمصدر من مصادر تاريخ الحجاز الحديث خلال فترة الحكم العثماني الثاني 1303دراسة

- تحليلية لسالنامة 1303هـ / 1886م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الملك عبد العزيز : جدة ، 2013م ، 39.
- (24) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 11.
- (25) عبد الرحمن سعد العرابي، التمردات الاجتماعية في مكة المكرمة ، مرجع سابق، 18.
- (26) عماد عبدالعزيز يوسف، مرجع سابق، 66.
- (27) نبيل عبد الحي رضوان، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس 1286-1326 / 1869-1908 م) ، (جدة : تهامة ، 1403) ، 32.
- (28) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 9.
- (29) وليم اوكنسولد، الدين والمجتمع والدولة في جزيرة العرب - الحجاز تحت الحكم العثماني 1840-1908م ، ترجمة : عبد الرحمن سعد العرابي ، (جدة: مطابع جامعة الملك عبد العزيز، 1431هـ)، ٤٠ .
- (30) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 96.
- (31) William Ochsenwald, Ottoman Arabia and the Holy Hijaz, 1516-1918, Journal of Global Initiatives: Policy, Pedagogy, Perspective: Vol. 10 : No. 1 ,Available at: <https://digitalcommons.kennesaw.edu/>.
- (32) مبارك محمد المعبد، مرجع سابق، ٢٧٥.
- (33) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، ٩٧.
- (34) Saleh Muhammad Al-amr , The Hijaz Under Ottoman Rule 1869 – 1914 (Riyad ; The University Of Riyadh Press , 1978) p. 20..
- (35) مبارك محمد المعبد، مرجع سابق، ١٨٨.
- (36) سهى سعود شعبان، الأوبئة والتدابير الصحية في ولاية الحجاز خلال مواسم الحج 1293-1327 / 1876-1909 م ، جامعة الملك- عبدالعزيز، رسالة ماجستير غير منشورة، 2017 م ، 138. وكالة الأنباء السعودية، الملك عبدالعزيز ينظم عمل الطواف بالحج ويؤسس مدرسة للمطوفين ، متاح على <https://www.spa.gov.sa/>.
- (37) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 106.
- (38) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 107.
- (39) وليم اوكنسولد، مرجع سابق، 46.
- (40) عصام حمزة محمود بخش، الحج بين ماضي الطواف وعراقة أهل مكة المكرمة، 2017م، متاح على، <https://www.al-jazirah.com>
- (41) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 108-109. وليم اوكنسولد، مرجع سابق، 35.
- (42) بارك محمد المعبد، مرجع سابق، 157-159.

- (43) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 110.
- (44) كانت العملات المحلية المتداولة في الحجاز هي القرش العثماني، والعملات المعدنية من فئة السكونيات البنديقية والمجرية والدولارات الإسبانية والقرش المصري والبارة العثمانية . العرابي، الحرفيون في جدة في القرن 13/19م، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، المجلد: 23، العدد الأول(2016م)، 40.
- (45) مبارك محمد المعبدي، مرجع سابق، 295-296. عبد الرحمن سعد العرابي ، الحرفيون في جدة، مرجع سابق، 39.
- (46) وليم اوكنولد، مرجع سابق، 35.
- (47) كان الحاج يدفع عند وصوله إلى ميناء جدة ٨ قروش إلى مكتب الصحة، كرسوم عن الحجر الصحي وقرشين ضريبة إجازة السفر . داييل بن علي الخالدي، مرجع سابق، ٣٢١.
- (48) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 41 .
- (49) اوكنولد، مرجع سابق، 149.
- (50) القحطاني، مرجع سابق، 100-101 صابرة مؤمن إسماعيل، مرجع سابق، 96.
- (51) Al-amr, Op. Cit., p.25.
- (52) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 67..
- (53) محمد احمد الرويثي، المواني السعودية على البحر الأحمر - دراسة في الجغرافيا الاقتصادية، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1938م)، 298.
- (54) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 61-71
- (55) المبروك محمد الباهي، البحر الأحمر تاريخ عالم أكثر من بحر، (جدة : جامعة الملك عبد العزيز، 2018م)، 283 .
- (56) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 63.
- (57) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 69. وليم اوكنولد، مرجع سابق، 155.
- (58) محمد سعيد الشعفي، التجارة الخارجية لمدينة جدة في العهد العثماني 1840-1916م، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، 2007م)، 105-108. أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 70.
- مبارك محمد المعبدي، مرجع سابق، 303. محمد سعيد الشعفي، مرجع سابق، ١٢٧-١٣٥.
- (59) صابرة مؤمن إسماعيل، مرجع سابق، 79. القحطاني، مرجع سابق، ١٠٢-١٠٤.
- (60) مبارك محمد المعبدي، مرجع سابق، 346.
- (61) مبارك محمد المعبدي، المرجع السابق، 352.
- (62) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 74.
- (63) عبدالله سراج منسي، جدة في التاريخ الحديث (923 1344 - / 1517-1926 م)،

- (الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية، 2015م)، 140. وليم اوكسنولد، مرجع سابق، 158.
- (64) عبدالله سراج منسي، المرجع السابق، ١٢٧-١٢٨. أمل أحمد النتيفي، مرجع سابق، 75-76.
- (65) صابرة مؤمن إسماعيل، مرجع سابق، 89.
- (66) وليم اوكسنولد، مرجع سابق، 153-154.
- (67) أمل أحمد النتيفي، مرجع سابق، 75-76.
- (68) وليم اوكسنولد، مرجع سابق، 151-152.
- (69) وليم اوكسنولد، المرجع السابق، 76.
- (70) مبارك محمد المعبدي، مرجع سابق، 227.
- (71) وليم اوكسنولد، مرجع سابق، 154-158.
- (72) محمود عبدالغني صباغ، جدة من ميناء التجارة الهندية إلى مدينة عالمية آن الأوان، صحيفة الحياة، 2014م، متاح على [/https://ae.linkedin.com](https://ae.linkedin.com) (73)
- (74) محمود عبدالغني صباغ، المرجع السابق .
- (75) بارك محمد المعبدي، مرجع سابق، 306. أمل أحمد النتيفي، مرجع سابق، 68.
- (76) مبارك محمد المعبدي، مرجع سابق، 255-259.
- (77) وليم اوكسنولد، المرجع السابق، ص28.
- (78) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 67.
- (79) أمل أحمد النتيفي، مرجع سابق، 47.
- (80) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 67.
- (81) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 74-75.
- (82) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 67-68.
- (83) وليم اوكسنولد، مرجع سابق، 28.
- (84) أمل أحمد النتيفي، مرجع سابق، 48.
- (85) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 78.
- (86) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 78. شرف عبدالمحسن البركاتي، مرجع سابق، 118.
- (87) داييل بن علي الخالدي، مرجع سابق، 28.
- (88) عدنان بن عيسى العمري، النشاط الاقتصادي في ينبع في العصر العثماني، (المدينة المنورة : كرسي الملك سلمان لدراسات تاريخ المدينة المنورة)، 34.
- (89) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 79.

- (90) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 80.
- (91) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 47.
- (92) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 80-82.
- (93) عبدالله سراج منسي، مرجع سابق، 125.
- (94) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 82-83.
- (95) عثمان نوري باشا: الوالي العثماني علي الحجاز منذ عام 1257هـ / 1841م وحتى عام 1261هـ / 1845م. صفحة 128 / ب-ب من سالنامة 1309هـ.
- (96) دايل بن علي الخالدي، مرجع سابق، 29.
- (97) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 84.
- (98) دايل بن علي الخالدي، مرجع سابق، 29.
- (99) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 84.
- (100) وليم اوكنولد، مرجع سابق، 149.
- (101) وليم اوكنولد، المرجع السابق، 152.
- (102) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 85.
- (103) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 85-86.
- (104) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 87.
- (105) وليم اوكنولد، مرجع سابق، 29.
- (106) دايل بن علي الخالدي، مرجع سابق، 30.
- (107) وليم اوكنولد، مرجع سابق، 29.
- (108) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 86.
- (109) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 159.
- (110) وليم اوكنولد، مرجع سابق، 31-33.
- (111) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 159.
- (112) محمد علي القعطبي و حسين حسن، الحرف والصناعات هل يجرفها تيار المدنية الحديثة، مجلة الفيصل العدد 9، 224، متاح على <https://books.google.com.sa/books?id>
- (113) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 161.
- (114) أمل أحمد النتيقي، مرجع سابق، 53-54.
- (115) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 161-163.
- (116) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 164.
- (117) المبروك محمد الباهي، مرجع سابق، 71.
- (118) صابرة مؤمن إسماعيل، مرجع سابق، ١٠٦.

- (119) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 164-165 .
- (120) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 166. أمل أحمد النتيفي، مرجع سابق، 54.
- (121) القحطاني، مرجع سابق، 166-167. صابرة مؤمن إسماعيل، مرجع سابق، 109.
- (122) - حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 167.
- (123) عبدالرحمن العرابي، الحرفيون في جدة، مرجع سابق، ٤٥.
- (124) عبدالله سراج منسي، مرجع سابق، 123.
- (125) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 167.
- (126) صابرة مؤمن إسماعيل، مرجع سابق، 107-108.
- (127) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 167.
- (128) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 168.
- (129) الحرفيون في جدة، مجلة الفيصل، العدد 269، 142. متاح على <https://books.google.com.sa/books>
- (130)
- (131) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 168.
- (132) حمد محمد القحطاني، المرجع السابق، 170-171.
- (133) صابرة مؤمن إسماعيل، مرجع سابق، 109.
- (134) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 172-173 .
- (135) صبري فالح الحمدي، أخبار الحجاز في الرحلات والوثائق الروسية المنشورة 1879-1907م، مجلة الآداب الجامعة المستنصرية، العدد 106، 324.
- (136) حمد محمد القحطاني، مرجع سابق، 175-177 .
- (137) لم تكن مهنة الصرافة خاصة فقط بموسم الحج وإنما ارتبطت بالتجارة، والواقع أن هذه المهنة لم تقتصر على الصرافين فقط بل عمل بها كثير من الناس في أماكن وجود الحجاج ابتداءً من الميناء وحتى بيوت وكلاء الحجاج .
- (138) العرابي، الحرفيون في جدة، مرجع سابق، 44.
- (139) المبروك محمد الباهي، مرجع سابق، 263.
- (140) العرابي، الحرفيون في جدة، مرجع سابق، 37-38.
- (141) صابرة مؤمن إسماعيل، مرجع سابق، 109.
- (142) العرابي، الحرفيون في جدة، مرجع سابق، 41.
- (143) أمل أحمد النتيفي، مرجع سابق، 55. الحرفيون في جدة، مجلة الفيصل، 141.
- (144) أمل أحمد النتيفي، مرجع سابق، 55.
- (145) وليم اوكنولد، مرجع سابق، 30.
- (146) صابرة مؤمن إسماعيل، مرجع سابق، 107. الحرفيون في جدة، مجلة الفيصل، 141-146.
- (147) أمل أحمد النتيفي، مرجع سابق، 56.

مصادر ومراجع الدراسة:

أولاً : الوثائق المنشورة

- حجاز ولايتي سالنامه سي 1309 هـ / 1892 م ، مكة المكرمة : مطبعة الحجاز ولايتي ، 1309 هـ .

ثانياً: المصادر :

- دحلان ، أحمد زيني ، (ت1304 هـ) ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، القاهرة : المطبعة الخيرية ، 1305 هـ .

ثالثاً: الرسائل العلمية:

- شعبان ،سهى سعود، الأوبئة والتدابير الصحية في ولاية الحجاز خلال مواسم الحج 1293-1327/1876-1909م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك-عبدالعزیز، 2017م.
- النتيفي ، أمل أحمد، تأثير افتتاح قناة السويس على الحجاز (1286-1333/1286-1333)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز : جدة .
- لمصعبي ، حمده عبد الله (2013م) ،السالنامه كمصدر من مصادر تاريخ الحجاز الحديث خلال فترة الحكم العثماني الثاني 1303 دراسة تحليلية لسالنامه 1303 هـ / 1886 م ، رسالة ماجستير ، جامعة الملك عبد العزيز : جدة.

رابعاً: المراجع :

أ) المراجع باللغة العربية :

- أبو عليه ، عبدالفتاح حسن (2009م)، تاريخ الدولة السعودية في أدوارها الثلاثة، الرياض: دار المريخ للنشر، .
- إسماعيل ، صابرة مؤمن (1418هـ) ،، جدة خلال الفترة 1286-1326هـ/1869-1908 مدارس تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة، الرياض: دار الملك عبد العزيز .
- الخالدي ، دایل بن علي (1435هـ)، الإدارة العثمانية وأنظمتها في الحجاز في عهد السلطان عبدالحميد الثاني (1293-1327 / 1876-1909م)، الرياض : دار الملك عبد العزيز .
- رجب، السيد (1981م)، المدن الحجازية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م.
- البركاتي ، شرف عبدالمحسن (1384هـ)، الرحلة اليمانية لصاحب الدولة أمير مكة الشريف حسن باشا مع جغرافية البلاد العربية وأسماء قبائلها، بيروت : المكتب الإسلامي .
- رضوان ، نبيل عبد الحي (1403هـ) ، الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس 1286 – 1326 هـ / -1896 1908 م ، جدة : مكتبة تهامة .

- الرويثي , محمد احمد (1983م)،المواني السعودية على البحر الأحمر – دراسة في الجغرافيا الاقتصادية، بيروت: مؤسسة الرسالة .
- السباعي , أحمد (1994م)، تاريخ مكة، دراسات في السياسة واعلم والاجتماع والعمران، مكة المكرمة: نادي مكة الثقافي .
- الشعفي , محمد سعيد(2007م)، التجارة الخارجية لمدينة جدة في العهد العثماني 1840-1916م، الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية .
- الشناوي , عبد العزيز محمد (1997م)، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، أربعة أجزاء , القاهرة : مكتبة ألا نجلو المصرية .
- القحطاني , حمد محمد (2009م) ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم الحجاز (1297-1323/1880-1905م)، بيروت : الدار العربية للموسوعات .
- العمري ,عدنان بن عيسى، النشاط الاقتصادي في ينبع في العصر العثماني، المدينة المنورة: كرسي الملك سلمان لدراسات تاريخ المدينة المنورة .
- المبروك محمد الباهي (2018م)، البحر الأحمر تاريخ عالم أكثرمن بحر، جدة : جامعة الملك عبدالعزيز .
- المعبدي , مبارك محمد (1413هـ)، النشاط التجاري لميناء جدة خلال الحكم العثماني 1256هـ -1840م _1335هـ-1916م، جدة: النادي الأدبي الثقافي .
- منسي ,عبدالله سراج (2015م)، جدة في التاريخ الحديث (923-1344/1517-1926م)، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية .
- يوسف , عمادعبدالعزیز يوسف (2014م)، الحجاز في العهد العثماني 1876-1918م، بغداد: بيت الوراق للنشر .

ب (المراجع المترجمة إلى اللغة العربية :

- اوكنولد , وليم (1431هـ)، الدين والمجتمع والدولة في جزيرة العرب – الحجاز تحت الحكم العثماني 1840-1908م ،ترجمة : عبد الرحمن سعد العرابي، جدة: مطابع جامعة الملك عبد العزيز .

ج (المراجع الأجنبية :

- Al- Amr ,Saleh Muhammad (1978),The Hijaz Under Ottoman Rule 1869 – 1914 Riyadh; Riyadh University :

خامسا الدوريات :

أ) باللغة العربية :

- بخش , عصام حمزة محمود، الحج بين ماضي الطوافة وعراقة أهل مكة المكرمة، 2017م، متاح على، <https://www.al-jazirah.com>
- الحمدي ,صبري فالح، أخبار الحجاز في الرحلات والوثائق الروسية المنشورة 1879-

- 1907م، مجلة الآداب الجامعة المستنصرية، العدد 106.
- صابان، سهيل، مخصصات القبائل العربية من واقع (الصرة) العثمانية لعام 1778م، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، العدد 20، (1428-1429) .
 - صباغ , محمود عبدالغني ، جدة من ميناء التجارة الهندية إلى مدينة عالمية آن الأوان، صحيفة الحياة، 2014م، متاح على <https://ae.linkedin.com>
 - محمد علي القعطبي و حسين حسن، الحرف والصناعات هل يجرفها تيار المدنية الحديثة، مجلة الفيصل العدد 9,224، متاح على [/https://books.google.com.sa](https://books.google.com.sa)
 - العرابي , عبد الرحمن سعد (2010م)، التمردات الاجتماعية في مكة المكرمة إبان فترة الحكم العثماني الثاني 1256-1334هـ/1840-1916م أسبابها وتأثيرها من خلال المصادر المحلية المعاصرة، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، المجلد: 18، العدد الأول.
 - العرابي , عبد الرحمن سعد، الحرفيون في جدة في القرن 13/19م، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، المجلد: 23، العدد الأول .
 - الحرفيون في جدة، مجلة الفيصل، العدد 296، متاح على <https://books.google.com.sa/books>

ب) باللغة الأجنبية :

-William Ochsenwald, Ottoman Arabia and the Holy Hijaz, 1516-1918, Journal of Global Initiatives: Policy, Pedagogy, Perspective: Vol. 10 : No. 1 , Available at: <https://digitalcommons.kennesaw>

سادسا : المواقع الالكترونية :

وكالة الأنباء السعودية، الملك عبدالعزيز ينظم عمل الطوافه بالحج ويؤسس مدرسة للمطوفين ، متاح على <https://www.spa.gov.sa/>